التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين
(مكة والقدس)

منذ البعثة النبوية إلى نهاية العهد الراشدي
"دراسة تحليلية مقارنة"

تأليف/
د. محمد بن حسين الحارثي الشريف

تكوين
COMBINATION
دار تكوين للنشر والتوزيع
TKWEEN 2022

التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين

(مكة والقدس)

منذ البعثة النبوية إلى نهاية العهد الراشدي

«دراسة تحليلية مقارنة»

مجموعة تكوين المتحدة
للطباعة والنشر و التوزيع
جدة - حي مشرفة - شارع التضامن العربي
info@tkween.net.sa
tkween.net.sa
00966557772038

التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين

(مكة والقدس)

منذ البعثة النبوية إلى نهاية العهد الراشدي

«دراسة تحليلية مقارنة»

تأليف

الدكتور محمد بن حسين الحارثي الشريف

مكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل الكتاب

رسالة علمية نال عليها الباحث درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.

* انطلاقا من رؤيتي الخاصة أن مؤلفاتي هي **ذريتي الطيبة، وإرثي المبارك**، أقدم لقراء العربية، وطلاب العلم والمعرفة الرصينة؛ كتابي هذا (التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين..).

المقدمة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(٢)؛ فالصلاة والسلام المباركان العاطران الدائمان إلى يوم الدين على شفيع الأمة ونبي الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي الأمين، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي صلى إلى القبلتين، وأَمَّ الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الأكرمين الذين شاركوا في فتح وعمارة المدينتين المقدستين.

وبعد:

لقد أدى انبلاج فجر النبوة المحمدية وظهور الإسلام إلى تحول تاريخي للمدينتين المقدستين (مكة والقدس)، له عوامله المؤدية إليه، ومظاهره الناتجة عنه، وقد أدى هذا التحول إلى تعزيز مكانتهما الدينية وظهور فضلهما وأهمية دورهما في حياة الأمة الإسلامية.

---

(١) سورة سبأ، آية رقم (١).

(٢) سورة الأحزاب، آية رقم (٥٦).

ضمن المخطط النبوي الذي تم بتقدير وتكليف رباني من الله سبحانه وتعالى، لنبيه الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في العهدين المكي والمدني القائم على تخطيط بعيد المدى [استراتيجي] (١) ـ وتخطيط قصير المدى ـ تنفيذي، آخذاً بالأسبابِ لمواجهة التوقعات المستقبلية، ومعتمداً على منهج فكري عقدي يؤمن بالقدر ويتوكل على الله، ويسعى لتحقيق هدفٍ شرعي، هو عبادة الله والدعوة إليه، وتعمير الكون، وتربى على هذا النهج والمخطط النبوي الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام وساروا عليه في بناء الدولة الراشدية.

---

(١) يُرجِع الكتّاب أصل كلمة استراتيجية Strategy إلى الكلمة اليونانية إستراتيقوس Strategos وتعني فنون الحرب وإدارة المعارك. ويعرف قاموس المورد Almawrid الاستراتيجية على أنها تعني علم أو فن الحرب وإدارة العمليات العسكرية. انظر: عبد الحميد عبد الفتاح المغربي، الإدارة الاستراتيجية لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، (القاهرة: مجموعة النيل العربية، ١٩٩٩م)، ص١٧؛ منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ١٩٨٣م، ص٩١٤؛ أبو صالح: محمد حسين، التخطيط الاستراتيجي القومي، (الخرطوم: شركة مطابع العملة، ٢٠١٠م)، ص٥٦؛ الفيلالي: عصام بن يحيى، دليل التخطيط الاستراتيجي بمؤسسات التعليم العالي، سلسلة إصدارات نحو مجتمع المعرفة، الإصدار السادس، معهد البحوث والاستشارات، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٩ ـ ٣٥.

ومن منطلق أن شرف المبحوث (موضوع الدراسة) بشرف نتائجه، ورفعة قدره بكثرة منافعه، وبحسب منافعه تجب العناية به، وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمره؛ لذا حاولت أن أجمع في دراستي هذه ما بين تحقيق الباحثين والمؤرخين، وتلطيف الأدباء والمثقفين ـ بقدر جهدي ـ فَلَا يَنْبُو عَنْ فَهْمٍ، وَلَا يَدِقُّ فِي وَهْمٍ، مُسْتَشْهِدًا مِنْ كِتَابِ اللهِ ـ جَلَّ اسْمُهُ ـ بِمَا يَقْتَضِيهِ، وَمِنْ سُنَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِمَا يُضَاهِيهِ(١)، ثُمَّ بكل ما تيسر لي من المصادر التاريخية والرسائل العلمية والمراجع التخصصية؛ أَشَدَّ مَا يُقَوِّي أَركَانَهُ وَيُعلِي بُنيَانَهُ، والله الموفق.

* أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية هذا الموضوع في أهمية المدينتين المقدستين، وأهمية التحول التاريخي لهما، فبعد البحث والتقصي، توصلت ـ حسب علمي ـ إلى أن هذا الموضوع لم يُبحث من قبل بالرغم من كثرة ما كُتب عن المدينتين المقدستين في شتى المجالات، إذ اعتنى بهما المؤرخون عبر العصور التاريخية، وأُلِّفَ عنهما الكثير من المصادر والمراجع التاريخية والرسائل العلمية والأبحاث والمقالات، غير أني لم أقف على أي مدونة عن (التحولات التاريخية.. دراسة تحليلية مقارنة) الأمر الذي يُجلّي أهمية هذا الموضوع.

---

(١) ضاهاه وضاهأه: شابهَه. المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص٥٤٦.

ومن الأسباب:

- انطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] حيث ربط الله - عز وجل - بين هاتين المدينتين المقدستين بأشهر حادثة في تاريخ الأديان والأمم، فمكة المكرمة أول بيت، منطلق رحلة الإسراء الأرضية، والقدس «القبلة الأولى»، مبتدأ رحلة المعراج السماوية.

- اخترت الموضوع وعزمت على دراسته لتميزه بالجدة والأصالة؛ تحت عنوان (التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين مكة والقدس من البعثة النبوية إلى نهاية العهد الراشدي)«دراسة تحليلية مقارنة»؛ لهاتين المدينتين المقدستين المتقاربتي المنزع[2]، المتجانسة الميول[3]، المترابطة الحلقات[4]، في تلك المرحلة الزمنية الذهبية[5].

- إبراز أثر ظهور الإسلام في تاريخ هاتين المدينتين المقدستين، وإبانة

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٢) تقارب المنزع الفكري الديني.

(٣) المتجانسة: المتماثلة في الميول والعادات.

(٤) العلاقة بين المدينتين سلسلة من الحلقات المترابطة (في عدة جوانب).

(٥) المقصود (العهدين النبوي والراشدي).

فضلهما ومكانتهما في الإسلام وعناية المسلمين بهما.

- استقراءً للتحولات التاريخية لهما في دراسة تحليلية مقارنة في زمن واحد وظروف متشابهة.

*** منهج البحث:**

نظراً لطبيعة هذه الدراسة التاريخية، فقد فرض موضوع البحث استخدام أكثر من منهج علمي، فقد استخدمت المنهج التتبعي الاستقرائي، والمنهج الوصفي لبيان وصف وتطور الأحداث المرتبطة بالمدينتين المقدستين، متبعاً في ذلك سمات المنهج العلمي والتفسير الإسلامي للتاريخ المتمثل في:

١ - استعمال الرواية بعد التأكد من صحتها.

٢ - حسن الاستدلال واتباع التنظيم والترتيب الملائم مع حسن العرض.

٣ - الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة.

٤ - استقصاء المعلومات من مظانها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للمنهج التاريخي.

٥ - بيان المصادر والمراجع التي آخذ عنها، مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها.

٦ ـ حسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى، ومع الأنبياء والعلماء، والابتعاد عن التجريح الشخصي، والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء[١].

٧ ـ حرص الباحث على تأصيل المادة العلمية بالأدلة الشرعية من النصوص الثابتة في الكتاب والسنة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه

الدكتور محمد بن حسين الحارثي الشريف

مكة المكرمة

* * *

(١) السلمي: محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص١٣٩.

التمهيد

لقد أودع الله في المدن المقدسة (مكة والمدينة والقدس) جمالاً جلاليًا يأسِرُ الألباب ويجذب النفوس ويمتّعها، ويحرِّك كَوامن القُلوب ويحييها، جمالٌ فائق رَائق، يجري وفق نظام دقيق لا يحيد، انفرد بإبداعه ربُّ السَّماوات والأرض سبحانه وتعالى.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]؛ فالله وحده يختار من الأماكن والبلاد ما يشاء سبحانه.

وقال القاضي عياض: «جديرٌ بمواطِنَ عُمِرتْ بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل، وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وفاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول

---

(١) سورة القصص، آية رقم (٦٨).

أرضٍ مس جلد المصطفى تُرابها: أن تعظم عرصاتها، وتُنَسَّمَ نفحاتُها»[1].

* أولاً ـ تعريف التحول:

التحول لغة: تَحَوَّل عن الشيء: زال عنه إلى غيره. والحِوَل يَجْري مَجْرى التَّحْويل، يقال: حوّلُوا عنها تَحْويلاً وحِوَلاً. والتحويل مصدر حقيقي من حَوَّلْت، والحِوَل اسم يقوم مقام المصدر؛ قال الله عز وجل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[2]؛ أي تحويلاً، لا يريدون عنها تَحَوُّلاً، والتحول: التنقل من موضع إلى موضع، و«تغير الشيء عن حاله: تحول. وغَيَّرَهُ: حولَّه وبدَّله، كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[3]، أي: حتى يبدلوا ما أمرهم الله... إلى أن قال: وغِيَر الدهر: أحواله المتغيرة..»[4]. والتغيّر: في اللغة يقال (تغيّر) الشيء (عن حاله): أي

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: أبي الفضل عياض بن موسى اليحصُبي، تحقيق عبد ه علي كوشك، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ص٥٤٣.

(٢) سورة الكهف، آية رقم (١٠٨).

(٣) سورة الأنفال، آية رقم (٥٣).

(٤) ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، الطبعة: الأولى، دار صادر ـ بيروت، حرف الحاء (حول)، ص١٠٥٦؛ الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، =

تحول وغيّره ـ جعل غير ما كان: ـ أي: ـ حرّكهُ وبدّلهُ، التغيّر: ـ التحول والتبديل[1]. من هذه المصطلحات والمترادفات يمكن الوصول إلى أن المفهوم الرئيس هو (التحول).

ـ أنماط وأطر التحول:

وبعد الاطلاع واستقراء عدد من الدراسات العلمية حول التحولات والتغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية في المجتمعات، أمكن للباحث ـ بتوفيق الله ـ استنباط أربعة أنماط وأُطر للتحول في المجتمعين والبيئتين المقدستين كالتالي[2]:

= ١٩٨٧م، مادة «التحول»، ص٦٨؛ الفيومي: أحمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، الطبعة الأولى، شركة أبناء شريف الأنصاري، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مادة «حول»، ص٨٤؛ أحمد مختار عمر، وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة المجلد الأول: الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، مادة «حول»، ص٥٨٩.

(١) الزبيدي: مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة الكويت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج١٣، ص٢٨٦.

(٢) انظر: الزنيدي: عبد الرحمن بن زيد، حقيقة الفكر الإسلامي، دار المسلم ـ الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م؛ عثمان: إبراهيم، وقبس النوري: التغير الاجتماعي، الشركة العربية المتحدة للتسويق، ٢٠١٠م؛ الدقس: محمد، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، =

١ ـ **التحول الديني (الفكري)**: المقصود به التحول الذي يرتكز في انطلاقاته على الفكرة الدينية أو (العقيدة)، فقد كانت دوماً هي الفكرة الأصلية، التي تولدت عنها الحضارات الإنسانية على مدار التاريخ.

فلقد قام النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؛ معتمداً على منهج القرآن الكريم بتغيير العقائد، إلى عقيدة التوحيد، والأفكار، والتصورات، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، وفق مبادئ الإسلام السامية وتعاليمه السمحة، فكانوا الأنموذج والقدوة وخير القرون.

٢ ـ **التحول السياسي والتشريعي**: من قبائل متفرقة متناحرة إلى أمة واحدة يخفق عليها علم الإسلام، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ..﴾[(١)]، ومن قيادة القبيلة في مكة، أو الدولة الرومانية في القدس؛ إلى قيادة الشريعة الإسلامية (التي يمثلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخلفاؤه الراشدون).

٣ ـ **التحول الاجتماعي**: ويتخذ هذا التحول عدة أشكال:

= الأردن، ١٩٩٧م؛ زايد: أحمد، التغير الاجتماعي. مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠١م؛ الهواري: عادل مختار، التغير الاجتماعي والتنمية في الوطن العربي. مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٨م.

(١) سورة آل عمران، آية رقم (١١٠).

فالتحولات الاجتماعية تكون في النظام الاجتماعي والقيم الاجتماعية، والمظاهر الاجتماعية، ومراكز الأشخاص؛ وعليه فإن ماهية **التحول الاجتماعي: هو كل ما يطرأ على البناء الاجتماعي في الوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال مدة محددة من الزمن**، وبالتالي تحول المجتمع البشري إلى مجتمع صالح يهتدي بالهدى الرباني وأحكام الشريعة في العلاقات المجتمعية.

٤ ـ **التحول الاقتصادي**: في جميع النواحي المادية التي أحاطت بالمدينتين المقدستين، فالنشاط الاقتصادي من المؤثرات في التطورات والأحداث التاريخية، وفي توجيه التحولات الاجتماعية في البيئتين، والدور الذي يحدثه في التنظيم السياسي والتشريعي والأخلاقي في المجتمع، بكافة أشكاله في البيع والشراء والمعاملات التجارية على قاعدة الحلال والحرام.

* ثانيًا ـ الروابط التاريخية بين المدينتين المقدستين «مكة والقدس» قبل البعثة:

عرف العرب بلاد الشام، فاستقبلت تلك البلاد الكثير من الهجرات العربية المتتابعة طوال التاريخ، وقامت فيها وعلى أطرافها ممالك عربية (دولة الغساسنة في أطراف الشام)؛ تُوالي الروم. وكان عرب غرب الجزيرة أعرفَ بالشام ومدنها من العراق وحواضرها، ولم يكن قرب المسافة وحده هو الذي أنتج هذه العلاقة، بل كان نشاط التجارة بين غرب الجزيرة والشام

أدعى لترددهم عليها، وطوافهم بأنحائها[1].

ولقد كان الوجود العربي في بلاد الشام قديمًا؛ إذ لم يكن العرب بمعزل عن المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية، والسبب في ذلك اشتغالهم بالتجارة مع البلدان المجاورة لهم كبلاد الشام واليمن، أرجعه بعض المؤرخين إلى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، وأرجعه البعض الآخر إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن الوجود العربي في بلاد الشام كان في القرن الأول قبل الميلاد وأن العرب كانوا منتشرين في مناطق مختلفة داخل المنطقة ومن تلك القبائل العربية، قضاعة وتنوخ وسليح[2]. وفي المجمل يتضح من ذلك أن الوجود العربي في بلاد

---

(١) انظر: عبد الله: محمد عبد الله «محمد علي»: بيت المقدس في الكتاب والسنة»، رسالة ماجستير، ٢٠٠٧م، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص١٥ ـ ٣٠؛ برزق: مخلص يحيى: القدس من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إصدار: وحدة الدراسات والبحوث مؤسسة القدس، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ، ص٢١ ـ ٥١.

(٢) الخرابشة: ممدوح عبد الحليم، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي (القرن ٣ ـ ٧ ميلادي)، ماجستير، الجامعة الأردنية، آب ٢٠٠٢م، ص٢٧؛ انظر: ديسّيُو: رنيه، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٩ ـ ١٢؛ سالم: السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية، =

الشام كان مبكراً.

وانطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[1].

فإن قريشًا كانت تعد قوافلها الصيفية لتتجه إلى الشام سنويًا، فعرف الكثيرُ من القرشيين، أحوال حواضر الشام ومدنها، خاصة الواقعة في الجنوب، ومنها إيلياء: بيت المقدس، وغزة التي «كانت وجه متجرهم»؛ أي: مقصدهم في تبادل السلع والمتاجرة بأموالهم، وكان هاشم ابن عبد مناف؛ أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف، وكان أول من أخذ لقريش العِصَم[2]، فانتشروا من الحرم، أخذ لهم هاشم حبلاً[3] من ملوك الشام والروم وغسان[4]، حتى كانت رحلة الإسراء إلى المسجد

= ص١٥٧ ـ ١٦٥. وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

(١) سورة قريش، آية رقم (١ ـ ٤).

(٢) عصم: العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصما: منعه ووقاه، انظر: لسان العرب، مادة: عصم، ج٣٣، ص٢٩٧٦.

(٣) الحبل: العهد والذمة والأمان. انظر: لسان العرب، مادة: حبل، ج٩، ص٧٥٩.

(٤) الطبري: محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المجلد الأول، =

الأقصى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لتعلن للبشرية جمعاء وراثة النبي الخاتم لمقدسات الرسل من قبله[(١)].

وقد استمرت العلاقات بين أهل مكة والقدس خلال رحلاتهم التجارية إلى بلاد الشام، وقد حُفظت لنا بعض الروايات الصحيحة لدخول العرب بيت المقدس قبل أن يعم الإسلام الجزيرة العربية، ففي الحديث أن أبا سفيان بن حرب أخبر: «أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام، في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش (أي: في مدة صلح الحديبية عام ٦هـ)، فأتوه وهم بإيلياء...».. وفي رواية قال أبو سفيان: «فقال هرقل لصاحب شرطته: قلِّب الشام ظهراً لبطن حتى تأتي برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه...»[(٢)].

* * *

= ص٥٠٤؛ وانظر: الزبيري: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب، (ت٢٣٦هـ) كتاب نسب قريش، تحقيق: إ. ليفي بُروفنسال، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ج١، ص١٥.

(١) ما عُرض تمهيد لما سيأتي تفصيله ـ بمشيئة الله ـ في أبواب وفصول الكتاب.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، حديث رقم (٧)؛ ابن كثير: الإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: مأمون محمد سعيد الصاغرجي، ومحمود عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير: دمشق ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ج٤، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩.

الباب الأول
التحولات التاريخية لمكة الكرمة

❊ الفصل الأول: عوامل التحولات التاريخية لمكة.

❊ الفصل الثاني: مظاهر التحولات التاريخية في مكة.

الفصل الأول

عوامل التحولات التاريخية لمكة المكرمة

❊ توطئة:

انطلاقًا مما تم بيانه في تمهيد الدراسة من تعريف للتحول، وبيان أنماطه وأطره الأربعة، اقتضت الدراسة في هذا الفصل توضيح مجمل الأوضاع الدينية والاجتماعية في المجتمع المكي قُبيل (البعثة المحمدية)؛ التي أحدثت ـ بفضل الله ـ التحول الكبير في هذا المجتمع، من الشرك إلى الإيمان، ومن قيادة القبيلة؛ إلى قيادة الشريعة الإسلامية (التي يمثلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه الراشدون).

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

مكانة وفضائل مكة البلد الحرام

ومكة اختارها الله عز وجل مكاناً لبيته المحرم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1]، وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2].

وأشهر ما عُرف به البلد الحرام «مكة..»، ويعد بَطليمُس[3] أول الجغرافيين الذين تحدثوا عن مكة المكرمة، إذ ذكرها باسم (مكربة MACROBA، وهو اسم آرامي يقصد به مكة المكرمة، وقيل: أن الكلمة تحريف من الكلمة العربية (مقرب)، وهما نعت وصفي للبيت صار علماً،

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٩٦ ـ ٩٧).

(٢) سورة إبراهيم، آية رقم (٣٧).

(٣) بَطليمُس (كلوديوس) فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠ ـ ١٦٨م). نشأ في الإسكندرية. له «المجسطي» و«جغرافية بطليمس». المنجد في اللغة والإعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، ١٩٨٦م، دار المشرق ـ بيروت، ص ١٣٠.

وقيل إن اسم مكة أو مكا بابلي معناه البيت، بينما يرى آخرون أن هذا الاسم مشتق من الاسم السبئي (قلورابا)، ومعناه (القدس) أو (الحرم)(١).

ويرى جواد علي أن لفظ (مكربة MACROBA)، لفظة عربية أصابها التحريف ليناسب النطق اليوناني، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب، أي: لأنها مقربة من الآلهة، وهي تقرب الناس إليهم، وهي أيضًا مقدسة و(حرام). فاللفظة ليست اسمًا لمكة بل نعت لها في الأصل(٢).

وورد (اسم بكة) في ٢٩ نسخة مترجمة من أصل ٥٨ منها، أي: ما نسبته ٥٠ ٪ من المجموع ٥٨ في مختلف ترجمات الكتاب المقدس، ونسخة الإنجليزية والعربية، وهي نسبة ترجح كفة (وادي بكة)(٣).

وفي مكة المكرمة بلد الله الحرام: تشكلت أول أسرةٌ صغيرة مُكوَّنةٌ

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، مكتبة النهضة العربية، بغداد، ودار الحداثة، بيروت، ص٤٦.

(٢) جواد علي: المرجع السابق، ص٤٧.

(٣) مدير: عصام بن أحمد حسين، وليلى زعزوع: مكة المكرمة والمدينة المنورة في الكتاب المقدس، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص٥٥. والمقصود بالكتاب المقدس ـ كما وضحه المؤلفان ـ: (العهد القديم والجديد أو ما يعرف بـ «الكتاب المقدس The Holy Bible»،.. النص الديني الذي ورد في المزمور الرابع والثلاثين من أسفار اليهود والنصارى)، ص١٩.

من أمٍّ وطفلها الرضيع استقرَّت في دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد الحرام، وتلك الأسرة لم تكن تملك إلا جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، وسط وادٍ ليس به أنيس ولا ماء ولا زرع، غير أن تلك الأم المباركة لم يُخالجها شكٌّ البتَّة أن الله الذي اختار لها ولطفلها هذه البقعة النائية لن يُضيِّعها وابنها؛ بل اعتصمَت به، ورضِيَت بقضائه حينما قالت لزوجها إبراهيم عليه السلام: آلله أمَرَك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يُضيِّعنا، ولهذا جاءتها البُشرى، فقال المَلَك مُرسلاً إليها: لا تخافوا الضَّيْعة؛ فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه[1].

ولقد أصبحت تلكم الأسرة الصغيرة نواة الحياة البشرية، وأصل العمران في هذا المكان، وقد جاءت إلى صحراء الجزيرة العربية بشرف النبوة والرسالة لا غير، فصار البيت الحرام لهم وعاءً، وماءُ زمزم لهم سِقاءً، وعناية الله لهم حِواءً، حتى أذِنَ الله لإبراهيم عليه السلام أن يرفع هو وابنُه إسماعيل قواعد البيت، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

---

(١) القصة مفصلة في البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب (يزفُّون) الصافات: ٩٤، النسلانُ في المشي، حديث رقم (٣٣٦٤)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٥٧٨.

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٢٧ ـ ١٢٨). انظر: الشريم: سعود، المنهاج للمعتمر والحاج، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ص٣٤.

فاصطفى الله مكة لتكون موضع بيته ومحج قصاده، وقبلة عباده، حرمًا آمنًا مقدسًا، وأقسم بها في موضعين من كتابه، فقال جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[(٢)].

ومن فضائل مكة ـ حرسها الله ـ: ما ثبت عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن مكة حرَّمها الله تعالى ولم يُحرِّمها الناس، ولا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا، فإن أحدٌ ترخَّص لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقولوا له: إن الله أذِن لرسوله ولم يأذن لك، وإنما أُذِن لي فيها ساعةً من نهار، وقد عادَت حُرمتها اليوم كحُرمتها بالأمس، وليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ» متفق عليه[(٣)].

وفي روايةٍ أخرى متفقٍ عليها أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحُرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يُلتَقَطُ لُقطتُه إلا من عرَّفها، ولا يُختَلَى خَلاَه»[(٤)].

---

(١) سورة التين، آية رقم (٣).

(٢) سورة البلد، آية رقم (٣).

(٣) صحيح البخاري: حديث رقم (١٠٤، ١٨٣٢، ٤٢٩٥)؛ صحيح مسلم: حديث رقم (١٣٥٤).

(٤) صحيح البخاري: حديث رقم (١٨٣٤، ٢٤٣٣، ٢٤٣٢)؛ صحيح مسلم: حديث رقم (١٣٥٣).

فإن الله جل وعلا اختار مكة حرمًا آمنًا، وأرضًا منزوعة العنف والأذى وليست منزوعة السلاح فحَسْب؛ بل أمَّن الناس فيها حتى من القول القبيح، واللفظ الفاحش: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[1].

وأمَّن في الحرم الطيرَ والوحشَ وسائر الحيوان، ليكون الإحساس أبلغ، والقناعةُ أكمل ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾[2].

وإن مما يدل على حُرمة مكة أيضًا: ورود الآية الكريمة الدالة على المُعاقبة لمن همَّ بالسيئة فيها وإن لم يفعلها؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[3].

والإلحاد: هو المَيل والحَيْد عن دين الله الذي شَرَعه، ويدخل في ذلكم: الشرك بالله في الحرم، أو الكفر به، أو فعلُ شيءٍ مما حرَّمه الله، أو ترك شيءٍ مما أوجَبَه الله، أو انتهاكُ حُرمات الحرم، حتى قال بعض أهل العلم: يدخل في ذلكم: احتكار الطعام بمكة.

وقد قال بعض أهل العلم: إنها إنما سُمِّيَت مكة؛ لأنها تمُكُّ من ظَلَم؛ أي: تقصِمُه، وقد كانت العرب تقول:

---

(١) البقرة، آية رقم (١٩٧).

(٢) سورة ق، آية رقم (٣٧).

(٣) سورة الحج، آية رقم (٢٥).

يــا مكــة الظــالمَ مُكِّــي مكًّــا ولا تمُكِّـــي مُــــذحَجًا وعَكّـــا

كما أن من فضائل مكة: أنه يحرُم استقبالُها أو استدبارُها عند قضاء الحاجة دون سائر البِقاع، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أتيتم الغائط فلا تستقبِلوا القبلةَ، ولا تستدبِروها، ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا»؛ متفق عليه[١].

ومن فضائلها: ما ورد في فضل الصلاة فيها؛ حيث ثبَت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام»[٢].

وفي روايةٍ أخرى: أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألف صلاة»[٣]. ويكون معنى هذا الحديث: أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف؛ لأن الصلاة في المسجد النبوي بألف الصلاة، والصلاة في المسجد الحرام تفضُلُه بمائة، فيُصبِحُ المجموع: مائة ألفٍ حاصلُ ضرب ألفٍ في مائة، فلكم أن تتصوَّروا ـ عباد الله ـ فضل

(١) صحيح البخاري: حديث رقم (١٤٤، ٣٩٤)؛ صحيح مسلم: حديث رقم (٢٦٤).

(٢) صحيح مسلم: حديث رقم (١٣٩٤).

(٣) مسند أحمد، الطبعة الخامسة، بيت الأفكار الدولية، حديث رقم (١٤٦٩٤)، قال الألباني: صحيح، ج١، ص١١٨٧.

الفرض الواحد في السنة الواحدة في مكة، وأنه يُساوي خمسةً وثلاثين مليونًا وأربعمائة ألفٍ فيما سواه، وذلك حاصلُ ضرب مائة ألفٍ في عدد أيام السنة، وهي ثلاث مائة وأربعةٌ وخمسون يومًا تقريبًا، فما ظنُّكم لو ضربنا هذا العدد في خمسة فروض، وضربنا ناتج الخمسة في عدد أيام السنة، إنه ـ والله ـ لعددٌ مهول، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وقد اختلف أهل العلم في هذه المُضاعفة: هل هي خاصةٌ بالمسجد نفسه أو بمكة كلها؛ أي: ما كان داخل الأميال، وما ذهب إليه جمهور أهل العلم: أن المُضاعفة تشمل جميع مكة، غير أن الصلاة في نفس المسجد أفضل، وذلك لقِدَم المكان، ولكثرة الجماعة[(١)].

ومن الفضائل شرف المسمى وكثرة الأسماء:

قال ابن كثير في تفسيره: «وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس، لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسة: بالنون، وبالباء أيضًا، والحاطمة، والنساسة، والرأس، وكوثى، والبلدة، والبنية، والكعبة»[(٢)].

---

(١) انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ص٥٨٢؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج١، ص٨٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١٦٨؛ الحويطان: عبد العزيز بن محمد: أحكام الحرم المكي الشرعية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: سورة آل عمران، آية رقم ٩٦ ـ ٩٧، ج١، ص٣٨٤.

وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى، وإذا كان لمكة هذا العدد ـ وغيره ـ من الأسماء فإنما مرد ذلك إلى شرف المسمى، قال النووي: «واعلم أن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى كما في أسماء الله تعالى، وأسماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نعلم بلداً أكثر أسماء من مكة والمدينة لكونهما أفضل الأرض، وذلك لكثرة الصفات المقتضية للتسمية»[1].

والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أن مكة المكرمة ورد ذكرها بأسمائها وصفاتها في مواضع عديدة، ومنها:

أ ـ **مكة**: سميت مكة، لأنها تجذب إليها خيرات الدينا، أو لأنها تمك الفاجر عنها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[2].

ب ـ **بكة**: وسميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى: أنهم يذلون بها، ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكُّون فيها أي: «يزدحمون» وبكة بمعنى مكة والعرب تبدل الميم باء، كما في لازم ولازب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

---

(١) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج٤، ص١٥٧.

(٢) سورة الفتح، آية رقم (٢٤).

(٣) سورة آل عمران، آية رقم (٩٦)؛ تفسير ابن كثير: ج١، ص٣٨٤.

ت ـ **أم القرى**: يقول القرطبي: وقيل لمكة: أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها[1]، لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾[3]، والخطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[4].

ث ـ **البلد الأمين**: قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾[5].

ج ـ **البلد**: قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا﴾[7]، أي: واذكر ـ أيها النبي ـ حين قال إبراهيم داعياً: رب اجعل «مكة» بلداً آمناً من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات..[8] وأقسم الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٦، ص٩.

(٢) سورة النازعات، آية رقم (٣٠).

(٣) سورة الأنعام، آية رقم (٩٢).

(٤) سورة الشورى، آية رقم (٧).

(٥) سورة التين، آية رقم (١ ـ ٣).

(٦) سورة إبراهيم: آية رقم (٣٥).

(٧) سورة البقرة: آية رقم (١٢٦).

(٨) التفسير الميسر: ص١٩.

بالبلد: قال الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[1]. وأقسم الله بهذا البلد الحرام، وهو «مكة» وأنت ـ أيها النبي ـ حلالٌ في هذا البلد الحرام، تصنع فيه ما شئت.. وفي الآية بشارة بفتح مكة[2].

ح ـ **البلدة** ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا..﴾[3] البلدة، مكة التي حَرَّمها أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصيدوا صيدها، أو يقطعوا شجرها[4].

خ ـ **البيت العتيق**: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[5]، أي: لكم في هذه الهدايا منافع تنتفعون بها من الصوف واللبن والركوب، وغير ذلك مما لا يضرها إلى وقت ذبحها عند البيت العتيق، وهو الحرم كله[6].

د ـ **الكعبة من أسماء مكة**: قال تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾[7]، ويقول

---

(١) سورة البلد: آية رقم (١ ـ ٢).

(٢) التفسير الميسر: إعداد نخبة من العلماء، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الخامسة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ص٥٩٤.

(٣) سورة النمل، آية رقم (٩١).

(٤) التفسير الميسر: ص٣٨٥.

(٥) سورة الحج، آية رقم (٣٣).

(٦) التفسير الميسر: ص٣٣٦.

(٧) سورة المائدة، آية رقم (٩٥).

القرطبي: أما الهدي فلا خلاف أنه لا بد له من مكة[١].

ذ- **معاد**: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، قال القرطبي: ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم برده إلى مكة قاهراً لأعدائه[٣].

ر- **القرية**: ذكر ابن كثير: وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[٤] قال: يعني: مكة[٥].

ز- **الوادي** قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٦]، ومكة هي الوادي المبارك المذكور في هذه الآية[٧].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص٢٩٣.

(٢) سورة القصص، آية رقم (٨٥).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص٢٨٤.

(٤) سورة محمد، آية رقم (١٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ج٤، ص١٧٦.

(٦) سورة إبراهيم، آية رقم (٣٧).

(٧) انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ص٦٦٩؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٨٠؛ =

س ـ الحرم الآمن قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[2]، يقول ابن كثير: «يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً»[3].

وقال ابن القيم في خصائص البلد الحرام:

«.. ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]، فتأمل كيف عدى فعل الإرادة هاهنا بالباء ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل همَّ، فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن

= الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١١١؛ الحويطان: أحكام الحرم المكي الشرعية، ص١١.

(١) سورة القصص، آية رقم (٥٧).

(٢) سورة العنكبوت، آية رقم (٦٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ج٢، ص٤٢٢.

(٤) سورة الحج، آية رقم (٢٥).

يذيقه العذاب الأليم. ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها، فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها وصغيرة جزاؤها مثلها فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد فهو الأولى بقول القائل:

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ

وَمَغْنَاطِيسُ أفئدَةِ الرجالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقًا:

لا يرجعُ الطَّرْفُ عنها حينَ يَنْظُرُها

حتى يعودَ إليها الطَّرفُ مُشتاقًا»[1]

---

(١) زاد المعاد، ص١٦.

من معالم ومشاعر مكة المكرمة:

١ ـ **المسجد الحرام** قال الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[(١)]. ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه أسرى بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليلاً من المسجد الحرام الذي هو أجل المساجد على الإطلاق إلى المسجد الأقصى الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء، فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعما فاق بها الأولين والآخرين؛ وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل وأنه من نفس المسجد الحرام لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام، لسائر الحرم فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد كما يرى بعض السلف، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة، وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الإسراء، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قال قلت: يا رسول الله،

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم (١).

أي مسجد وضع أول؟ قال المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة الحديث[1].

٢ ـ مقام إبراهيم: قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2]، أي: واتخِذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، ولذا تشرع صلاة ركعتين خلفه والقراءة بعد الفاتحة في الأولى بسورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾[3]، وفي هذا البيت دلالات ظاهرات أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظَّمه وشرَّفه، منها: مقام إبراهيم عليه السلام، وهو الحَجَر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل عليهما السلام[4].

٣ ـ الصفا والمروة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت: ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٤٥٣؛ تفسير ابن كثير: ج٣، ص٣.

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٢٥).

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (٩٧).

(٤) التفسير الميسر: ص٦٢.

شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، أما الصفا فهو الموضع المرتفع الذي يبدأ الحاج السعي منه، والمروة الموضع الذي ينتهي السعي فيه ـ وهما في الأصل جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق ـ وهما من معالم دين الله الظاهرة التي تعبَّد الله عباده بالسعي بينهما. فمَن قصد الكعبة حاجًّا أو معتمرًا، فعليه أن يسعى بينهما[2].

٤ ـ عرفات والمشعر الحرام: في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3]. أي: إذا دفعتم بعد غروب الشمس راجعين من «عرفات» ـ وهي المكان الذي يقف فيه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ـ فاذكروا الله بالتسبيح والتلبية والدعاء عند المشعر الحرام ـ «المزدلفة» ـ واذكروا الله على الوجه الصحيح الذي هداكم إليه، ولقد كنتم من قبل هذا الهدى في ضلال لا تعرفون معه الحق[4].

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٥٨).

(٢) انظر: الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٢٤.

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٩٨).

(٤) التفسير الميسر: ص٣١؛ انظر: الفاكهي: أخبار مكة، ج٤، ص٣١١، ج٥، ص٥.

٥ ـ منى: قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[(١)]. واذكروا الله تسبيحًا وتكبيرًا في أيام قلائل، وهي أيام منى، أيام التشريق: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة. فمن أراد التعجل وخرج من «مِنى» قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر فلا حرج عليه، ومن تأخر بأن بات بـ «مِنى» حتى يرمي الجمار في اليوم الثالث عشر واتقى الله في حجه، فهو أفضل؛ لأنه تزوَّد في العبادة واقتداء بفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)].

٥ ـ **غار جبل ثور**: وهو الغار الذي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق قبل خروجهما من مكة المكرمة مهاجرين إلى المدينة المنورة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٣)]، وغار ثور هو المراد في الآية، وأما

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٠٣).

(٢) التفسير الميسر: ص٣٢.

(٣) سورة التوبة: آية رقم (٤٠).

غار حراء فلم يرد له ذكر في كتاب الله مع ثبوته بالأحاديث الصحيحة[(١)].

٦ ـ **جبل حراء (جبل النور)**: هو الجبل الذي شهد تنزل أول آيات القرآن الكريم، قال التقي الفاسي: جبل حراء بأعلى مكة؛ سُمّي بجبل النور لكثرة مجاورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه وما خصه الله به فيه من الكرامة بالرسالة إليه، ونزول الوحي فيه عليه، وكان نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حراء في غار فيه. ونقل الفاسي أيضًا عن أبي عبيد البكري أنه قال: حراء مشهور، بينه وبين مكة ميل ونصف، وهو جبل صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد على رصفة ملساء، وهو في جميع جوانبه منقطع لا يرقاه راق، والموضع الذي نزل جبريل فيه في أعلاه من مؤخره في شق مبارك. ثم تعقب الفاسي على أبي عبيد ما ذكر أن بين حراء ومكة ميل ونصف[(٢)].

* أهل مكة.. أهل الله:

ورد عند الأزرقي[(٣)]: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد

---

(١) انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ص٥٨٢ ـ ٧٢٦؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٤٦؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١١١ ـ ١٥١.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص١١١ ـ ١٥١.

(٣) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، (ما ذكر من أهل مكة أنهم أهل الله)، ج٢، ص٧٢٦ ـ ٧٢٩.

رأيت أَسيداً في الجنة، وأنى يدخل أَسيد الجنة» فعرض له عتاب بن أَسيد، فقال: «هذا الذي رأيت، ادعه لي» فدعا، فاستعمله يومئذ على مكة، ثم قال لعتاب: «أتدري على من استعملتك؟ **استعملتك على أهل الله**، فاستوص بهم خيراً» يقولها ثلاثـاً[1].

وعند الأزرقي عن ابن أبي مليكة، أنه كان يقول: كان أهل مكة فيما مضى يلقون، فيقال لهم: يا أهل الله، وهذا من أهل الله[2].

كما ورد: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل نافع بن عبد الحارث الخزاعي على مكة قال: فلما قدم عمر استقبله، فقال عمر: من استخلفت على أهل مكة؟ فقال: ابن أبزى قال: استعملت على أهل الله رجلاً من الموالي؟ فغضب عمر حتى قام في الغرز، قال: فقال: إني وجدته أقرأهم لكتاب الله، وأعلمهم بدين الله قال: فتواضع عمر بن الخطاب حتى لصق بالرحل، ثم قال: لئن قلت ذلك؛ لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يرفع بهذا الدين أقوامـًا، ويضع به آخرين»[3].

وقال عطاء بن أبي رباح: ليس أحد من خلق الله ـ تعالى ـ إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان لا بد منهما من استطاع إليه سبيلاً، كما قال الله

---

(١) الحديث: إسناده مرسل، في الحاشية، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢٦.

(٢) الحديث: إسناده حسن، في الحاشية، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢٧.

(٣) الحديث: إسناده صحيح، في الحاشية، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢٧.

ـ تبارك تعالى ـ وحتى أهل بوادينا، قال: إلا أهل مكة. قال: عليهم حجة، وليس عليهم عمرة، من أجل أنهم أهل البيت[1].

* مكة المكرمة مركز العالم:

توصل أحد الباحثين العرب المسلمين وهو: الدكتور حسين كمال الدين أحمد؛ عند إعداده خريطة جديدة للكرة الأرضية يحدد من خلالها اتجاهات القبلة، وذلك لحاجة المسلمين إلى معرفتها ليتجهوا إليها في الصلاة، عندما يكونون في أماكن بعيدة عن المساجد، أو في بلاد غير المسلمين: إلى أن مكة المكرمة هي مركز الأرض، وتعتبر منتصف العالم؛ إذ يقول: «إنني بعدما وضعت الخطوط الأولى في هذا البحث، ورسمت عليها القارات الأرضية، وجدت أن مكة المكرمة هي مركز لدائرة تمر بأطراف القارات الأرضية، أي: أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة، توزيعًا منتظمًا، وأن مدينة مكة المكرمة في هذه الحالة تعتبر مركزاً للأرض اليابسة، وصدق الله العظيم، إذ قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2]، والخطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا

(١) الحديث إسناده: صحيح، كما ورد في حاشية الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٧٢.

(٢) سورة الأنعام، آية رقم (٩٢).

عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[1][2].

ومن أحدث ما توصل إليه الدكتور المهندس يحيى وزيري، في إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية من خلال برنامجين هما:

١ ـ Google Earth.

٢ ـ Qibla locator.

وبعد اختيار مواقع محددة (ممثلة بخطوط الطول والعرض) والتي تمثل أبعد مسافات عن مكة المكرمة في قارات العالم، فقد اتضح التالي:

١ ـ توسط مكة المكرمة لليابسة من خلال عدة مستويات وليست من مستوى واحد.

٢ ـ أن خط التوقيت العالمي يجب أن يكون هو خط طول مكة المكرمة وليس خط جرينتش.

٣ ـ أن الخط الواصل بين جبلي الصفا والمروة، يشير تقريباً إلى اتجاه الشمال ـ الجنوب الحقيقي، كأول شاهد مادي طبيعي يرتبط بخط طول مكة المكرمة.

---

(١) سورة الشورى، آية رقم (٧).

(٢) حسين كمال الدين أحمد: الإسقاط المكي للعالم، مجلة الدارة/ العدد ٢، السنة ٧، محرم ١٤٠٢هـ ـ نوفمبر ١٩٨١م، ص١٦ ـ ٣٠.

٤ ـ أن القطر المار بركني الكعبة اليماني والعراقي يشير إلى اتجاه الشمال ـ الجنوب الحقيقي، كثاني شاهد مادي ارتبط بالكعبة المشرفة الموجودة بمكة المكرمة[١].

*** الأوضاع «العقدية» قبل البعثة:**

ساءت أحوال العرب عامة ومنهم قريش بانحراف اعتقاد الوحدانية لله أو «الحنيفية الإبراهيمية» فاتخذوا مع الله شفعاء ووسطاء من أصنام وأوثان وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[٢]. كما عبدوا الكواكب ودانو باليهودية والنصرانية، وكان منهم الدهرية إلى الوثنية، وقد كان لكل بلدة أو أرياف متجاورة صنم، بل كان لكل قبيلة أو عدد من القبائل صنم، فمكة ـ مثلاً ـ كان أعظم أصنامها (هُبل)، بينما كان (اللاّت) أعظم أصنام الطائف، وهكذا، وكان لكل بيت صنم، وأصبحت تجارة الأصنام لها تجار وصناع، وقد امتلأ المسجد الحرام بالأصنام حتى بلغ عددها ثلاثمائة وستين صنمًا من مختلف الأنواع والأشكال، ومن أعجبها (إساف) و(نائلة) وهما: رجل وامرأة من اليمن زنيا بالبيت الحرام فمسخهما الله

---

(١) وزيري: يحيى، إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة، رابطة العالم الإسلامي (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، دار جياد للنشر والتوزيع ـ جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٢٢ ـ ٤٣.

(٢) سورة الزُّمر، آية رقم (٣).

أحجارًا، ومع مرور الزمن عبدهما الناس، ووضعوا أحدهما على الصفا، والآخر على المروة، إلى هذا الحد بلغت سفاهتهم ولم يكن هناك أحد على الدين الصحيح إلا أقل القليل[1]؛ كزيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد رضي الله عنه[2]، وكان حنيفًا على ملة إبراهيم عليه السلام،

---

(١) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ج١، ص٧٢ ـ ٧٩؛ الأزرقي: الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت٢٥٠هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص١٨٥ ـ ١٩٠.

(٢) الصحابي الجليل: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، القرشي، العدوي، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وزوج أخته فاطمة، وكنيته أبو زيد. أسلم مبكراً هو وزوجته فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام عمر، كما كان إسلام عمر في بيت سعيد. كان سعيد بن زيد رضي الله عنه من سادات الصحابة المهاجرين وفضلائهم، ومن المهاجرين الأولين، شهد سعيد المشاهد كلها مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم غير وقعة بدر. وكان سعيد بن زيد من العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم، قال الواقديّ: توفي بالعقيق، فحمل إلى المدينة، وذلك سنة خمسين. وقيل: إحدى وخمسين. وقيل: سنة اثنتين وعاش بضعًا وسبعين سنة. انظر: ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري: كتاب =

وكذلك ورقة بن نوفل[1]، وكان قد تَنَصّر، كما كان هناك قس بن ساعدة، وكان يبشر بمجيء نبيٍّ، وقد أدرك النبيّ فعلاً، ولكنه لم يدرك البعثة[2].

= الطبقات الكبير، تحقيق: د. علي محمد عمر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، الناشر: مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ج٣، ص٣٥٢؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ج٣، ص٨٨.

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكره الطبري والبغوي وابن قانع وابن السكن وغيرهم في الصحابة، اعتزل الأوثان، وتنصر، وقرأ كتب الأديان، وحديثه في بدء الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. انظر ابن حجر: الإصابة، ج٦، ص٦٠٧.

(٢) هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُهَير ابن إياد بن نِزَار، الإيادي، البليغ الخطيب المشهور. مات قبل البعثة، وقد سمع النبي صلّى الله عليه وآله وسلم حكمته، وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكّأ على عصا في الخطبة، وأول من قال: أما بعد في [قول]، وأول من كتب من فلان إلى فلان. لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال لهم: «ما فعل قسّ بن ساعدة الإياديّ؟» قالوا: مات يا رسول الله، قال: «كأني أنظر إليه في سوق عكاظ على جمل أحمر...» الحديث. انظر: ابن حجر: الإصابة، ج٥، ص٤١٤.

* الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية قبل البعثة:

الأسرة تمثل نواة المجتمع، وإذا أصاب تكوينها الخلل والانحراف؛ أسهم ذلك في تفكك المجتمع وانحراف أخلاقياته وروابطه، وتصف السيد عائشة رضي الله عنها النكاح في الجاهلية كما جاء في صحيح البخاري(١)، فتقول: «النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعلون ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح هو نكاح الاستبضاع...! ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ويمرّ عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل. ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: من قال: لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (٥١٢٧).

تمتنع ممَّن جاءها، وهنّ البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً (الرايات الحمر)، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة (الرجال الذين يستطيعون تمييز الوالد للولد عن طريق الشبه) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به (التصق به) ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك، كما ظهر وأد البنات قبل البعثة المحمدية ومعناها: دفن البنت حيةً، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، وَمَنْعاً وهات، ووَأْدَ البنات، وكَرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[1]. قال ابن حجر: (ووَأْدَ البنات هو دفن البنات بالحياة، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك كراهة فيهن، ويقال: إن أول من فعل ذلك قيس بن عاصم التميمي[2]، وكان بعض أعدائه أغار عليه فأسر

(١) صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: من قال: لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (٥٩٧٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج١٠، ص٥٩٤؛ صحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، حديث رقم (٥٩٣)، النووي: المنهاج، ج١٢، ص١١.

(٢) قَيْسُ بن عَاصِم بن سِنَان بن خالد ابن مِنْقَر بن عُبيد من بني تميم. وكان قيس قد حرّم الخمر في الجاهليّة ثمّ وفد على رسول الله صَلَّى الله عليه وآله سلم، في وفد بني تميم، فأسلم، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله سلم: «هذا سيّد أهل =

بنته فاتخذها لنفسه، ثم حصل بينهم صلح فخير ابنته فاختارت زوجها، فآلا قيس على نفسه أن لا تولد له بنت إلا دفنها حية، فتبعه العرب في ذلك، وكان من العرب فريق ثان يقتلون أولادهم مطلقًا، إما نَفَاسَةً[1] منه على ما ينقصه من ماله، وإما من عدم ما ينفقه عليه، وقد ذكر الله أمرهم في القرآن في عدة آيات[2]، وإنما خَصَّ البنات بالذِّكْر لأنه كان الغالب من فعلهم، لأن الذُّكور مظنة القدرة على الاكتساب..)[3].

= الوبر»، وكان سيّدًا جوادًا. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٣٥.

(١) ويقال: نفس عليك فلان ينفس نفسا ونفاسة أي حسدك. ابن منظور: لسان العرب، مادة نفس، ج٥٠، ص٤٥٠١.

(٢) أ/ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[الأنعام: ١٣٧].

ب/ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[الأنعام: ١٥١].

ج/ وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٤٠].

د/ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٣١].

هـ/ وقوله سبحانه في شأن مبايعة نبيه عليه الصلاة والسلام للنساء: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[الممتحنة: ١٢].

و/ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير، الآيتين: ٨ و٩].

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج١٠، ص٥٩٦.

كما انتشرت الأخلاق السيئة بين العرب؛ فتفشى فيهم شرب الخمر، حتى كتبت فيه أشعار تصفه، وتصف مجلسه بأدق التفاصيل، مع أنه كان يؤدي إلى كثير من النزاعات بين الناس، وتفشى الميسر أيضًا بصورة واسعة، وكثيرًا ما أورث الناس البغضاء والشحناء، لذا يقول الله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[1] كما كان الربا عندهم من المعاملات الأساسية وقالو: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾[2].

ويصف جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه حال قومه حين خطب أمام النجاشي فقال: «أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، ويَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ..»[3].

لكن كل تلك السلبيات لذلك المجتمع المكي، لا تصرف النظر عن الإيجابيات التي كان يتمتع بها ذلك المجتمع، ومنها الأخلاقيات التي يتفاخرون بها، كالكرم والشجاعة والنخوة والوفاء. وقد ساعدهم على البذل والعطاء والكرم وفرة المال والغنى الذي وصلت إليه بيوت بني عبد شمس ومخزوم وسهم وجُمَح وآخرين من الفروع القرشية، فجعل ذلك

---

(١) سورة المائدة، آية رقم (٩١).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢٧٥).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٩٠.

الغنى مكة فعلاً ملتقى تجارات العالم وصناعته، برغم أن كبار قريش لم يتخذوا القصور أو مظاهر الترف، إلا أنهم يملكون مبالغ ضخمة من دنانير الذهب ودراهم الفضة، وكانت لديهم أقبية الحرير والصوف والخز، وكانت لهم الضياع والبيوت في مكة نفسها وفي الطائف وتبالة ونجران وتيماء وحوران حتى بصرى وغزة، وحرصوا على تملك البساتين في الطائف حيث يقضون الصيف، وكان العباس بن عبد المطلب وهو من الهاشميين القلائل الذين دخلوا عالم التجارة وجمع أموالاً طائلة، ويملك ضيعة في جنوب الشام[1].

ويذكر ابن حبيب: أن من أجواد الجاهلية: من قريش: (هاشم) بن عبد مناف. و(أمية) بن عبد شمس. ومن بنى تيم بن مرة: عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة. وأبوه عمرو بن كعب. و(عبد الله) بن جدعان[2].

وقد أصبح مجتمع مكة عند ظهور الإسلام مجتمعاً حضرياً مستقراً لكنه قائم على أساس قبلي وأنه يتكون من ثلاثة عناصر، أولها وأهمها:

---

(١) مؤنس: حسين، تاريخ قريش، الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٩١.

(٢) محمد بن حبيب الهاشمي: كتاب المحبر: رواية أبي سعيد بن الحسين السكري عنه، تحقيق: الدكتورة ايلزة ليحتن شتير والدكتور محمد حميد الله، طبعة خاصة الدار النوادر ـ سورية ـ لبنان ـ الكويت، الإصدار الأول، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م. ص١٣٧.

القرشيون، فقد كانت لهم السيادة وتمتعوا بعقلية فذة في الإدارة. وإن تقسيم قريش إلى قريش البطاح وقريش الظواهر هو تقسيم اسمي ليس له أهمية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. والتمايز في المكانة الاجتماعية يقوم على عوامل، منها: الإسهام في إدارة مكة، وكثرة عدد أفراد البطن الواحد، والمال دعامة أساسية في رفع المكانة الاجتماعية، إضافة إلى بروز أفراد يجسدون أعلى القيم الاجتماعية مثل الكرم والمروءة ورجاحة العقل والإنصاف في القول والعمل. أما الفئة الثانية فهم الحلفاء، وهم من قبائل عربية حالفت قريش وامتزجوا بهم عن طريق الزواج والمشاركة بكل أسباب الحياة. وقد كان من أهم أسباب قدومهم مكة ازدهار الأحوال الاقتصادية فيها. وقد تمتعوا بمنزلة اجتماعية رفيعة يتساوون فيها مع القرشيين، إلا أن قريشاً أهل البلد وأصحاب الكلمة والنفوذ فيه. أما الفئة الثالثة فهم الموالي والرقيق ومنزلتهم في المجتمع هي الأدنى بكثير، ومارسوا أعمالاً مختلفة، وأصولهم تعود إلى بعض أقاليم الجزيرة وأفريقيا وفارس والروم[(١)].

* * *

(١) انظر: إلهام أحمد البابطين: الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص٣٠ ـ ٥٠.

المبحث الثاني

البعثة النبوية

كان مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة عامل التحول الأساس في حياة أهل مكة، بل والعالم أجمع؛ فتحول مسار البشرية، من الشرك إلى التوحيد؛ ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؛ وكان قد أخذ الله الميثاق على أنبيائه على الإيمان به ونصرته إن بُعث في حياتهم، وكان أمره في السموات قبل مولده مشهوراً. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه»[(١)]؛ فيُعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٦٣٦؛ ابن تيمية: تقي الدين، أحمد بن تيمية الحراني (ت٧٢٨)، مجموعة الفتاوى اعتنى بها: عامر الجزار وأنور الباز، دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ج١٠، ص٤٠٧؛ ابن كثير: الإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تفسير ابن كثير الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار الفكر، ج١، ص٣٧٩.

﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1]. وعن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ[2] صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت؛ وكذلك أمهات النبيين يرين وإن أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام..»[3].

---

(١) سورة آل عمران: آية رقم (٨١).

(٢) الصحابي الجليل العرباض بن سارية السلمي، من أعيان أهل الصفة، روى أحاديث، وسكن الشام، ونزل حمص، مات سنة ٧٥هـ. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص٤٨٢؛ الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص٥٠٠.

(٣) البيهقي: أحمد بن الحسين أبو بكر، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١، ص٨٠. ويورد ابن حجر: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٢/ ٦٨)؛ وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، ج٦، ص٨١٩، ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج١٠، ص٤٠٧.

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١).

فكان بعثُ نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة ـ كما ورد لدى البخاري ومسلم ـ يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رمضان من العام الأربعين لميلاده صلى الله عليه وآله وسلم(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الوَحي الرُّؤْيَا الصالحة، ثم حبب إليه الخلاء، فكان

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٢٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي، حديث رقم (٦٩٨٢)، ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص٥٠٥؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، حديث رقم (١٦٠)، النووي: المنهاج، ج٢، ص١٧١؛ وللمباركفوري رأي في تحديد تاريخ البعثة: وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره صلى الله عليه وآله وسلم إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يومـًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر، وعشرين يومـًا. الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء للطباعة والنشر ـ المنصورة، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧٤.

يأتي حراء[1] فيتحنث فيه ـ أي: يتعبد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأة الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾». حتى بلغ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[2]، قَالَتْ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ

---

(١) حراء: بالكسر والتخفيف والمد، جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال وهو معروف، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه قال جرير:

ألسنا أكرم الثقلين طراً وأعظمهم ببطن حراء نارا

ويقول البلادي: هو الجبل الشامخ ذو الرأس الأزلج المقابل لثبير الأثبرة من الشمال، بينهما وادي أُفاعية، فيه الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونزلت عليه أول سورة من القرآن الكريم، ويسمى اليوم (جبل النور)، ياقوت: الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، الطبعة التاسعة، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م، دار صادر ـ بيروت، ج٢، ص٢٣٣؛ البلادي: عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع ـ مكة، مؤسسة الريان ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ج٢، ص٤٢٧.

(٢) سورة العلق، آية رقم (١ ـ ٥).

بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيْجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُوْنِي». فَزَمَّلُوْهُ حَتَّى ذَهَبَ عنه الروع فقال: «يا خديجة ما لي!». وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ وَقَالَ: «قَدْ خَشِيْتُ [عَلَى نَفْسِي]». فَقَالَتْ لَهُ: كَلاَّ أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيْكَ الله؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الحَدِيْثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ [وتكسب المعدوم، وتقري الضيف]، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة إِلَى ابْنِ عَمِّهَا وَرقَةَ ابنِ نَوْفَلِ بنِ أسد بن عبد العزى، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الخط العربي، فكتب بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإِنْجِيْلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَمِيَ. فَقَالَتْ: اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال: يا بن أخي ما ترى؟ فأخبره، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا حين يخرجك قومك، قال: «أومخرجي هم»؟ قال: نعم، إنه لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي(١).

---

(١) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي -بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٣١؛ سبط ابن العجمي: العلامة الحافظ برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن محمد، نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس، القسم الثاني والجزء الثاني، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق: إيناس خالد العبد الكريم المنيس، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، جامعة أم القرى، ص٥٩٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، ج١، ص٦٨؛ صحيح =

فكـان مبتـدأ التنزيـل بـإقراء تحـول مـن الجاهليـة إلـى نـور العلـم والإيمان، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآلـه وسـلم أن ينـذر قومـه عـذاب الله على مـا هـم عليـه مـن عبـادة الأصـنام دون الله الـذي خلقهـم ورزقهـم، وأن يحدث بنعمة ربه عليه ـ وهي النبوة في قول ابـن إسـحاق ـ فكـان يـذكر ذلـك سرا لمن يطمئن إليه من أهلـه؛ فكـان أول أهـل القبلـة اسـتجاب لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوجه خديجة رضي الله عنها، ثـم كـان أول شـيء فـرض الله مـن شـرائع الإسـلام عليـه بعـد الإقـرار بالتوحيـد والـبراءة مـن الأوثان: الصلاة[1].

وقد بدأت الدعوة الإسلامية على يد رسـول الله صـلى الله عليه وآلـه وسـلم سـرية، ثـم كـان انتقـال الـدعوة الإسـلامية مـن المرحلـة السـرية إلـى المرحلـة الجهريـة، والصـدع بـالحق وإظهـاره؛ تعزيـزاً لعامـل البعثـة في قـوة التأثير وإحداث التحول، فبعد مبعثـه بـثلاث سـنين أُمـر النبـي المصـطفى أن يجهر بدعوته، حين نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2] فخرج رسـول الله

= البخاري: كتاب بدء الوحي، حديث رقم (٣).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٣٥؛ ابـن عبـد الـبر: الحـافظ يوسـف بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ)، الـدرر في اختصـار المغـازي والسـير، تحقيـق: شـوقي ضـيف، المجلـس الأعلـى للشـؤون الإسـلامية، لجنـة إحيـاء الـتراث الإسلامي، القاهرة، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، ص٣٠.

(٢) سورة الشعراء، آية رقم (٢١٤).

صلى الله عليه وآله وسلم فصعد على الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف! فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾(١) السورة(٢).

وما إن جهر بأمر الله وبادأ قومه بالإسلام، منفذاً لأمر ربه، فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد، حتى ذكر آلهتهم وعابها. فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه إلا من عصمه الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده شيء(٣).

فاشتد الأمر عند ذلك، وتنابذ القوم، واشتدت على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين

---

(١) سورة المسد، آية رقم (١).

(٢) ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٥١هـ): سيرة ابن إسحاق (المُسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، تحقيق: محمد حميدالله، ١٤٠١ ـ ١٩٨١، ص١٢٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٤٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٤١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٣٨؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٣٨.

يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجابوا إلى ذلك، واجتمعوا إليه إلا ما كان من أبي لهب[١].

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله عز وجل وعمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»، فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام[٢].

وروى البخاري[٣]: عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: أُنزِلَ على رسول اللّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن أرْبَعِينَ، فمَكَثَ بِمكَّةَ ثلَاثَ عشْرَةَ سنَةً، ثمَّ أمِرَ بِالْهِجْرةِ فهَاجَرَ إلى الْمدِينَةِ فمَكَثَ بها عشْرَ سنِينَ، ثمَّ توُفِّيَ صلى الله عليه وآله وسلم[٤]. وهكذا كان مبعثه ونبوته صلى الله عليه

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٤٥.

(٢) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٦؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٥٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم (٣٨٥١)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٢٤٣.

(٤) سيأتي تفصيل مرحلة الدعوة وانتشار الإسلام في (مظاهر التحولات التاريخية في مكة).

وآله وسلم التي استمرت ثلاثة وعشرين عامًا، منها (١٣) عامًا بمكة وتسمى العهد المكي، و(١٠) أعوام بالمدينة تسمى العهد المدني؛ هي عامل التحول الرئيس لمكة المكرمة بل وللعالم أجمع، وقد جاء تدريجيًا في مكة وما حولها من العالم حسب مراحل الدعوة وانتشار الإسلام.

* * *

المبحث الثالث

الهجرة النبوية

كانت الهجرة النبوية عامل تحوُّل في تاريخ الإنسانيَّة كلها، وتغيُّر في حركة التاريخ، لأنَّ حدَث الهِجرة لم يكن مُجرَّد انتِقال من مَكانٍ إلى مكانٍ، أو خُروج بالدَّعوة من مَوطِنٍ إلى آخَر، وإنما كان قَضاءً مُبرماً من الحكيم الخبير سُبحانه؛ قدَّره ليعلو الإسلام على كلِّ الأديان الباطلة، وليَجعَل كلمة الذين كفروا السُّفلى؛ قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فكانت بداية التحول؛ فذكَّرهم بمقالة يهود المدينة: أنَّ هُناك نبيًّا يُبعَث آخِرَ الزَّمان يتبعه يهود، ويقتُلون أهلَ يثرب قَتْلَ عادٍ وثمود، فقالوا: هذا والله هو النبي، وأجابوا دعوتَه صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: إنَّ بين قومنا شَرًّا، وعسى الله أنْ يجمَعَهُم بك، فإن اجتمَعُوا عليك فلا

(١) سورة التوبة: آية رقم (٤٠).

رجل أعز منك، ثم انصرَفُوا ـ وكانوا سبعةً ـ فلمَّا قدموا المدينةَ أخبَرُوهم حتى فشا خبرُه فيهم، فلمَّا كان العام القابل، جاء الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، لقُوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعقبة وبايَعوه [على][1] بَيْعَةَ النِّساء، وهي بَيْعَةُ العقَبَة الأولى، فلَمَّا عاد هؤلاء الأنصارُ أرسَلَ معهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مُصعَبَ بن عُمَير يُقرِئُهم القُرآن ويُفقِّهم في الدِّين، فأحسَنَ فيهم رضي الله عنه حتى أسلَمَ بدعوته أُسَيدُ بن حُضَير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، وهما سيِّدا الأوس، فأسلَمَ بإسلامهما الأوس جميعًا؛ فلَمَّا حدَث ذلك، اجتَمَع أهلُ المدينة وقرَّروا أنْ يأتوا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في الحج سِرًّا ويَعرِضوا عليه الهِجرة إليهم، فلمَّا أتوا مكَّة واعَدُوه سِرًّا وسط أيَّام التشريق ليلاً عند العقبة، وكانوا سَبعِين رجلاً وامرأتين، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمُّه العباس رضي الله عنه لم يزل على دين قومه، وإنما أراد أنْ يستَوثِق لابن أخيه؛ حيث بيَّن للأنصار أنَّه في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ، فإنْ كانوا مُسلِمِيه فمن الآن، فتكلَّم الأنصارُ بما أثلَجَ صدرَ نبيِّ الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أخَذ عليهم البيعة أنْ يمنَعُوه ممَّا يمنَعُون منه نِساءَهم وأبناءَهم، فبايَعُوه على ذلك وقالوا: لا نقيل ولا نستقيل[2].

---

(١) كما ورد لدى الطبري، ولا توجد [على] لدى ابن الأثير.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٥٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، =

ولما بايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة، في شهري المحرم وصفر من السنة الرابعة عشرة من النبوة أي: بعد بيعة العقبة الثانية بشهر واحد أو أقل، ولم يبق في مكة إلا ثلاثة فقط؛ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وعائلته، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان بقاء أبي بكر وعلي رضي الله عنهما بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وتوجهت للخزرج(١).

= ج٢، ص٦٦؛ الذهبي (ت٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء (سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، ج١، ص٦٨؛ ابن القيم: شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، زاد المعاد في هدي خير العباد، مركز الرسالة للدراسات وتحقيق التراث: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٣٤٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٨٥.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٦٥؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٨١؛ المقاطي: سلطان بن غويزي، السيرة النبوية من خلال تفسير الثعلبي (ت٤٢٧) =

أما اختيار المدينة مهاجراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو بوحي من الله تعالى، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي يثرب»[(١)]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الَحرَّتَان»[(٢)].

قال ابن حجر: «أسريت: في سير الليل»، وكان ذلك في يوم الاثنين أو الخميس، قال الحاكم: «تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين»[(٣)].

= من السنة الأولى حتى نهاية السنة الرابعة من الهجرة، ١٤٢٩ ـ ١٤٣٠هـ، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ص٥٢؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٢.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، رقم (٣٦٢٢) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٩٢١، وحديث رقم (٧٠٣٥)، كتاب التعبير، باب إذا رأى بقراً تُنحر، ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص٦٠٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رقم (٣٩٠٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٤٣، ويشرح ابن حجر: وقوله: (بين لابتين وهما الحرتان) هذا مدرج في الخبر وهو من تفسير الزهري، والحرة أرض حجارتها سود. ج٧، ص٣٤٨.

(٣) صحيح البخاري: حديث رقم (٣٩٠٢)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٣٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٤٤٠. وأورد المباركفوري: (غادر =

قال ابن حجر: «خروجه من مكة كان يوم الخميس، وخروجه من الغار[1] كان ليلة الاثنين[2]».

فكأنه اعتبر بداية رحلة الهجرة[3].

وكَمَنَ صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه في الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة، فيسمع أخبار قريش، فإذا جاء الظلام انطلق إلى الغار يخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار قريش، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه

= الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، الرحيق المختوم، ص١٥٥.

(١) المقصود غار ثور: في جبل ثور يقع جنوب مكة، «بلفظ الثور فحل البقر» ذو رؤوس مدببة، أمغر، يرتفع عن سطح البحر (٥٠٠) م، يقع فيه الغار من الشمال، ويقع الجبل بين سهل وادي المفجر شرقاً وبطحاء قريش غرباً. الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨١٩؛ البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأزمنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة -بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ج٢، ص٣٠٢؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٣١٦.

(٢) فتح الباري: ج٧، ص٣٥١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٩٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٧١.

حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، فيما كان عامر بن فهيرة[1] يرعى بغنمه عليهما، فيشربان من ألبانها، ويعود عند الغلس إلى رعيان قريش[2].

وصلت قريش باقتفاء الأثر إلى غار ثور حتى وقفوا على باب الغار،

---

(١) عامر بن فهيرة التيمي مولى أبي بكر الصديق أحد السابقين، وكان ممن يعذب في الله، له ذكر في الصحيح حديثه في الهجرة. وقال ابن إسحاق في المغازي عن عائشة: كان عامر بن فهيرة مولداً من الأزد وكان للطفيل بن عبد الله بن سخبرة، فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه، وكان حسن الإسلام وذكره ابن إسحاق وجميع من صنف في المغازي فيمن استشهد ببئر معونة. وقال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: من رجل منكم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض؟ فقالوا: عامر بن فهيرة. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٢١٢؛ ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٥٩٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٩٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٤٤٢. وقال أكرم ضياء العُمري: (وقد ورد حديث ضعيف جداً يفيد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما بات في غار ثور أمر الله شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين، فوقعتا بفم الغار. وأن ذلك سبب صدود المشركين عن الغار. ومثل هذه الأساطير تسربت إلى مصادر كثيرة في الحديث والسيرة). السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان ـ الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، ص٢٣٨.

عن أبي بكر رضي الله عنه «قال قلت: للنبي ﷺ وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»[١]، وبعد المكث في الغار ثلاثة أيام انطلق النبي وصاحبه صباحاً بصحبة الدليل الليثي وعامر ابن فهيرة وقد خلا الطريق لا يمر فيه أحد، ومر رسول الله وصاحبه بخيمة أم معبد[٢] بقُديد[٣]، وطلبا منها القِرى، فاعتذرت لهم

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، حديث رقم (٣٦٥٣)، ج٧، ص١٤، صحيح مسلم: حديث رقم (٢٣٨١)، ج١٥، ص١٣٤. وورد لدى أبي نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ) في دلائل النبوة، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق: عادل عبد الله اللحيدان، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣هـ، ص١٣٤.

(٢) أم معبد الخزاعية: عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعةَ، أُم معبد الخزاعيّة. ويقال: عاتكة بنت خالد بن خُليف. وهي التي نزل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خَيْمَتِها حين خرج من مكّة إلى المدينة مُهَاجِرًا، انظر ابن عبد البر: الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حققه: خليل مأمون شيما، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، ص٩٠٣.

(٣) قُديد: وادٍ فحل من أودية الحجاز التهامية، يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة «ذرة» فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قُديدا، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من ١٢٥ كيلاً، ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون وقرى كثيرة لحرب وبني سليم، ويصفه ياقوت بقوله: تصغير القد من قولهم: قددت =

لعدم وجود طعام عندها، وعندها شاة هزيلة لا تدر لبناً، فأخذ رسول الله الشاة فمسح ضرعها بيده، ودعا الله وحلب في إناء، حتى علت الرغوة، وشرب منه الجميع، وانطلق الركب من طريق الساحل، وشعرت قريش بخيبتها فجعلت لمن قتل رسول الله وصاحبه ديتين[1].

فلما جازا قديداً أدركهما سراقة بن مالك المدلجي[2] يقول: فركبت فرسي.. تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في

= الجلد، ومنه طرائق قدداً. ياقوت، ج٤، ص٣١٣؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٧، ص١٣٥٦.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٩٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٤٤٠.

(٢) سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة الكناني المدلجي، وقد ينسب إلى جده، يكنى أبا سفيان، كان ينزل قديداً. روى البخاري قصته في إدراكه النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة. وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى» قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه، فقال له: ارفع يديك وقل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي، مات في خلافة عثمان سنة أربع وعشرين، وقيل: بعد عثمان. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص١٤٨؛ ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٤١.

الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثَان[1] ساطع في السماء مثل الدخان. فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت وجئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال: «أخف عنا»، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم[2]..

ووصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قباء[3] لاثنتي عشرة ليلة

---

(١) عُثَان: فُسرت بالدخان، وفُسرت بالغبار، وهو الأصوب. لسان العرب، مادة (عثن)، ج٣٢، ص٢٨١٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه، حديث رقم (٣٩٠٦)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٥٥.

(٣) قبا: أصله اسم بئر، وعرفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف.

وسمى المسجد بمسجد قباء، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه إلى المدينة مرَّ على ديار بني عمرو بن عوف وبنى بها مسجداً، فسمي مسجد قباء. وقد وردت في فضائله أحاديث كثيرة، ونزل في أهله قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠١؛ ويقول =

خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحى، وكادت الشمس تعتدل، وقد كان الصحابة يخرجون كل يوم ينتظرون مقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إذا ارتفعت الشمس عادوا إلى بيوتهم، ولما أتى النبي قباء كانت الشمس قد اشتدت فدخلوا بيوتهم، وقدم رسول الله فبصر به يهودي فصرخ: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك، فلبث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله

= البلادي: قباء ـ اليوم ـ بلدة عامرة تطيف بذلك المسجد، كثيرة البساتين والسكان وتكاد تتصل بالمدينة عمرانيا، بل اتصلت المدينة بها، مسجدها جنوب المسجد النبوي بستة أكيال، وهي واقعة في حرة تسمى حرة قباء، وهي الجزء الشرقي من حرة الوبرة. معجم معالم الحجاز، ج٧، ص١٣٤٧.

عليه وآله وسلم بالمدينة، فبلغ عدد مستقبليه صلى الله عليه وآله وسلم حين جاء المدينة ـ كما جاء في بعض الروايات ـ خمسمائة من الأنصار، ودخل والرجال والنساء فوق البيوت، والغلمان في الطرقات يقولون: يا محمد يا رسول الله. ، يقول البراء: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله[1].

يقول أنس: فشهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه، ومشى موكب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طرقات المدينة، وتطلع زعماء الأنصار إلى استضافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكلما مر بأحدهم دعوه للنزول عندهم، فكان يقول لهم: «دعوا الناقة فإنها مأمورة»، فبركت على باب أبي أيوب، وكانت داره طابقين، يقول أبو أيوب: لما نزل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله ـ بأبي أنت وأمي ـ إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت، فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: «يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت»، قال: فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، وما لنا لحاف غيرها، ننشف بها

---

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المدينة، حديث رقم (٣٩٢٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٨٦.

الماء تخوفًا أن يقطر على رسول الله منه شيء يؤذيه[1].

وقد أثبتت الهجرة النبوية أن الدعوة والعقيدة يُتنازل لهما عن كل حبيب وعزيز وأليفٍ وأنيسٍ، وعن كل ما جُبلت عليه الطبائع السليمة على حبه وإيثاره، والتمسك به والتزامه، ولا يتنازل عنها لشيء[2].

فكانت الهجرة بدء تحوُّل فاصل في تاريخ الإسلام، فأصبح للمسلمين (وطن)، وقد كانوا من قبل كما وصفهم الله في كتابه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

* * *

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٩٨ ـ ١٠٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٧١ ـ ٥٧٤؛ وج٢، ص٧، ابن عبد البر: الدرر، ص٩٤.

(٢) الندوي: أبي الحسن علي الحسني: السيرة النبوية، دار القلم ـ دمشق، الطبعة السادسة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٦٥.

(٣) سورة الأنفال آية رقم (٢٦).

المبحث الرابع

فتح مكة[1]

هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، والفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً[2].

وكان ذلك الفتح في رمضان سنة ثمان للهجرة، ويذكر ابن الأثير: وخرج ـ أي رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعشر مضين من رمضان وفتح مكة لعشر بقين منه[3].

قال تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، أحاديث من رقم (٤٢٧٤ ـ ٤٢٩٧)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٦٦ ـ ٧٩٤.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ص٤٦٩.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٣.

(٤) سورة النصر.

* سبب الفتح:

كان من شروط صلح الحديبية[1] أن لكل قبيلة الحق في أن تتحالف مع من شاءت. فأعلنت خزاعة تحالفها مع محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلنت بنو بكر تحالفها مع قريش، وكان بين هاتين القبيلتين ثارات جاهلية، وآخرها تمكن خزاعة من قتل أشراف بني كنانة من بني الأسود بن رَزْن الدِّيلي عند أنصاب الحرم من جهة عرفة، وقد حجز الإسلام بينهم حتى كانت السنة الثامنة للهجرة حيث حانت فرصة لبني الأسود بن رَزن الديلي للأخذ بثأرهم، حين اجتمعت خزاعة على ماء يقال له: الوتير[2] بأسفل مكة فهجدوهم ليلًا، وكان الأمر مباغتًا لخزاعة فلم تستعد لقتال، ولذا فروا من المكان باتجاه الحرم، وحينما دخلوا حدود الحرم قال أناس من بني الديل لزعيمهم نوفل بن معاوية الديلي: إلاهك، إلاهك، فقال كلمة عظيمة: «لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم»، فقاتلوا في الحرم وانتهكوا حرمته.

---

(١) سيأتي الحديث عن صلح الحديبية كمظهر تحول.

(٢) الوَتير، والوَتَران: شعبان جنوب غربي مكة، بطرف حدود الحرم، تصب في العُكَيشية من الغرب، تأتي من سُود حمُيّ، ثم يذهب ماؤها إلى عُرَنة، وهي في ديار خُزَاعة أيضًا، وتبعد عن مكة ١٦ كيلاً. وكانت قديمًا من ديار خُزَاعة. البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، ص٣٢٠.

وكان المفترض أن قريشا تمنع مثل هذا الاعتداء وتستنكره، ولكنها أعانت على خزاعة بالسلاح، وقيل بل شارك بعضهم كسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وغيرهما[1].

وما حدث بعد ذلك هو أن خزاعة أسرعت إلى المدينة المنورة تستغيث بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عمرو بن سالم[2] أول من جاء إليه من خزاعة، في أربعين من قومه، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويستَنْجِزُه الوفاء بِمُوجبات العقد والعهد، وقد أنشد عنده بعضًا من أبيات الشعر، يعبر فيها عن المأساة التي تعرضت لها قبيلته،

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٥؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٢٢٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦١؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٢٤.

(٢) عمرو بن سالم بن كلثوم الخزاعي: وكان شاعرًا، ولما نزل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، الحُديبية أهدى له عمرو بن سالم غنمًا وجزورًا فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله في عمرو!» وأقبل عمرو وبُديل بن وَرْقاء إلى رسول الله ﷺ، يومئذٍ فأخبراه عن قريش، وكان عَمرو يحمل أحد ألوية بني كعب الثلاثة التي عقدها رسول الله ﷺ، لهم يوم فتح مكّة، روى حديثه المكيون حيث خرج مستنصراً من مكة إلى المدينة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص١٩٨؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٥٦٧.

فكان مما قاله:

يَـــا رَبِّ إِنِّـــي نَاشِـــدٌ مُحَمَّـــدًا
حِلْـــفَ[1] أَبِينَـــا وَأَبِيـــهِ الأَتْلَـــدَا

قَـــدْ كُنْـــتُمُ وُلْـــدًا وَكُنَّـــا وَالِـــدًا
ثُمَّـــتَ أَسْـــلَمْنَا فَلَـــمْ نَنْـــزِعْ يَـــدَا

فَانْصُـــرْ هَـــدَاكَ اللهُ نَصْـــرًا أَعْتَـــدَا
وَادْعُ عِبَـــادَ اللهِ يَـــأْتُوا مَـــدَدَا

---

(١) المقصود حلف الأحابيش وهو أول أحلاف مكة في الجاهلية قبل الإسلام، وانعقد في زمن عبد مناف بن قصي الجد الثالث للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وعقدت حلف الأحابيش عدد من قبائل مكة وما حولها والتي تحالفت ضد بني بكر بن عبد مناة من قبيلة كنانة، فخرجوا حتى اجتمعوا بذنب حبشي وهو جبل بأسفل مكة.. وقد استمر هذا الحلف إلى ما بعد ظهور الإسلام. ابن حبيب: (ت ٢٤٥هـ) المنمق في أخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ص٢٢٩؛ وانظر: الأحابيش وموقفهم من الصراع بين قريش والمسلمين، عبد الله بن حسين الشريف، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، شوال ١٤٢٢هـ ـ يناير ٢٠٠٢م، ص٢ ـ ١٥.

فِـــــيهِمْ رَسُــــــولُ اللهِ قَـــــدْ تَجَــــرَّدَا
إِنْ سِــــيمَ خَسْـــــفًا وَجْهُـــــهُ تَرَبَّــــدَا
فِـــي فَيْلَـــقٍ كَـــالْبَحْرِ يَجْـــرِي مُزْبِـــدًا
إِنَّ قُرَيْشًـــــا أَخْلَفُـــــوكَ الْمَوْعِـــــدَا
وَنَقَضُــــــوا مِيثَاقَــــــك الْمُوَكَّـــــدَا
وَجَعَلُـــوا لِــــي فِــــي كَـــدَاءٍ رُصَّــــدَا
وَزَعَمُــــوا أَنْ لَسْــــتُ أَدْعُـــو أَحَــــدًا
وَهُــــــمْ أَذَلُّ وَأَقَـــــــلُّ عَــــــدَدَا
هُـــــمْ بَيَّتُونَـــــا بِــــالْوَتِيرِ هُجَّـــــدًا
وَقَتَلُونَـــــا رُكَّعًـــــا وَسُــــــجَّدَا(١)

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «نصرت يا عمرو بن سالم»، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالجهاز وكتمهم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٣؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٢٢٥؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٢٤.

مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم[1].

* التهيئة للفتح الأعظم:

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أي بنية أمركن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتجهيزه؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، فأمرهم بالجد والتجهيز، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فتجهز الناس[2].

غادر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة متجها إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا رُهْم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٦، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٣، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦١؛ وانظر: شريفي: هند بنت مصطفى محمد الطيب، فتح مكة دراسة دعوية، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الدعوة، ١٤٢٠هـ، ص١٠٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٨ ـ ٣٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩؛ شريفي: فتح مكة دراسة دعوية، ص١٠٧.

الغفاري[1]، ونزل بمر الظهران ـ وادي فاطمة[2].

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجيوش مر الظهران رقت نفس العباس لقريش وأسف على ذهابها وخاف أن تغشاهم الجيوش قبل أن يستأمنوا. فركب بغلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونهض، فلما أتى الأراك وهو يطمع أن يلقى حطاباً أو صاحب لبن يأتي مكة فينذرهم. فبينما هو يمشي إذ سمع صوت أبي سفيان صخر بن حرب وبديل بن ورقاء وهما يتساءلان وقد رأيا نيران عسكر النبي عليه السلام. وبديل يريد أن يستر ذلك فيقول: إنما هي نيران خزاعة، ويقول له أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون لها هذه النيران. فلما سمع العباس كلامه ناداه: يا أبا حنظلة فميز أبا سفيان كلامه، فناداه: يا أبا الفضل، فقال: نعم، فقال له: فداك أبي وأمي، فقال له العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله

---

(١) أبو رُهْم الغِفاري: واسمه كُلْثوم بن الحُصين بن خَلَف بن عُبيد بن معشر بن زيد بن أُحَيمس بن غفار بن مُليك بن ضَمْرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. أسلم بعد قدوم رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، المدينة وشهد معه أُحُدًا ورُميَ يومئذٍ بسهمٍ فوقع في نحره فجاء إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، فبسق عليه فبرأ، فكان أبو رُهْم يسمّى المنحور. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٤، ص٢٢٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٤.

صلى الله عليه وآله وسلم في الناس، واصباح قريش، فقال أبو سفيان: فما الحيلة؟ فقال له العباس: هذا والله لئن ظفر بك ليقتلنك، فارتدف خلفي وانهض معي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأردفه العباس ولقي به العسكر، فلما رأى الناس العباس على بغلة رسول الله ﷺ أمسكوا. ومر على نار عمر ونظر عمر إلى أبي سفيان فميزه، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد إلى رسول الله ﷺ، وسابقه العباس فسبقه العباس على البغلة وكان عمر بطيئاً في الجري. فدخل العباس ودخل عمر على أثره. فقال: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فأذن لي أضرب عنقه. فقال له العباس: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنه من بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً، فو الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحاً. ففعل العباس ذلك، فلما أصبح أتى به النبي عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم يأن لك بأن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغناني، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت

وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها شيئًا حتى الآن. فقال له العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فيقول ـ مثلاً ـ: سليم، فيقول: ما لي ولسليم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال ما لي ولبني فلان؟ حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في المهاجرين والأنصار(١).

* اليوم يعز الله فيه قريشًا:

وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح بأنه يوم مرحمة، وأنه عز لقريش لا ذلالها؛ فهو ترسيخ لمعنى الرحمة، والعفو عند المقدرة، وتحول في بناء النفسية العربية من الجلافة والغلظة، إلى النصرة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٢.

والتراحم، فأورد ابن حجر: أن سعد بن عبادة لما قال: اليوم تُستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً فحاذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان لما مر به فناداه: يا رسول الله أمرت بقتل قومك، وذكر له قول سعد بن عبادة ثم قال له: أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأوصلهم، فقال يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله فيه قريشاً فأرسل إلى سعد فأخذ اللواء من يده فجعله في يد ابنه قيس(١).

وقد كان فتح مكة وإسلام قريش سبباً في انقياد العرب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودخولهم في دين الله أفواجاً. قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، وقبلت الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل: ﴿أَفْوَاجًا﴾، يضربون إليه من كل وجه(٢)، وأعلى النبي المصطفى صلى الله عليه وآله

---

(١) فتح الباري: ج٧، ص٧٧٧، في شرحه لحديث البخاري رقم (٤٢٨٠).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٥٦٠.

وسلم من مكانة قريش، فعن عَبدِ اللهِ بن مُطِيعٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، يَقُولُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «لا يقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»[(١)].

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشاً، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت[(٢)] الدسم الأحمش الساقين[(٣)] قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقتل قرشي صبراً بعد الفتح، حديث رقم (١٧٨٢)؛ أي: أن قريشاً يسلمون كلهم، ولا يرتد أحد منهم كما ارتد غيرهم بعده صلى الله عليه وآله وسلم ممن حورب وقتل صبراً، وليس المراد أنهم لا يقتلون ظلماً صبراً، فقد جرى على قريش بعد ذلك ما هو معلوم. وانظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٤٠.

(٢) الحميت: والحَمِيتُ من كل شيء المَتِينُ حتى إنهم ليقولون تَمْر حَمِيتٌ وعَسل حَمِيتٌ، والحَمِيتُ وعاء السَّمْن كالعُكَّةِ وقيل وِعاءُ السَّمْنِ الذي مُتِّنَ بالرُّبِّ. ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٩٨٦، مادة (حمت).

(٣) وفي حديث هند: قالت يوم الفتح لأبي سفيان اقتلوا هذا الدسم الأحمش؛ أي الأسود الدنيء. والدسمة: الرديء من الرجال، وقيل: الدنيء من الرجال، وقيل: الدسمة الرديء الرذل، حمش: حمش الشيء. جمعه والحمش والحموشة والحماشة: الدقة. وهو حمش الساقين والذراعين، بالتسكين، وحمشهما =

تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل مكة من أعلاها وضربت له هنالك قبة، وركزت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحجون عند مسجد الفتح[(١)].

* تواضع قائد الأمة، وصفة الفتح:

تعظيمًا لحرمة مكة، اتصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند دخول مكة فاتحًا منصوراً بالتواضع والخضوع لله الذي منحه النصر؛ فوقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر، وقد وضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن أسفل لحيته لتمس واسطة الرحل[(٢)]؛ «وعن معاوية بن قُرَّةَ قال: سمعت عبد الله بن

= وأحمشهما: دقيقهما. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٦، ص١٣٧٥، مادة (دسم)، ج١٢، ص٩٩٥، مادة (حمش).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٣٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩؛ ابن حجر: فتح الباري: ج٧، ص٧٧٧، في شرحه لحديث البخاري رقم (٤٢٨٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٧.

مُغَفَّل يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرجِّعُ، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع»[١].

فمن هذا التواضع النبوي المحمدي الكريم عقب انتصاره ودخوله فاتحًا؛ تقتضي المقارنة في هذه الدراسة الربط بين موقفين تاريخيين متناقضين للغزو الإسرائيلي للأرض المقدسة بحسب مصادره اليهودية والإسلامية، فالمصادر اليهودية (أسفار العهد القديم) تُظهر الغزو الإسرائيلي في غاية الوحشية والبشاعة، خلاف ما تُظهره المصادر الإسلامية التي تؤكد على نبوة «يوشع بن نون» عليه السلام، وتتحدث عنه بما يليق بالنبوة[٢]؛ فبحسب المصادر اليهودية: دخل بنو إسرائيل الأرض

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، حديث رقم (٤٢٨١)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٨٣، ويبين ابن حجر: قوله: (يرجع) بتشديد الجيم، والترجيع ترديد القارئ الحرف في الحلق.

(٢) قال ابن كثير: «وقد اتفق أهل الكتاب على نبوته عليه السلام. وقد ذكر المؤرخون أن الله تعالى فتح على يديه بيت المقدس، وقد خصه الله بكرامة لم ينلها غيره، وهي حبس الشمس له، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس». وقال ابن كثير في البداية والنهاية: ولما استقرت يد بني إسرائيل على القدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة =

المقدسة بعد وفاة النبي «موسى عليه السلام» عندما قادهم: «يوشع بن نون» الذى تسميه التوراة «يشوع»، عام ١٢٢٠ ق. م، وقد استطاع «يشوع» بمن معه من بني إسرائيل أن يوقع هزائم ساحقة بقبائل الكنعانيين من

= حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكان مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة. والاسم الصحيح الذي ثبت لفظه في السنة النبوية هو يوشع بن نون، وهو اسم الفتى الذي رافق موسى عليه السلام في رحلته إلى الخضر، والذي فصَّل القرآن الكريم قصتهما في سورة الكهف، فقد ثبت في «صحيح البخاري» (٣٤٠١)، وفي «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤوسَهُمَا). وكان ذلك الفتى أحد أنبياء بني إسرائيل فيما بعد، وأشهر قادتهم ورموزهم التاريخية؛ وهو الذي تولى مقام النبوة بعد موت موسى عليه السلام، وقد جاء خبره في السنة النبوية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤/ ٦٥) وقال المحققون في طبعة مؤسسة الرسالة: إسناده صحيح على شرط البخاري، وكذا قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (ج٢، ص١١٨ ـ ١٢٢)، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (ج٦، ص٦٤٤ ـ ٦٥٠)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٢٦). ويقول ابن كثير: «قام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده: فتاه يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس» انتهى من «البداية والنهاية» (ج٢، ص١٢٠).

الفلسطينيين واليبوسيين والمؤابيين بسبب انقسام تلك القبائل على نفسها، وبسبب استماتة بني إسرائيل في القتال واستخدامهم لأبشع الوسائل وأشرس الأساليب بصورة من الوحشية لم تعرف البشرية لها مثيلاً إلا فيما نراه اليوم من أفعالهم..!! وفي النص التوراتي التالي: الذي يخاطب به الرب شعب إسرائيل: «وحرموا ـ أي: أهلكوا ـ كل من في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة الرب». وقد جاءت عملية الغزو تطبيقاً عملياً لهذه الأوامر المقدسة في زعمهم، وفيما يلي: النص الذي ورد في التوراة: «وأخذ يشوع «مقيدة» في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم «أهلك» ملكها وكل نفس بها، لم يبق شاردا، وفعل بملك «مقيدة» كما فعل بملك «أريحا» ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة، وحارب لبنة فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها، لم يبق شارداً، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى «لخيش» ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف، وكل نفس بها حسب كل ما فعله بلبنة، ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف، وحرم كل نفس بها فى ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش ثم صعدوا إلى

حبرون «الخليل»، وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها لم يبق شارداً حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها وضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شارداً، بل قتل كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل، فضربهم يشوع من قادش يرنيع إلى غزة وجميع أرض جوش إلى جبعون»[(١)].

ولقد بلغت روح الانتقام والتشفي عند يشوع ـ كما تحكي التوراة ـ حداً أنه بعد انهزام ملوك الأموريين الخمسة، ووقعوا في أسره، قال (لقواده، رجال الحرب الذين ساروا معه: تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك.. وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم، وعلقهم على خمسة خُشب، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء)[(٢)].

ويذكر عبد الوهاب المسيري: في «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» حول يوشع بن نون، أو يشوع بن نون: (وُلد في مصر، وأرسله

---

(١) أسفار الكتاب المقدس (عند اليهود والنصارى): سفر يشوع: الإصحاح السادس، والإصحاح العاشر، النسخة الكاملة للعهدين (الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس: الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ـ الإسكندرية ـ مصر)؛ خان: ظفر الإسلام: تاريخ فلسطين القديم (١٢٢٠ق. م ـ ١٣٥٩م)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص٣٣ ـ ٣٤.

(٢) يشوع ـ ١٠؛ سعفان: كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام ـ القاهرة، ص١٤.

موسى مع كالب ليتجسسا. ويُصوِّره العهد القديم باعتباره نبيًا وقائداً عسكريًا قاد القبائل العبرانية إلى أرض كنعان، واقتحمها حسب الرواية التوراتية بعد معارك ضارية.. وقد أجرى العالم تامارين استفتاء في عدد من مدارس تل أبيب ومدن ومستعمرات إسرائيلية حول الأساليب الهمجية التي انتهجها يشوع، وقد جاء في نتائج الاستفتاء أن ٦٦ ـ ٩٥٪ يؤيدون بصورة قطعية إبادة العرب تمامًا من المناطق المحتلة، وثم إشارات عديدة في أدبيات جوش إيمونيم وجماعة كاخ إلى أن أسلوب يشوع الإبادي هو الأسلوب الأمثل»[١].

قال ابن كثير عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢]:

يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، دار الشروق، ج١، ص٢٠٤.

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٥٨).

القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس؛ والغازي الثاني نبينا الحبيب «الرحمة المهداة» فيقارن ابن كثير بين موقف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لدى دخوله مكة، واليهود لدى دخولهم فلسطين عام ١٢٢٠ ق. م، بقوله: وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1]، فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجله فيها، وأقره على ذلك عمر [بن الخطاب] رضي الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً؛ ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح ـ فتح مكة ـ داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى إن عثنونه ليمس مورك رحله، يشكر الله على ذلك. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[2]؛ فيقول ابن كثير:

---

(١) سورة النصر.

(٢) سورة البقرة: آية رقم (٥٩).

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزأوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1].

ومن المقارنة بين الموقفين الإسلامي واليهودي: تستمر المسيرة النبوية في فتح مكة

ونهض رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرون والأنصار بينَ يديه، وخلفَه وحولَه، حتى دخل المسجِدَ، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طافَ بالبيتِ، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطْعنُها بالقوسِ ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[3]؛ والأصنامُ تتسَاقَطُ على وجوهها، كان طوافُه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذٍ،

---

(١) تفسير ابن كثير، ج١، ص٩٩ ـ ١٠٠؛ والبداية والنهاية، ج٤، ص٥٤٤.

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (٨١).

(٣) سورة سبأ، آية رقم (٤٩).

فاقتصر على الطَّوافِ، فلما أكملهُ، دعا عثمان بنَ طلحة، فأخذ منه مفتاحَ الكعبة، فأمر بها فَفُتحت، فدخلها فرأى فيها الصوَرَ، ورأى فيها صورةَ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمانِ بالأزْلامِ، فقال: «قَاتَلَهُم اللهُ، واللهِ إن اسْتَقْسما بِها قطُّ»، ورأى في الكعبة حمامة من عِيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصُّوَرِ فمُحيت. ثم أغلق عليه البابَ، وعلى أُسامة وبلال، فاستقبل الجِدَارَ الذي يُقابل البابَ، حتى إذا كانَ بينَه وبينَه قدرُ ثلاثةِ أذْرُعٍ، وقف وصلَّى هناك، ثم دار في البيت، وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله، ثم فتح البابَ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنَعُ، فأخذَ بعضَادتى الباب، وهم تحتَه، فقال: «لا إلَهَ إلَّا الله وَحْدَهُ لا شَريكَ له، صَدَقَ وَعْدَهُ، ونَصَرَ عَبْدَهُ، وهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ، ألا كُلُّ مَأْثُرَةٍ أوْ مَال أوْ دَم، فَهُو تَحْتَ قَدَمَى هاتين إلَّا سِدَانة البيْت وسقَايَةَ الحَاجِّ، ألا وَقَتْلُ الخطَأ شِبْهُ العَمْدِ السَّوطُ والعَصا، ففيهِ الدِّيةُ مُغَلَّظَةً مائة مِنَ الإبلِ، أرْبَعُونَ مِنْهَا في بُطُونِها أوْلادُها، يَا مَعْشَرَ قُرَيْش؛ إنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُم نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ وتَعظُّمَها بالآباء، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وآدَمُ مِنْ تُرابٍ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. ثم قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْش؛ مَا تَرَوْنَ أني فَاعِلٌ بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابنُ أخ كريم، قال: «فإني أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ

(١) سورة الحجرات، آية رقم (١٣).

يُوسُفُ لإخْوَتِهِ: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم اليَوْمَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1]. وأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة عشر يومًا، نظّم خلالها شؤون مكة، وفقّه أهلها في الدين، وأرسل بعض السرايا للدعوة إلى الإسلام وتحطيم الأصنام[2].

فكان فتح مكة بذلك حقيقًا أن يسمى التحول التاريخي الرحيم، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

* * *

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٦١؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٨؛ الأصفهاني: أبو نعيم، دلائل النبوة، دراسة وتحقيق: عبد الله بن رفدان الشهري، رسالة دكتوراه، ١٤٣٠هـ، جامعة أم القرى، ص٣٦٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية رقم (١٠٧).

المبحث الخامس

البراءة من المشركين

كانت براءة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين من عوامل التحول في حياة من تبقى من المشركين في مكة المكرمة وجزيرة العرب، وإعلانٌ رباني بطهارة الأرض الحرام (بيت الله وكعبته المشرفة والمشاعر المقدسة) من دخول المشركين إليها، وإيذاناً بزوال الشرك من الجزيرة العربية. قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسيره: وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (١ ـ ٤).

رضي الله عنه أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكونه عصبة له(١).

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين. ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد، الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يُصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص، إلى آجال مسماة، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، وفي قول من قال منهم، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، منهم من سمى لنا، ومنهم من لم يسم لنا..(٢).

العهد العام من أهل الشرك ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ وَٱعْلَمُوٓاْ

(١) تفسير ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار الفكر، ج٢، ص٣٣٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٣٩.

أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بعد هذه الحجة ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أي: العهد الخاص إلى الأجل المسمى ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ: يعني الأربعة التي ضرب لهم أجلاً فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ: أي من هؤلاء الذين أمرتك بقتلهم استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون. ثم قال: كيف يكون للمشركين، الذين كانوا هم وأنتم على العهد

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (٢ ـ ٦).

العام أن لا يخيفوكم ولا يخيفوهم في الحرمة، ولا في الشهر الحرام ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(١)، وهي قبائل من بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم يوم الحديبية، إلى المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقضها إلا هذا الحي من قريش، وهي الديل من بني بكر بن وائل، الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم. فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض من بني بكر إلى مدته ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢)، ثم قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٣)، أي: المشركون الذين لا عهد لهم إلى مدة من أهل الشرك العام لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً. وقال ابن إسحاق: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا

(١) سورة التوبة، آية رقم (٧).

(٢) سورة التوبة، آية رقم (٧).

(٣) سورة التوبة، آية رقم (٨).

اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته»، فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا. فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج، التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. ثم قدما على رسول الله ﷺ[1].

عن أبي هريرة، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليها قبل حجة الوداع، يوم النحر في رهط يؤذن في الناس: «لا يحج بعد العام مشرك،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٣٩ ـ ١٤١.

ولا يطوف بالبيت عريان»[1].

قال ابن حجر: حج أبي بكر بالناس في سنة تسع كذا جزم به. وقال ابن القيم في الهدي: ويستفاد أيضاً من قول أبي هريرة في حديث الباب: قبل حجة الوداع أنها كانت سنة تسع لأن حجة الوداع كانت سنة عشر اتفاقاً، وذكر ابن إسحاق أن خروج أبي بكر كان في ذي القعدة وذكر الواقدي أنه خرج في تلك الحجة مع أبي بكر ثلاثمائة من الصحابة وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرين بدنة، ثم ذكر المصنف في الباب حديثين: أحدهما حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعثه في رهط يؤذن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك. وقد ذكر ابن إسحاق بإسناد مرسل قال: نزلت براءة وقد بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً على الحج، فقيل: لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا علياً فقال: «اخرج بصدر براءة وأذن في الناس يوم النحر بمنى إذا اجتمعوا» فذكر الحديث، وروى أحمد من طريق محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب فكنت أنادي حتى صحل صوتي الحديث، ومن طريق زيد بن يشيع قال: سألت عليا بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال: بأربع: لا يدخل الجنة إلا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، حديث رقم (٤٣٦٣)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٨٨٢.

نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فعهده إلى مدته. وأخرجه الترمذي من هذا الوجه وصححه[1].

* * *

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٨٨٣.

المبحث السادس

حجة الوداع: (إعلان كمال الدين)

وحجة الوداع عامل التحول الختامي في تاريخ أهل مكة المكرمة، بل الأمة أجمع، فبها اكتملت المناسك، وتم دين الله الذي أنزله على عبده ورسوله نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويقال لها: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها، ولم يحج بعدها. وسميت: حجة البلاغ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه الصلاة والسلام، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وبما أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب، وكانت محطة لازمةً لمن يحمل التجارة من الشمال إلى الجنوب، وبرع أهل مكة في التجارة ووجدوا في مكاسبها مأمنهم من الخوف والجوع، وحالفوا القبائل. فكانت العرب جميعهم أو جلهم ـ من المشركين ـ يأتون لتعظيم الكعبة وتلبية دعوة النبي إبراهيم عليه السلام،

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص١٢٧، سورة المائدة، آية رقم (٣).

وأداء مناسك الحج من كل عام؛ قبل البعثة وبعدها حتى بعد العام التاسع من الهجرة النبوية المباركة؛ فتوقف المشركون عن الحج، فلا يأتيها إلا مسلم، كما سبق بيانه في المطلب السابق؛ من ذلك يتضح لنا أن شعيرة الحج إلى مكة المكرمة التي يؤديها العرب لها أثر في تحقيق قيادة مكة المكرمة قبل الإسلام، ونتج عن ذلك تفاعل اقتصادي وديني ولغوي لأهل مكة وحجاج العرب تأثراً وتأثيراً، (كأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز)؛ فهيمنة لغة قريش على سائر لغات العرب، فتميز هذه اللغة، وزاد من تميزها أن نزل بها القرآن الكريم بها، وفي هذا دلالة واضحة على التحول الكبير لمكانة قريش ولغتها بين قبائل العرب، فضلاً عن ريادتها الدينية، حيث كان العرب يأتون بأصنامهم فيضعونها عند الكعبة تأكيداً لشرفها[(١)].

ومن مبعثه استثمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم مناسك الحج للدعوة إلى الدين الجديد، فكان يلتقي بالحجاج فرادى وجماعات ويعرض عليهم دعوته، حتى أثمرت جهوده بعقد بيعتي العقبة الأولى والثانية مع وفود من الأوس والخزرج، فكانت البيعتان نواة الدولة

---

(١) الشريف: أحمد، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، د ت، ص١٠٠؛ الطاهر: عبد الباري، الحج في الشرائع الإلهية وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخياً، بحث مقدم إلى ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ، ص٥١ ـ ٥٣.

الإسلامية الأولى في المدينة المنورة، التي انتقل إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقام بها؛ واتسعت دولته منها، وفي حجة العام التاسع للهجرة أُعلنت البراءة من الحجاج المشركين.

فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة من سنة عشر تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له[١].

وعن ابن عمر كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوى[٢] حتى يصبح ويغتسل ثم يدخل مكة نهاراً، ودخل مكة من الثنية العليا التي في البطحاء، وخرج من الثنية السفلى. وقال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل مكة فرأى البيت رفع يديه وكبر وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبرا». ودخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من باب بني شيبة، وخرج من باب بني مخزوم إلى الصفا، أول شيء بدأ به حين قدم النبي صلى الله عليه آله وسلم أنه توضأ ثم طاف، ثم لم تكن عمرة، وطاف النبي صلى الله عليه آله وسلم بالبيت على بعير، فلما أتى الركن أشار إليه بشيء كان عنده وكبر،

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٢٠٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص١١٧.

(٢) ذو طوى: الوادي الذي يمر بين الحجون وريع الكحل ماراً بجرول حتى يجتمع بوادي إبراهيم في المسفلة. البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، ص١٦٨.

ويستلم الحجر ثم يمضى على يمينه، فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم يأتي المقام، وقال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1]؛ فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت، ثم أتى الحجر بعد الركعتين فاستلمه ثم خرج إلى الصفا، وأقام عليه السلام بالأبطح يوم الأحد ويوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وقد حل الناس إلا من ساق الهدي، ولم يعد عليه السلام إلى الكعبة بعد ما طاف بها، فلما أصبح عليه السلام يوم الخميس صلى بالأبطح الصبح من يومئذ وهو يوم التروية ويقال له يوم منى، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه آله وسلم صلى خمس صلوات بمنى، وصلى الغداة يوم عرفة بها[2].

فسار رسول الله صلى الله عليه آله وسلم، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله صلى الله عليه آله وسلم حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس، وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٢٥).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٢١٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص١٨٩ ـ ٢٤٥.

الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد» ثلاث مرات، ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ

حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس[1]، حتى أتى بطن محسر[2] فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين

---

(١) الفضل بن العبّاس: ابن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، ويكنى أبا محمّد، وكان أسنّ ولد العبّاس، وغزا مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، مكّة وحُنينًا، وثبت يومئذٍ مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، حين ولّى النّاس وشهد معه حجّة الوداع وأردفه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، وكان فيمن غسّل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، وولي دفنه، ثمّ خرج بعد ذلك إلى الشأم فمات بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطّاب. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٣.

(٢) وادي مُحَسِّر: بضم أوله: وفتح ثانيه بعده سين مهملة مشددة مكسورة، ثم راء مهملة. قال ياقوت: هو موضع ما بين مكة وعرفة، وقيل: بين منى وعرفة، وقيل: بين منى والمزدلفة، وليس من منى ولا المزدلفة، وهو واد برأسه، وقال البلادي: هو وادٍ صغير يأتي من الجهة الشرقية لثبير الأعظم من طرف (ثقبة) ويذهب إلى وادي عرنة، فإذا مر بين منى ومزدلفة كان الحد بينهما. معجم البلدان: ج٥، ص٦٢؛ معلم مكة التاريخية والأثرية، ص٢٤٨.

بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوا فشرب منه».

وخطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم النحر ـ عاشر ذي الحجة ـ أيضاً حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شَهْبَاء، وعلي يعبر عنه[(١)]، والناس بين قائم وقاعد، وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم النحر، قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض،

---

(١) وعلي بن أبي طالب «يعبر» بضم أوله وبالتشديد، أي: يبلغ «عنه». قال الجوهري: عبرت عن فلان إذا تكلمت عنه واللسان يعبر عما في الضمير، أو المراد يفسر عبارته ويشرحها مأخوذ من عبارة الرؤيا وهو تفسيرها، أو المراد يفهمها للناس من عبرت الكتاب أعبره، والأول هو الظاهر المتعين وفيه منقبة لعلي. انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (ت ١١٢٢هـ)، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، ج١١، ص٤٧٥.

السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» وقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى؟ قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: (أليس يوم النحر؟) قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض». «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعي من سامع». وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: (ألا لا يجني جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به)[1].

---

(١) انظر: الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٦؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٢٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٥٦؛ والأحاديث لدى البخاري رقم (١٧٣٩)؛ والترمذي رقم (٢١٥٩)؛ وابن ماجه رقم (٣٠٥٥)؛ وأبي داود رقم (٣٣٣٤).

* سمات التحول في خطبة الوداع:

ـ سمات التحول السياسي:

ـ التأكيد على الحفاظ على الكليَّات الخمس التي جاء الإسلام بحمايتها وصيانتها: حيث أكد صلى الله عليه وآله وسلم على ثلاث كليات: حفظ النفس، والمال، والعرض، فقد حرَّم التعدي على النفوس المعصومة، والأموال المحترمة، والأعراض المصونة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(١) فكل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه.

ـ القضاء على الموروثات والعادات الجاهلية التي تتعارض مع مبادئ الإسلام، وقيمه النبيلة، وأخلاقه السمحة حيث يقول صلى الله عليه آله وسلم: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث»(٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٧٣٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم ١٢١٨، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩.

ـ سمات التحول الاجتماعي:

ـ التأكيد على مبدأ الأخوة والوحدة الإسلامية: والتي كانت من أساسيات دعوته وأولياته حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم»[(١)].

ـ التأكيد على مبدأ المساواة بين الناس في أصل الخليقة حيث يقول النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر؛ إلا بالتقوى، أبلغت؟»[(٢)].

ـ الوصية بالنساء، والتأكيد على ما للرجل من حق على المرأة وما لها عليه من حق حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٦.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (٢٣٥٤٨)، ج٥، ص٣٨١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ج٣، ص٢٦٦.

مبرح، ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف»[(١)]، وهو تحول تاريخي اجتماعي في حياة الأمة وحياة نسائها؛ فأعطى للمرأة حقوقها، ووصى بها، وأكد على ذلك؛ فأعطاها حقَّها في الميراث وكانت من قبل لا تأخذ شيئًا، وجعل لها كرامة، وجعل لها رأيًا ولم يكن لها من قبل رأي بل ولا اعتبار، ثم صانها الإسلام في بيتها.

ـ وأوصى بأهل البيت: عن زيد بن أرقم، قال قام رسول الله صلى الله عليه آله وسلم يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خُمّـًا[(٢)] بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩.

(٢) خُمٌّ: اسم موضع غدير خمّ، وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، عنده خطب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول البلادي: ويعرف غدير خم اليوم باسم «الغُرَبَة»، وهو غدير عليه نخل قليل لأناس من البلادية من حرب، وهو في ديارهم ويقع شرق الجحفة على (٨) أكيال وواديهما واحد، وهو وادي الخرّار. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨٩؛ معجم معالم الحجاز، ج٣، ص٥٧٣.

في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة، قال: نعم[1].

ـ سمات التحول الديني:

ـ التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»[2]، وفي رواية: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيِّناً: كتاب الله، وسنة نبيه»[3]، وهذا الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والتمسك بهما وفق فهم السلف هو سبيل العزة والنصر والفوز في الدنيا والآخرة.

ـ سمات التحول الاقتصادي:

ـ حرمة التعامل بالربا: حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «وربا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٠٨)، النووي: المنهاج، ج١٥، ص١٥٩.

(٢) جملة الأحاديث وردت: في صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩ وما بعده.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٤.

الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»(١)، فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢).

- بيان حق الميراث والنسب، والتحذير من التبني: وفي هذه المسألة يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا يجوز لوارث وصية، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»(٣).

فبعدما بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما بيَّن في خطبته، قال للصحابة: «وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟!» قالوا: «نشهد أنك قد

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩.

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢٧٥).

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم (٢٧١٢)، الكتب الستة، ج٢، ص٢٩٥٤، وحكمه: صحيح، كما ورد، وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٢٢٨.

بلَّغتَ رسالات ربك، وأدَّيت، ونصَحت لأمَّتك، وقضيتَ الذي عليك»، فقال بإصبعه السبابة، يَرفعها إلى السماء ويَنكتها إلى الناس: «اللهم اشهَد، اللهم اشهَد» وأن يبلغ الحاضر الغائب، أو الشاهد الغائب، قال عليه الصلاة والسلام: «فرب مبلغ أوعى من سامع»(١).

* * *

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٨٤؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٢٠٨ ـ ٢٣٠؛ وأحاديث صحيح البخاري: كتاب الحج، وشرح ابن حجر، ج٣، ص٥٩٨ ـ ٩٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، كتاب حجة الوداع في سنة عشر، ج٥، ص١١٤ ـ ٢٩٧؛ وانظر: الغزالي: فقه السيرة، ص٤٥٢ ـ ٤٥٧؛ الزيد: زيد بن عبد الكريم: فقه السيرة، دار التدمرية ـ الرياض، الطبعة الثامنة، ١٤٣٢هـ، ص٦٥٢ ـ ٦٦٠؛ البوطي: محمد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٤٨١ ـ ٤٨٦.

الفصل الثاني
مظاهر التحولات التاريخية في مكة

استمراراً لما تم بيانه في تمهيد الدراسة من تعريف للتحول، وبيان أنماطه وأطره الأربعة (التحول الديني، والتحول السياسي والتحول الاجتماعي، والتحول الاقتصادي)، وبعد بيان وتوضيح أهم عوامل التحول التاريخي الذي مرت به مكة المكرمة في المبحث الأول؛ نرصد في هذا الفصل أهم مظاهر التحولات التاريخية التي عاشتها مكة المكرمة وأهلها نتيجة لعوامل التحول.

تمثل التحول في حياة أهل مكة المكرمة عند ظهور الإسلام، بالدعوة لله، وتحولهم الديني من الشرك إلى الوحدانية ومن عقائدهم المنحرفة الباطلة من وثنية ودهرية وعبادة كواكب ويهودية ونصرانية إلى دين الله الذي ارتضاه لنفسه وعباده، ألا وهو دين الإسلام، وقد حدث هذا تدريجيًا، فتدرجت الدعوة وموقف الكفار منها، حتى ضرب الإسلام بجرانه على مكة وجزيرة العرب، ودخل الناس فيه أفواجًا، ونستطيع القول أن التحول في مظاهر الحياة العامة لمكة وأهلها اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا ارتبط وتأثر بعامل ومظهر التحول الأساس وهو العامل الديني؛ ظهور الإسلام وانتشاره بين الناس. وحين شاء الله إخراج الناس من

الظلمات إلى النور بدين الإسلام، واصطفى منهم رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وبعثه إليهم بالهدى ودين الحق وكلفه بالدعوة والتبليغ، قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر ربه داعياً إلى الله بإذن ربه مبشراً ونذيراً وسراجاً منيراً، وقد سار في دعوته على النهج الرباني بالتدرج والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى تمكن من نشر الإسلام، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك الناس على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

* * *

المبحث الأول

الدعوة إلى الله وانتشار الإسلام بمكة

أدى مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام في مكة إلى الدعوة إلى الله ونشر دينه، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام سراً، فاستجاب له من شاء الله من الأحداث والكهول وضعفة الناس، حتى كثر من آمن به وصدقه[3].

فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[4] عمل الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم على تنفيذ الأمر الإلهي وجمع عشيرته وجهر بالدعوة وقال لهم: «أرأيت إن أخبرتكم أن العدوّ مصبحكم أو ممسّيكم أما كنتم تصدّقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد». وفي رواية: صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فقال: يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف،

---

(١) سورة المدثر، آية رقم (١ ـ ٢).

(٢) سورة الحجر، آية رقم (٩٤).

(٣) ابن عبد البر: الدرر، ص٣٨.

(٤) سورة الشعراء: آية رقم (٢١٤).

فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة(١).

فاستمرت الدعوة في المرحلة المكية مدة ثلاثة عشر عاماً، كان نصيب الدعوة السرية منها ثلاثة أعوام، بدأت بالبعثة والأمر بالتبليغ؛ يقول ابن القيم: «وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الناس في الدعوة مراتب، فإنه أمر أولا أن يقرأ باسم ربه، ثم أمر ثانياً أن يقوم نذيراً، فأمر بإنذار عشيرته وقومه ودعوتهم إلى الله تعالى، ثم أمر بإنذار الناس والصبر والعفو والهجر لمن آذاه ثم أمر بالهجرة، ثم أمر بقتال من قاتله، ثم أمر بالجهاد العام، ثم بضرب الجزية على أهل الكتاب، فضربها عليهم وألحق بهم المجوس، وكانت العرب من عباد الأوثان قد دخلوا كلهم في الدين، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقر الناس على ما هم عليه حتى يأتيه الأمر من الله بما يأخذهم به ويفعله معهم، فلما جاءه أمره بالهجرة بادر إلى امتثاله، ثم جاءه الأمر بالجهاد فقام به حق القيام»(٢).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٤٠.

(٢) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق =

فصدع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله، وبادى قومه بالإسلام، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب عليه أبو طالب عمه، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم من شيء [يكرهونه مما] أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، ومشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البختري بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى إليه منهم، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه قال: ثم شري الأمر بينه، فما إن انطلقت الدعوة الجهرية في مكة، حتى واجهتها المصاعب، من كل حدب وصوب، فقد عمل

= العاروري، الطبعة: الأولى، ١٤١٨/ ١٩٩٧، رمادي للنشر ـ الدمام، ج١، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

المشركون على إطفاء نورها وقطع دابرها وكان سبيلهم في ذلك التكذيب والافتراء والتسفيه والإيذاء والتعذيب والتغريب وكل وسيلة قدروا عليها من وسائل الصد والترهيب، ولكن المسلمين صمدوا صموداً عظيماً، وصبروا صبراً جميلاً(١).

لأن قريشاً في البداية سالمت النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ولم تتعرض له، حتى عرض دعوته مبتدئاً بتوحيد الألوهية، ونبذ كل ما يخالف ذلك، فوقع التصادم والمواجهة، فالدين الجديد يقدم التوحيد وينفي ما عداه(٢).

ثم إن قريشاً تذمروا على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله الذين أسلموا معه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب. وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله إلا ما كان من أبي لهب، فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم معه وحدبهم عليه جعل

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٣٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤١ ـ ٤٤.

(٢) الزيد: فقه السيرة، ص١٦١.

يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له: النجاشي لا يظلم أحد بأرضه، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها يجدون فيها رفاغـًا[1] من الرزق وأمنا ومتجراً حسنًا، فأمرهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم[2].

---

(١) (رَفُغَ) العيش ـُ رَفاغَة: رغِد. فهو رافغ ورفيغ. (أرفَغَ): اتَّسَعَ عيشه ورغد. وله العيش: أوسعه وأرغده. (تَرَفَّغَ): صار عيشه رفيغـًا. (الأرفَغُ) من العيش: الخصيب الواسع الطيب. (الرَّفاغَةُ): سعة العيش وخصبه، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ـ جمهورية مصر العربية الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية، باب الراء، ج١، ص٣٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٤٥؛ ابن عبد البر: الدرر، ص٤٧ ـ ٥٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥٠ ـ ٥٤.

فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم باختيار دار يختفي فيها هو وأصحابه، وهي دار الأرقم ابن أبي الأرقم[1]، وكانت هذه الدار مهد انطلاق الدعوة السرية[2]، واجتماع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) قال ابن سعد: سمعتُ جدّي عثمان بن الأرقم يقول: أنا ابن سبعةٍ في الإسلام، أَسْلَمَ أبي سابعَ سبعة وكانت داره بمكّة على الصفا وهي الدار التي كان النّبيّ ﷺ يكون فيها في أوّل الإسلام، وفيها دَعَا النّاس إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير، وقال ليلة الإثنين فيها: «اللّهُمّ أعِزّ الإسلام بأحبِ الرّجلين إليك عمر بن الخطّاب أو عَمرو بن هشام». فجاء عمر بن الخطّاب من الغد بُكْرَةً فأسلم في دار الأرقم، وخرجوا منها فكبّروا وطافوا البيت ظاهرين، ودُعيت دار الأرقم دارَ الإسلام، وتصدّق بها الأرقم على ولده فَقَرَأتُ نسخةَ صَدَقَةِ الأرقم بداره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصّفا إنّها مُحَرّمةٌ بمكانها من الحرم لا تُباعُ ولا تورث، شَهِدَ هشام بن العاص وفلان مولى هشام بن العاص، قال: فلم تزل هذه الدار صدقةً قائمةً فيها وَلَدُه يسكنون ويُؤاجِرون ويَأخُذون عليها حتّى كان زمن أبي جعفر. الطبقات الكبير، ج٣، ص٢٢٣.

(٢) ويقول الكرمي: «إلا أن المعلومات المتوافرة في المصادر لا تبين تاريخاً مضبوطاً للوقت الذي اختفى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في دار الأرقم، فالروايات في ذلك مضطربة، ولكننا نستخلص من خلال هذه الروايات أن ذلك كان في أواخر السنة الثالثة للبعثة؛ أي: في آخر الفترة الأولى من الدعوة في مكة (الفترة السرية). وكذلك فإن الروايات مضطربة في مدة الاستخفاء، فبعض المصادر تجعل هذه المدة شهراً، وغالب المصادر لا تحدد =

بالمؤمنين ليعلمهم الدين قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾(١)، قال ابن كثير: «(خَيْرٌ مَقَامًا وأَحْسَنُ نَدِيًّا) أي: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً، وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق(٢).

ضاق أهل مكة بدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واشتد الأمر على المستضعفين من المؤمنين، فتحرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحماية أصحابه بعدد من الوسائل، فوجه بعض الأغنياء من الصحابة لشراء

= هذه المدة، وكذلك لا توضح الروايات كيفية هذا الاستخفاء، هل كان في الليل أم في النهار؟ ولكنه يفترض ألا يكون اختفاء تامًا؛ لأن ذلك يؤدي إلى مزيد من الشكوك والارتياب في سلوك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه من المعروفين المشهورين في الأوساط المكية، وقد كانت الدعوة تقدم في ذلك الوقت على وجه السرية والتكتم والحذر والاحتياط الشديد، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعامل مع المدعوين في هذه المرحلة المبكرة من عمر الدعوة». أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، دار السلام ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٨هـ، ص٦٠.

(١) سورة مريم، آية رقم، (٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير: ج٣، ص١٣٥.

بعض هؤلاء العبيد المستضعفين وإعتاقهم؛ لإنقاذهم من العذاب الذي وقع عليهم، وبالفعل فقد أعتق أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحده سبعة من هؤلاء، وكانت هناك محاولات لحماية المؤمنين عن طريق دخولهم في جوار بعض زعماء المشركين، فدخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ودخل أبو بكر في جوار ابن الدغنة(١) ثم رده عليه، ولكن الإجراء الكبير الذي قام به النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحماية أصحابه هو أن يهاجروا إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة دليلاً قاطعاً على دقة تخطيط النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإدارته لدعوته بنجاح، فهو عليه السلام يدرس الموقف جيداً ويعلم أن الحبشة فيها ملك لا يظلم(٢).

ومكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة يُظهر دين الإسلام بالعلم والبرهان والحجج والآيات، ويدعو إلى تقرير التوحيد ونقض الشرك، وجعل هذا أصلاً لدعوته وأساساً لبنيانه؛ حيث ظهر

---

(١) ابن الدغنة، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٦؛ صحيح البخاري: كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر، حديث رقم (٢٢٩٧)، ابن حجر: فتح الباري: ، ج٤، ص٧١٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣١٨؛ الكرمي: أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، دار السلام ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٨هـ، ص٦٥.

الاعتناء بهذا الأصل في العهد المكي؛ وقد بين القرآن المكي القاعدة الجامعة للتعريف بهذا الأصل، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(١). فالتعريف التام بالتوحيد يتوقف على توضيحه وتبيانه، والإتيان بالآيات الواضحة الدالة عليه، ويكون بيانها على وجه التفصيل المفيد للعلم والهدى، فيتحصل للمؤمنين من مجموع ذلك معرفة مفصلة بالتوحيد وسبيل أهله، وعاقبتهم من جهة، وبالشرك وسبل أهله وخذلانهم من جهة أخرى، وقد تحصلت تلك المعرفة الجامعة من تفصيل القرآن المكي لآيات التوحيد(٢).

وقد تنوعت معاملات النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع المشركين والكفار في العهدين المكي والمدني، ففي مقام التعامل معهم: يعاملهم تارة بالمسامحة والملاطفة والموادعة، ويعاملهم تارة أخرى بالمعاقبة والمفاصلة ـ أي المباينه ـ والمحاربة. وبالتدرج في الدعوة تتهيأ النفوس للسماع، فالحجة لا تقوم على المدعوين إلا بالسماع، وإذا فلا ضير من إعطاء المشركين الفرصة لكي تتهيأ نفوسهم لسماع القرآن الكريم ومعرفة

---

(١) سورة الأنعام، آية رقم (٥٥).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢١٥ ـ ٢٧٤؛ وانظر: الموصلي: فتحي عبد الله، المقدمات العلمية في تأصيل الأحكام المكية، دار الألوكة للنشر ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٣٨.

هـذا الـدين لعـل قلـوبهم تتفـتح وتتلقـى وتسـتجيب، فتزكـو تلـك القلـوب، وتطيب تلك النفوس، وقد فعل صلى الله عليـه وآلـه وسـلم ذلـك، فقـد كـان يهيـئ نفـوس المشـركين للسـماع، فحينمـا جـاءه عتبـة بـن ربيعـة لمفاوضـته صلى الله عليه وآله وسلم هيأ نفسـه للسـماع أولاً بقولـه: «قـد فرغـت يـا أبـا الوليد قال: نعم، فقال: يا بن أخي فاسمع»، ولا يخفى على أحـد مـا في هـذه الملاطفة من تهيئة للسماع، وحين اتكأ عتبة على يديه وقال: أسمع، أسـمعه صلى الله عليه وآلـه وسـلم صـدراً مـن سـورة فصـلت[1]. وقـال القـرطبي في تفسير آيات سورة فصلت: ..فقال عتبة ابن ربيعة: والله لقد سـمعت الكهانـة والشعر والسـحر، وعلمـت مـن ذلـك علمـا لا يخفـى علـي إن كـان كـذلك. فقالوا: ائته فحدثه. فأتى النبي صلى الله عليـه وآلـه وسـلم... قـال: والله لقـد سمعت كلامـاً من محمد ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشـعر ولا بالكهانـة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي، خلوا محمدا وشأنه واعتزلوه، فو الله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فـإن أصـابته العـرب كفيتمـوه بأيـدي غيـركم، وإن كان ملكـاً أو نبيـاً كنتم أسعد الناس بـه؛ لأن ملكـه ملككـم وشـرفه شـرفكم. فقالوا: هيهات! سحرك محمد يا أبا الوليد. وقال: هـذا رأيـي لكـم فاصـنعوا ما شئتم[2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٥، ص٢٩٦.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يهيئ نفوس أصحابه للسماع، فقد روى البخاري عن جرير أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس» فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

فدل الحديث على أنه صلى الله عليه وآله وسلم استنصت أصحابه قبل أن يعظهم ليهيئ نفوسهم لسماع كلامه ثم حفظه ثم العمل به ونشره، وقد ذكر ابن حجر حكمة عظيمة بين فيها التدرج في تلقي العلم، وأن أوله الاستماع فقال: «قال سفيان الثوري وغيره: أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»[2].

وبعد تعرفه صلى الله عليه وآله وسلم على المدعوين، كان يولي ذوي المكانة منهم عناية خاصة، بل لقد كان يولي كبراء قومه عناية خاصة، لمكانتهم في قومهم، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن كثير: اجتمع عليه من أشراف قريش فبعثوا إليه: «إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، حديث رقم (١٢١).

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٣٥٦؛ المطلق: إبراهيم بن عبد الله المطلق: التدرج في دعوة النبي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ، ص١٠٠.

لهم في أمره بدو، وكان حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم». وهكذا كان موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع عمه أبي طالب وهو كبير قريش، حيث كان يقول له: «....وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه» لم يأل رسول صلى الله عليه وآله وسلم جهداً في عرض دعوته على كل من يلقاه وتبليغها لكل أحد عملا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

* دور القرآن المكي[2] في التحول الديني وبناء التصورات والمشاعر لأهل مكة:

فالقرآن هو الحق المبين كتاب ربنا سبحانه وتعالى أنزله على قلب النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويبين الزُّرْقاني[3]

(١) سورة المائدة، آية رقم (٦٧)، انظر تفسير ابن كثير: ج٢، ص٧٨.

(٢) القرآن المكي: ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ج١، ص٣٦-٣٨.

(٣) محمد عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، ص٢٠٢-٢٠٤.

خواص القرآن المكي، بقوله: «أولاً: أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسفه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]. وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوات وإنكار البعث والمسؤولية والجزاء.

---

(١) سورة الحج، آية رقم، (٧٣).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٧٠).

ثانيًا: أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من أعلام الرشد، ونوع لهم في الأدلة، وتفنن في الأساليب، وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات، ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث ومسؤوليته والجزاء العادل ودقته، ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد على سواء.

ثالثًا: أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال الأيتام. فلفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار، وما زال بهم حتى طهرهم منها ونجح في إبعادهم عنها.

رابعًا: أنه شرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحًا عجيبًا، كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاء الطبع وقذارة القلب وخشونة اللفظ، وحبب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الغير وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلوب ونظافة الألسنة إلى غير ذلك.

خامسًا: أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان

ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان.

سادسًا: أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن، صناعتهم الكلام وهمتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب.

كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد وأن يقدم الأهم على المهم. ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية؛ لذلك كثر في القسم المكي التحدث عنها والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية جريًا على سنة التدرج من ناحية، وتقديما للأهم على المهم من ناحية أخرى»[1].

وبهذا يتضح أن المرحلة المكية قد شهدت عملاً دائبًا في محو عقيدة الشرك بمختلف تجلياتها، وإقرار عقيدة التوحيد وإرساخها وتعميقها في القلوب، حتى تستنير بها، فتعرف إلهها وخالقها ورازقها ومدبرها، وتعرف

(١) انظر: الزركشي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ج١، ص١٨٧ ـ ٢٠٦.

واجبات العبادة المستحقة لله تعالى وحده، وتلتزم بمقتضيات الشريعة والآداب والأخلاق الإسلامية، ودون إقرار العقيدة الصحيحة وإرساخها أولاً في القلوب، لا يرجى صلاح ولا استقرار لأحوال الناس؛ إذ سرعان ما ينقض أمر الدين والشريعة تماماً كما ينقض أي بناء شيد على غير أساس وطيد؛ ومن ثم فالقرآن المكي أصول، والقرآن المدني شرح وبيان وتتمة لتلك الأصول، وقرر تلك الحقيقة الشاطبي في موافقاته[1].

بل مما يؤكد أهمية البداءة بالتوحيد استمراره صلى الله عليه وآله وسلم طيلة زمن الرسالة يبدأ بعرض التوحيد أولاً، ومما يدل على ذلك قصة إسلام ضمام بن ثعلبة[2]، ووفد عبد القيس، ومكاتبته صلى الله عليه

(١) الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي: الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة - بيروت، ج٣، ص٤٦؛ وانظر: اليوسف: غازي يوسف، دروس الدعوة الإسلامية في العصر المكي، دار الألوكة للنشر - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٣١.

(٢) عن ابن عباس. قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم إليه وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخله المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه. فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ «أنا ابن عبد المطلب» فقال: يا محمد قال: نعم. قال: يا بن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك. =

وآله وسلم للملوك يدعوهم إلى التوحيد، ثم إرشاده لمعاذ بن جبل حين

= قال «لا أجد في نفسي فسل عما بدالك» فقال: أنشدك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم!» قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال: اللهم نعم! قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس. قال «نعم!» قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف إلى بعيره راجعاً. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة» قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم أن قال: بئست اللات والعزى. فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون. فقال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد ه ورسوله. وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. يقول ابن عباس فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٣٨. وتشكل قصة ضمام مظهر من مظاهر التحول الفكري «الديني» المباشر لهذا الصحابي وقومه.

بعثه إلى اليمن أن يبدأ بالدعوة إلى التوحيد، ونبه الإمام ابن حجر إلى الحكمة في ذلك فقال: «ووقعت البداءة بهما ـ أي: الشهادتين ـ لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء إلا بهما فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين[1].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2]؛ يفسر ابن كثير تلك الآيات بقوله: يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الآلهة..[3].

ومن مظاهر التحول في العهد المكي وأحكامه ومراتبه مجيء عدداً من مراحل التدرج في هذا العهد، بل لا تكاد تجد حكماً أو نصاً أو موقفاً دعوياً قد جيء به من غير تمهيد ولا توطئة، بل لا تكاد تجد سبباً شرعياً أو كونياً إلا وقد سبق بمقدمات تمهيدية فصار تمام الفقه متوقفاً على العلم بالأحكام من جهة، وعلى معرفة سبيل ورودها والتدرج في تشريعها من جهة أخرى، وفي بيان ذلك قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٥٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٧٤.

(٢) سورة يونس، آية رقم (٣١).

(٣) تفسير ابن كثير: ج٢، ص٤١٧.

عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[2]، ويشمل ذلك أيضـًا العهد المدني أيضـًا.

هذا والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يغذي أرواحهم بالقرآن الكريم، ويربي نفوسهم بالإيمان، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرراً من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعـًا إلى رب الأرض والسموات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس[3].

فقد كان النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أنّ عمليّة التحوّل لن تكون سهلة، وأن التغيير لا يمكن أن ينجح نتيجةً للقاء واحد،

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١٠٦).

(٢) سورة الفرقان، آية رقم (٣٢)؛ انظر: تفسير القرطبي، سورة الإسراء، ج١٠، ص٢٩٥، وتفسير سورة الفرقان، ج١٣، ص٣٠؛ الموصلي: المقدمات العلمية في تأصيل الأحكام المكية، ص١١٢.

(٣) الندوي: السيد أبي الحسن علي الحسني: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٨٦.

فواصل الدعوة واشتد الصد والرفض حتى قدّر له أن ينفّذ الأمر الإلهي كاملاً، ولكنّه احتاج إلى ثلاثة وعشرين عامًا: ثلاثة عشر عامًا منها في مكّة المكرّمة، وعشر سنوات في المدينة المنوّرة، حتّى أتمّ التحول المنشود عاملاً ومظهراً.

* * *

المبحث الثاني

تصدي المشركين للدعوة الإسلامية خلال العهد المكي

أدى ظهور الإسلام والدعوة إليه وانتشاره في مكة إلى تصدي مشركي قريش للدعوة الإسلامية ومقاومة عقيدة التوحيد بكل الوسائل، وتمثل التحول هنا في الصبر على الأذى والعدوان من المشركين، والثبات على الدين والاستمرار في الدعوة لرب العالمين.

فلما بُعث المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم اتَّبعه الضُّعَفاء وعاداه الأقوياء، فنصَر الله مَن نصَرَه، وخذَل مَن خذَلَه، فلقد أخرج البخاري في «صحيحه» عن خبَّاب بن الأرتِّ[1] قال: «شكَوْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مُتَوسِّد بردةً له في ظِلِّ الكعبة، قلنا

(١) خباب بن الأرت: ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة، من تميم. أبو يحيى التميمي من نجباء السابقين له عدة أحاديث. وقيل: كنيته أبو عبد الله. أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقبل أن يدعوَ فيها، كان خباب سادس ستة في الإسلام، وقال الشعبي: إن خَبَّابًا صبر ولم يُعْطِ الكفار ما سألوا، فجعلوا يلزقون ظهره بالرَّضْف، حتى ذهب لحم مَتْنِهِ، شهد خباب: بدرًا، وأُحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات خباب سنة سبع وثلاثين وصلى عليه علي، وكان عمره إذ مات ثلاثًا وسبعين سنة، قال: وقيل: مات سنة تسع عشرة، وصلى عليه عمر رضي الله عنه. ابن سعد، ج٣، ص١٥١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٥.

له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمَن قبلَكم يُحفَر له في الأرض فيجعل فيه، فيُجاء بالمِنشَار فيُوضَع على رأسه فيشق باثنين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يَسِير الرَّاكِب من صَنعاء إلى حضرموت لا يَخاف إلا الله والذِّئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون»(١).

فتصدى المشركون من أهل مكة بكل ضراوة للدين الجديد؛ بإعلان العداوة له، وإعلان الحرب الكبيرة على هذه الدعوة الإسلامية الجديدة، التي تريد نقض عروش الشرك، وهدم كل معتقداتها وتشريعاتها الباطلة وما تحمله من تصورات وأفكار، فبدأت قريش أولاً وهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإعلان رفضها وعنادها لهذه الدعوة التي جاء بها ابنها، مع أنهم جميعًا كان بينهم بقايا من الحنفاء ومن أهل الكتاب أمثال زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، ولكن هؤلاء ما كانوا يلقون شيئًا من أذاهم ولا عنادهم ومكابرتهم، لكن الموقف هذا تغير تمامًا تجاه دعوة الإصلاح والهداية دعوة الإسلام، فشعر المسلمون الذين آمنوا بهذه الدعوة واتبعوا رسولها بشيء كبير من الغربة بين هؤلاء القوم، فلم يعودوا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٢)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٩١٠.

لهم أولياء ولا أنصاراً، بل تحولت إلى نوع من العداء والاعتداء على الأموال والأبدان بالتنكيل والتعذيب الشديد[1].

ولجأ المشركون لكل طريقة وأسلوب في الغضب والمقت على دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه وآمن به وبرسالته، ولقد سلكوا كل طريق لصد الناس عن الإيمان بالله ورسوله، وما تركوا أسلوباً ولا طريقاً إلا سلكوه ضد دعوة الإسلام، والقرآن ذكر شيئاً كثيراً من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[4]. ولا ريب أن كل هذا سنة من سنن الله تعالى التي وقعت في الأمم الخالية قبلنا كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ

(١) ابن عبد البر: الدرر، ص٤٣ ـ ٤٨؛ السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٣، ص١١٢ ـ ١٢٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٣ ـ ٤٥.

(٢) سورة الحجر، آية رقم (٦).

(٣) سورة ص، آية رقم (٤).

(٤) سورة القلم، آية رقم (٥١).

﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]. ومن ذلك: صد الناس عن سماع القرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاء به، واتهام القرآن والرسول بأنه ساحر وكذاب وكاهن وشاعر إلى آخر هذه القائمة من البهتان لأهل الحق والإيمان، وَقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2].

ومن ذلك: التعذيب والتنكيل لأصحابه والمؤمنين به المتبعين له، فلقد عذب كثير من الصحابة رضي الله عنهم، من أمثال بلال بن رباح، وعمار بن ياسر وأبيه وأمه الذين قضوا نحبهم في سبيل الله تعالى، ومصعب بن عمير، وصهيب بن سنان الرومي[3]، وأبي فكيهة أفلح الذي كان مولىً

(١) سورة الأنعام، آية رقم (١٠).

(٢) سورة فصلت، آية رقم (٢٦).

(٣) صهيب بن سنان الرومي: أبو يحيى النمري. من النمر بن قاسط. ويعرف بالرومي، لأنه أقام في الروم مدة. وهو من أهل الجزيرة، سبي من قرية نينوى، من أعمال الموصل. وقد كان أبوه، أو عمه، عاملاً لكسرى. ثم إنه جلب إلى مكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان القرشي التيمي. ويقال: بل هرب، فأتى مكة، وحالف ابن جدعان، وكان من كبار السابقين البدريين. حدث عنه بنوه: حبيب، وزياد وحمزة وسعيد بن المسيب، وكعب الحبر، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وآخرون. روى أحاديث معدودة. خرجوا له في الكتب وكان فاضلاً وافر الحرمة. له عدة أولاد، ولما طعن عمر استنابه على الصلاة بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام. وكان موصوفاً بالكرم، والسماحة رضي الله عنه، =

لبني عبد الدار، وخباب بن الأرت، وزنيرة أمة رومية التي أسلمت ثم عمي بصرها، ثم شفيت فقالوا: سحر محمد، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً وغيرهم كثير ممن آمنوا مع انبثاق فجر الإسلام(١).

ومن ذلك أيضاً: إثارة الشبهات الباطلة الكاذبة حول القرآن والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ما هو إلا بشر مثلهم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام، كما ذكر القرآن عنهم ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾(٢). وما كل

= مات بالمدينة في شوال سنة ثمان وثلاثين وكان ممن اعتزل الفتنة، وأقبل على شأنه رضي الله عنه، ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٢٠٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٦١.

(١) ابن عبد البر: الدرر، ص٤٣ ـ ٤٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٥ ـ ٤٧.

(٢) سورة الفرقان، آية رقم (٤ ـ ٩).

ذلك إلا ليصدوا عنه الناس وعن أتباعه وتصديقه في رسالته ونبوته، وكذبوا البعث بعد الموت والخروج من القبور، وغير ذلك مما حكاه الله لنا في كتابه العزيز(١).

ومنها عروض الإغراء كتولية الملك والسلطان عليهم، وجلب المال له ولأصحابه وجعلهم من أئمة الثراء والغناء بينهم، وتزويجه بالنساء والتمتع بهن على الفرش، وشفائه من أمراضه وعلله إن كان الذي نزل به من الأدواء وأنواع السحر، حقاً إنها السفه البشري الذي أضل العقول والقلوب عن هذا النور والحق، وعن هذا البيان الشافي الهادي الواضح، وعن هذا الإعجاز البين القاهر، لقد غلب عليهم الكفر والمعاندة للحق، والجحود والتكذيب مع كمال علمهم بأنه الصادق الأمين، ولكنها السنن الربانية الجارية في الكون لحكمة يريدها الله تعالى، للتمكين لهذا الدين، والتمهيد الرباني لظهوره على سائر الأديان من دونه والنحل الجاهلية المعاندة(٢).

ثم محاولاتهم المتكررة لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومطاردته ونفيه، واجتماع قريش على ذلك بغية الوصول إلى شيء من إحباط وعرقلة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٥٨ ـ ٢٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٧٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٤٠؛ السهيلي: الروض الأنف، ج٣، ص٩٣.

هذه الدعوة الجديدة، وقد أثبت القرآن ذلك ليكون لنا العظة والعبرة من أعداء الدعوة وأصحابها في كل زمان ومكان كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1]، قال القرطبي: «هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في دار الندوة؛ فاجتمع رأيهم على قتله فبيتوه، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رءوسهم ترابًا ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم علي فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فات ونجا. الخبر مشهور في السيرة وغيرها. ومعنى (ليثبتوك) ليحبسوك؛ يقال: أثبته إذا حبسته»[2].

ومع تنوع أساليب المشركين في مدافعة الحق والغلبة عليه، إلا أن الله ثبت نبيه ورسوله، وثبت الصحابة الذين آمنوا معه، وصدقوا نبوته ورسالته، وثبتهم لأنهم جعلوا التوحيد طريقهم إلى الله والدار الآخرة، وجعلوا إفراد الله وحده بالعبادة من الذبح والنذر والطواف وغيرها أحق وأجدر،

(١) سورة الأنفال، آية رقم (٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص٣٤٨.

لأنه المعبود المستحق لذلك فلا شريك له، ولا منازع له، ولا مماثل ولا مكافئ له؛ وثبتهم الله لما رأى الإيمان خالط بشاشة قلوبهم فأضاء لها الطريق من جديد إلى الله المعبود سبحانه، وعلم الله منهم صدق المتابعة والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلقد آمنوا بالله ورسوله، وصدقوه وتابعوه بمجرد الوقوف معهم بإثبات حقيقة الباطل الذي عليه أمر الجاهلية، وأنها عبدت من دون الله ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، من الأصنام والأحجار والأوثان، وما إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإسلامه من ذلك ببعيد، قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[(١)]، وهو أبرز تحول أحدثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفوس المسلمين، وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أفضل ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا التحول عظيماً في كل شيء، كان عظيماً في سرعته، وعظيماً في عمقه، وعظيماً في سعته وشموله[(٢)].

---

(١) سورة النور، آية رقم (٥٥)؛ وانظر: تفسير القرطبي للآية، ج١٢، ص٢٧٢؛ وتفسير ابن كثير، ج٣، ص٣٠١.

(٢) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٨٨؛ وانظر: المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٨٦ ـ ١٢٣.

* ثمار التحول:

لما ثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من جيل الدعوة الأول، وصبروا على الكيد والمكر، والصد والاستهزاء، والإعراض والإغراء، وتركوا كل متاعهم وأموالهم، بل ونسائهم وأبنائهم وعشيرتهم لله ورسوله، وكانوا مثالاً واقعياً للثبات على المبادئ والحق، والتضحية الصادقة من أجله ونصرته، لما كان هذا حالهم مكن الله لهم في الأرض، وأذن لهم بالتمكين الموعود لأهل الحق والإيمان، والتوحيد والمتابعة، فلقد أذن لهم بالهجرة إلى المدينة ولرسوله.

ومن تلك الثمار:

١ ـ استمرار الدعوة مع تصدي المشركين لها.

٢ ـ انتشار الإسلام.

٣ ـ فشل مشركي قريش في القضاء على الإسلام، وإيقاف الدعوة.

٤ ـ التحول بمقر الدعوة من دار البعثة إلى دار الهجرة، حيث وجد الأرض التي يأوي إليها ويأمن فيها والقوة التي تنصره حتى يبلغ رسالة ربه.

* * *

المبحث الثالث

الصراع بين المسلمين والمشركين خلال العهد المدني

في هذا المبحث تتضح التحولات (الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية مجتمعة) خلال فترة الصراع العسكري بين المسلمين بقيادة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة بعد أن استقر بهم الأمر بها بعد الهجرة النبوية من مكة، ومشركي قريش في مكة بقيادة زعماء قريش (أبي جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبي سُفيان.. وغيرهم) حتى فُتحت مكة في العام الثامن للهجرة.

ولن يتم هنا استعراض تفصيلي للسرايا والغزوات النبوية باتجاه مكة أو مصالح قريش التجارية، إنما دراسة مجملة لأهم مظاهر التحولات والآثار التي نالت مكة وأهلها جراء ذلك الجهاد النبوي المبارك، وأهم أسبابه ودوافعه.

إنَّ رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للدوافع التي ينبغي أن تقوم الحروب من أجلها تشمل رَدَّ العدوان، وتأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعا، فلقد اضْطُرَّ المسلمون للهجرة وترك الديار والأموال والأهل وكل شيء، ولم يتركهم مشركو مكة يعيشون حياتهم في أمان هناك، بل طاردوهم وحاصروهم وراسلوا مشركي المدينة

ويهودَها لاستئصال شأفة المسلمين؛ فأهل مكة المشركون هم الذين بدأوا بإيقاع الظلم على المسلمين، ولم يكن الظلم ظلمًا واحدًا، بل كان ظلمًا متعددًا مُرَكَّبًا، فظُلْمٌ في الجسد بالتعذيب والحرق والقتل أحيانًا، وظلم في المال بمصادرته بدون وجه حق واغتصابه بالقوة، وظلم في الديار بالطرد منها وأخذها، بل بيعها وأكل ثمنها، وظلم في العرض بالسب والقذف وتشويه السمعة، وظلم في الحرية بالحبس والحصار والعزل عن المجتمع[1]؛ ولما اشتدَّ أذى المشركين على مَن أسلم، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه؛ أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره، قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2]؛ أي: إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٣٨.

(٢) سورة الحج، آية ٣٩ـ ٤١.

إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات: تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يُصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه، أو على من يلوذون به، وتمادت قريش في غيِّها وضلالها وكبريائها، فكان لابد من وقفات حازمة ترد للمسلمين بعض حقوقهم المسلوبة وأموالهم المنهوبة، وهذا ما فعله المسلمون[2].

ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٧٩؛ السهيلي: الروض الآنف، ج٢، ص٢٨٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٧٠؛ سورة الأنفال، آية (٣٩).

(٢) غضبان: منير محمد: فقه السيرة النبوية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٩هـ، ص٣٨٢.

وسلم وكانوا نيفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي ـ يعنون أهل منى ـ ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لم أؤمر بهذا» فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله قبل أن يخرج، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، وافاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك[(١)].

ويقول ابن القيم: «فلما استقرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، وأيَّده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإِحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلُوا نفوسهم دونه، وقدَّموا محبتَه على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم مِن أنفسهم، رمتهُمُ العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن سَاقِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم مِن كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبرِ والعفو والصفح حتى قويت الشوكةُ، واشتد الجناحُ، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرِضه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٤٢٩؛ تفسير ابن كثير: سورة الحج، ج٣، ص٢٢٦.

عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾»[(١)]، [(٢)].

لقد غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه الشريفة غزوات عديدة، وأرسل سرايا وبعوثًا كثيرة، ولكنَّه لم يكن في جميع غزواته أو سراياه بادئًا بقتال، أو طالبًا لدنيا، أو جامعًا لمال، أو راغبًا في زعامة، أو موسعًا لحدود دولة أو مملكة؛ بل كل ذلك كان هداية للناس، وتحريرًا للعقول، ورفعًا للظلم، وربطًا للناس برب العالمين بأعلى أساليب العفة والشرف والنُبْل، مما جعل هذه الغزوات أنموذجًا للتعامل الدولي في الحروب والأسارى[(٣)].

قال البخاري. قال ابن إسحاق: أول ما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأبواء. ثم بواط، ثم العشيرة. ثم روى عن زيد بن أرقم أنه سئل: كم غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: تسع عشرة شهد منها سبع عشرة أولهن العسيرة أو العشيرة[(٤)].

---

(١) سورة الحج، آية رقم ٣٩.

(٢) زاد المعاد، ص٣٥٣.

(٣) حمادة: فاروق: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم، دمشق، ص١٧٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي ـ باب غزوة العشيرة أو العسيرة، حديث رقم (٣٩٤٩)، ابن حجر: فتح الباري: ج٧، ص٤١٤.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: هذه مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي قاتل فيها، يوم بدر في رمضان سنة ثنتين، ثم قاتل يوم أحد في شوال سنة ثلاث، ثم قاتل يوم الخندق ـ وهو يوم الأحزاب وبني قريظة ـ في شوال من سنة أربع، ثم قاتل بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست، ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان، ثم قاتل يوم حنين وحاصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان[١]، وغزوة تبوك، ثم حج أبو بكر سنة تسع، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة الوداع سنة عشر، وغزا ثنتي عشرة غزوة ولم يكن فيها قتال[٢].

فكان أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يعترض لعير قريش. ثم غزا بواط في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً، يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، ثم رجع ولم يلق كيدا ـ وبواط هي من الجحفة قريب. ثم غزا في شهر ربيع الأول على

(١) قال الواقدي في المغازي ج١، ص٦: وحج الناس سنة ثمان، ويقال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعمل عتاب بن أسيد على الحج.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٥ ـ ١٧.

رأس ثلاثة عشر شهراً، في طلب كرز بن جابر الفهري[١] حتى بلغ بدر، ثم رجع. ثم غزا في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً، يعترض لعيرات قريش حين بدت إلى الشام، وهي غزوة ذي العشيرة، ثم رجع. فبعث عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً. ثم غزا بدر القتال، صبيحة سبع عشرة من رمضان يوم الجمعة، على رأس تسعة عشر شهراً[٢]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]. ففي الوقت الذي كان لغزوة بدر آثارها الإيجابية على المسلمين كان هناك أثرٌ سلبيٌّ على المشركين في مكة الذين فجعوا بهذا الحدث الضخم، فكانت بدر ضربة قاصمة هائلة لقريش، وهزة عظيمة جدًّا

---

(١) كرز بن جابر الفهري صحابي جليل أسلم بعد الهجرة النبوية، قال ابن إسحاق: أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له سفوان ففاته كرز وكانت هذه غزة بدر الأولى، ثم أسلم كرز وحسن إسلامه، وولاه رسول الله الجيش الذين بعثهم في أثر العرنيين الذين قتلوا راعيه في سرية كرز بن جابر الفهري، استشهد كرز يوم فتح مكة وذلك سنة ثمان من الهجرة. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ج٤، ص١٦٨.

(٢) الواقدي: محمد بن عمر: كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص٢.

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (١٢٣).

لكبرياء وكرامة وعزة قريش؛ فقد كانت أمنع قبيلة في العرب وأعز قبيلة، وصاحبة التاريخ المجيد، وكانت تحظى باحترام كل القبائل العربية، ولكن بعد (بدر) اهتزَّت مكانتها واختلف وضعها كثيرًا عن ذي قبل، فقد قُتل سبعون من المشركين ممن شاركوا في بدر، وأُسر سبعون آخرون، ووقعت قريش كلها في مأساة عظيمة بعد هذه الغزوة، والذين قتلوا من المشركين هم عمالقة الكفر وقادة الضلال وأئمة الفساد في الأرض، فمنهم أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وأمية بن خلف، وكان قتلهم جميعًا في يوم واحد. وقال ابن إسحاق: وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسُمان بن عبد الله الخزاعي. وناحت قريش على قتلاها، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه، فيشمتوا بكم؛ ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء(١).

واختلت مكانة قريش بين العرب واهتزت هيبتها؛ وأصيبت اجتماعيًا، فما من بيت في قريش إلا وقد أصيب منه واحد أو اثنان. بل

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٩١ ـ ٢٠٩؛ الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص٣٩، ابن الأثير: الكامل: ج٢، ص٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١١١؛ المقاطي: سلطان: السيرة النبوية من خلال تفسير الثعالبي (ت٤٢٧هـ)، ص٣٠٨.

وتزلزلت اقتصاديًا حيث كانت قريش تعتمد على التجارة في رحلة الصيف ورحلة الشتاء، فتحقق خسارة اقتصادية لأهل مكة، مع العلم أن قريشًا ما زالت تعاني من آثار سرية نخلة التي فقدت فيها قريش قافلة ثرية جدًّا، ثم نجت العير في بدر بصعوبة بالغة، ومن المستحيل أن تستمر التجارة مع الشام في ظل هذه الأجواء[1].

ورغم ما أصاب قريشًا في بدر؛ فإنها لم تتعظ، ولم تتراجع عن غيِّها، بل تمادت فأوقفت التصرف في قافلة أبي سفيان التي أفلتت في بدر لتجهيز جيشٍ بأموالها لحرب المسلمين، واستنفرت القبائل المحيطة بها من حلفائها، وكونت قريش بالفعل جيشًا كبيرًا، وهنا اضطر المسلمون لخوض الحرب مرة أخرى؛ دفاعًا عن أنفسهم، وعن الدولة الإسلامية، فكانت معركة أُحُد، فجاءت قريش بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وكان قائدهم هو أبو سفيان[2].

---

(١) ابن أبي شيبة: أبي بكر عبد الله بن محمد (ت٢٣٥هـ)، كتاب المغازي، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، دار إشبيليا ـ الرياض، ص١٧٤ ـ ٢١٦؛ ابن عبد البر: الدرر، ص١٢٠ ـ ١٣٠؛ الندوي: السيرة النبوية، ص٢٤٩ ـ ٢٥٣؛ المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٠٧؛ العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٤١٨ ـ ٤٢٠.

(٢) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح أبو وهب الجمحي أمه صفية بنت معمر بن حبيب جمحية أيضا قتل أبوه يوم بدر كافرا، وهرب يوم =

ودارت معركة أحد التي انتهت بالمصاب الأليم الذي أصاب المسلمين، واستُشهِدَ من المسلمين سبعون على رأسهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقامت قريش بالجريمة الشنعاء، إذ مثَّلت بجثث الشهداء المسلمين، مخالفةً بذلك كل الأعراف والقيم، ووضح للجميع مدى الحقد والكراهية التي يحملها المشركون في قلوبهم للمسلمين(١).

= فتح مكة وأسلمت امرأته وهي فاختة بنت الوليد بن المغيرة قال: فأحضر له ابن عمه عمير بن وهب أمانا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحضر وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم. وروى له مسلم والترمذي من طريق سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: والله لقد أعطاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنه لأبغض الناس إلي فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلى وأخرج الترمذي كان صفوان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام من عشر بطون ونزل صفوان على العباس بالمدينة، ثم أذن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الرجوع إلى مكة فأقام بها حتى مات بها مقتل عثمان، وقيل: دفن مسير الناس إلى الجمل وقيل: عاش إلى أول خلافة معاوية قال المدائني سنة إحدى وقال خليفة سنة اثنتين وأربعين. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، ص٤٣٣.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٤ ـ ٤١، الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص٧٤، ابن الأثير: الكامل: ج٢، ص١٠٣ ـ ١١٣؛ وانظر: السرحاني: راغب الحنفي: الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٢٦٣.

وكان من الممكن أن تكتفي قريش بهذه المعركة، وتكون في مقابل معركة بدرٍ، لكنَّ مشركي قريش أَبَوا إلا أن يستأصلوا الإسلام ودولته من المدينة بشكل نهائي، وجمَّع المشركون عشرة آلاف مقاتل، وكانت غطفان وأشجع وبنو أسد تتمة العشرة آلاف، وتحزَّبوا جميعًا، وتحرَّكت هذه الحشود الهائلة لتحيط بالمدينة فيما عرف بغزوة الأحزاب، واضطُرَّ المسلمون لبذل جهود جبَّارة لحماية أنفسهم من الشر المحدق بهم، فأشير عليه بالخندق، أي: أشار عليه بذلك سلمان الفارسي(1) رضي الله عنه، فُضرب على المدينة الخندق، لئلا يستطيع الجيش المهاجم الدخول إليهم، ومع هذا فقد حاول بعض المشركين اقتحام الخندق لقتال

---

(1) سلمان أبو عبد الله الفارسي ويقال له: سلمان بن الإسلام، وسلمان الخير، وقال بن حبان: من زعم أن سلمان الخير آخر فقد وهم. أصله من رامهرمز، وقيل: من أصبهان، وكان قد سمع بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيبعث، فخرج في طلب ذلك فأسر وبيع بالمدينة فاشتغل بالرق حتى كان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد وفتوح العراق، وولي المدائن. وقال ابن عبد البر: يقال: إنه شهد بدراً وكان عالمـاً زاهداً. وقال سلمان بن المغيرة عن حميد بن هلال: آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أبي الدرداء وسلمان، ونحوه في البخاري من حديث أبي جحيفة في قصته. ووقع في هذه القصة: فقال النبي ﷺ لأبي الدرداء: سلمان أفقه منك مات سنة ست وثلاثين. ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص١٤١.

المسلمين، وكان لابدَّ من مواجهة ذلك التحالف الظالم لضرب دولة الإسلام، وتواطؤوا مع يهود بني قريضة، فكانت غزوة الأحزاب، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1]؛ يعني الآيات كلها، إلى قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[2]. أي: صرف الله عنهم عدوهم، بالريح التي أرسلها عليهم والجنود من الملائكة وغيرهم، التي بعثها الله إليهم، وكفى الله المؤمنين القتال أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم، بل صرفهم القوي العزيز بحوله وقوته. لهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[3]. وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[4] إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبينهم، وهكذا وقع ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، كما قال ابن

---

(١) سورة الأحزاب، آية رقم (٩).

(٢) سورة الأحزاب، آية رقم (٢٥).

(٣) الكتب الستة: صحيح البخاري برقم (٤١١٤)، ص٤٠٩؛ صحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف في اللفظ، ج١، ص١٢٨٦.

(٤) سورة الأحزاب، آية رقم (٢٥).

إسحاق: فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم، ولكنكم تغزونهم» قال: فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة، وعن سفيان، عن أبي إسحاق: سمعت سليمان بن صُرَد يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأحزاب: «نَغْزُوهم ولا يَغْزُونَنَا»[1]، لأن غزوة الخندق (الأحزاب) فاصلة بين مرحلتين رئيستين من مراحل الحياة للدولة الإسلامية؛ وفي طبيعة الصراع بين المسلمين والمشركين حيث اتضح بعدها **حجم التحول التاريخي في** موازين القوى العسكرية، فقد تحول مشركو مكة، من غزاة معتدين مبادرين بالعدوان إلى مستقبلين كرهاً للركب النبوي المبارك الزاحف على مكة البلد الحرام، والذي اتضحت مظاهره بعد صلح الحديبية؛ التي كانت حلقة في سلسلة صور مراحل التحول العسكري لصالح المسلمين، فبعد أن ظهر صلح الحديبية في غير صالح المسلمين تحول فتحاً مبيناً قال تعالى عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[2] قال عنه أنس رضي الله عنه: إنه

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٢٧ ـ ١٥١؛ ابن الأثير: الكامل: ج٢، ص١٢٢ ـ ١٢٦؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم (٤١٠٩)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٩٩؛ وانظر: السرحاني: الرحمة في حياة الرسول ﷺ، ص٢٦٥.

(٢) سورة الفتح، آية رقم (١).

الحديبية[١]، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الصلح خلص من عداء قريش لفترة من الزمن أفاد منها في التفرغ للدعوة داخل الجزيرة وخارجها، وتحقيق عدد من الفتوحات كفتح خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، فأسلم ما بين الحديبية وفتح مكة أكثر ممن أسلم قبلها، كما كان هذا الصلح سبباً في فتح مكة والقضاء النهائي على شوكة مشركي قريش وإزالة عقبتها الكؤود من وجه الدعوة الإسلامية فدخل الناس في دين الله أفواجاً[٢].

ومن نتائج صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى: ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾[٣]، وتحولاته التاريخية الكبيرة في تاريخ مكة وأهلها، كما بينها ابن القيم[٤] ورواة السيرة ما يلي:

١ ـ أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه سنة الله سبحانه في الأمور العظام التي

---

(١) ابن أبي شيبة: كتاب المغازي، ص٢٧٠.

(٢) انظر: الندوي: السيرة النبوية، ص٣٢٥؛ الزيد: فقه السيرة، ص٥٢١؛ غضبان: فقه السيرة، ص٥٠٧.

(٣) سورة الفتح، آية رقم (١).

(٤) زاد المعاد، ص٤٣٦.

يقضيها قدراً وشرعـاً أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها.

٢ ـ اعترفت قريش بكيان المسلمين لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند عندما قبلت إبرام الصلح معهم، بعد أن كانت تصوِّرهم أمام الناس بأبشع الصور، وتنعتهم بأسوأ النعوت، مما كان له الصدى العميق في أرجاء الجزيرة العربية.

٣ ـ إن هذا الصلح مكَّن قبيلة خزاعة من إعلان تحالفها الصريح مع المسلمين، حيث كانت قبل الصلح تخفي تعاطفها معهم؛ «إذ كانت عَيْبَة نصحٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئًا كان بمكة».

٤ ـ أتاح الصلح إمكانية تفرغ المسلمين لآخر معاقل يهود في خيبر، والتي صارت مصدر خطر كبير على المسلمين؛ إذ كان لزعمائها دور كبير في تأليب الأحزاب ضد المسلمين في غزوة الخندق.

٥ ـ أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح؛ فإن الناس أمن بعضهم بعضـًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحـًا مبينـًا.

٦ ـ فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا،

والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يَعْقِل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر». ويعقب ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبدالله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١].

٧ ـ وفي أواخر السنة السادسة كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ويهمنا هنا الإشارة إلى قيصر الروم هرقل، فلما وصلته رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، التقى بأبي سفيان من قريش من أهل مكة، في القدس وسأله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وقال البخاري: عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. انفرد به البخاري[٣].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢٠٦؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٣٦.

(٢) وسيأتي بيان ذلك تفصيلاً في الباب الثاني. كما وقعت غزوة مؤتة، وهي قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة؛ قُبيل فتح مكة.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، (٤١٥٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٦٥١.

وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1] صلح الحديبية[2].

فكان فتح مكة ـ الذي سبق بيانه ـ[3]، من المبحث الأول ـ هو الفتح الأعظم ـ كما عبر عنه ابن القيم ـ الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، والفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا[4].

ولعل من أبرز مظاهر التحول بعد فتح مكة أن نال المسلمون شرف حماية البيت العتيق وخدمته، مما جعل لهم من المكانة عند العرب نظير ما كان لقريش من قبل، بل وأعظم.

* * *

(١) سورة الفتح، آية رقم (٢٧).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢٠٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٨٢.

(٣) وانظر أيضًا في نهاية هذا المبحث عن فتح مكة (بعض ملامح التحولات الاجتماعية في المجتمع المكي بعد الفتح).

(٤) ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩.

المبحث الرابع

إسلام أهل مكة وما حولها؛ وتطهير مكة والمشاعر المقدسة وشعيرة الحج من الشرك والمشركين (التحول الديني)

توالت ثمار التحول الديني عندما أوجد صُلح الحديبية البيئة الصالحة للمسلمين وللمشركين، أن يختلط بعضهم ببعض، فتأثر كثير من عقلاء المشركين بعظمة الإسلام وتعرفوا على حقيقته وذلك أنهم قبل الصلح، لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تظهر عندهم أمور النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما هي، ولا يحلُّون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاؤوا إلى المدينة وذهب المسلمون إلى مكة، وحلُّوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفصلة بجزئياتها ومعجزاته الظاهرة.. وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرا من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم، وكان من الزعماء والقادة الذين تأثروا بالإسلام، واستجابوا له في تلك الفترة: خالد

بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم[1].

* هدم الأصنام وتطهير مكة من الوثنية:

فحين دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد الحرام، أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحوله البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[3]؛ والأصنام تتساقط على وجوهها[4].. وأمر بـ (هُبل) أعظم هذه الأصنام، فكسر وهو واقف عليه، وأبو سفيان يشهد بعينه نهاية (هُبل) الذي وقف يوم (أُحد) يخاطبه ويقول: اعلُ هبل؛ فكان الله أعلى وأجل، ولهذا ذكَّره الزبير بذلك، فقال: يا أبا سفيان، قد كسر (هُبل)، فإنك كنت منه في يوم (أُحد) في غرور، ولما أكمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص١٢٤ ـ ١٣٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٣٦ ـ ٤٣٩.

(٢) سورة الإسراء، آية، رقم (٨١).

(٣) سورة سبأ، آية رقم (٤٩).

(٤) صحيح البخاري: كتاب المظالم، باب هل تُكسر الدنان التي فيها خمر، أو تُخرقُ الزِّقاق؟، حديث رقم (٢٤٧٨)؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، حديث رقم (١٧٨١)، النووي: المنهاج، ج١٢، ص١١٦.

الطواف، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت فدخلها، فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط»؛ أي: ما استقسما بها قط، ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم أمر بالصور فمحيت، ثم أغلق عليه الباب، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع محمد النبي المصطفى. فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2].

---

(١) سورة الحجرات، آية رقم (١٣).

(٢) ابن عبد البر: الدرر، ص٢٣٤؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٥٣ ـ ٥٥٦؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب

وأقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بضعة عشر يومـًا ينظم شؤونها ويفقه أهلها في الدين وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء، فبعث خالد بن الوليد إلى العزى وكانت بنخلة[١]، وكانت بيتًا يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها؛ وكانت سدنتها من بني شيبان، من بني سُليم حلفاء بني هاشم[٢]. كما أمر عليه الصلاة والسلام بهدم سواع؛ وكان برهاط[٣] لهذيل، وكان حجراً؛ وكان الذي هدمه عمرو بن العاص. وفيها هدم مناة بالمشلل[٤]،

أين ركز النبي الراية يوم الفتح؟، رقم الحديث (٤٢٨٧) و(٤٢٨٨).

(١) نخلة الشامية، ويقول ياقوت: هي ونخلة اليمانية واديان لهذيل على ليلتين من مكة، يجتمعان ببطن مر وسبوحة، ج٥، ص٢٧٧. ويقع الواديان (اليمانية والشامية) شرق مكة [الباحث].

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٦٠.

(٣) رُهاط: بضم أوله، موضع على ثلاث ليال بمكة، وقال قوم: وادي رهاط في بلاد هذيل ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٠٧؛ ويقول البلادي: رهاط: صدر وادي غُران، وسكان رهاط اليوم الروقة من عتيبة، في أعلاه، ومعبد من حرب في أسفله. معجم معالم الحجاز، ج٤، ص٧٣٥. ويقع هذا الوادي شمال شرقي مكة المكرمة [الباحث].

(٤) المُشلل: بالضم ثم الفتح، وهو جبل يهبط منه إلى قُديد. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٣٦؛ ويقول البلادي: وتعرف حرة المشلل اليوم بالقُديدية، نسبة وادي قديد، تهبط جنوبـًا على خيمتي أم معبد. معجم معالم الحجاز، ج٨، ص١٦٠٥. =

هدمه سعد بن زيد الأشهلي، وكان للأوس والخزرج[(١)]، ونادى مناديه بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره»[(٢)].

* عفو نبوي أدى إلى تحول جوهري (تحول قريش إلى الإسلام):

كان من أثر عفو الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أَهدر دماءَهم بعد فتح مكة، أن دخل أهلُ مكة رجالاً ونساءً وأحرارًا وموالي في الإسلام طواعيةً واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في الإسلام أفواجاً، وبايع الرسولُ الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار والصغار[(٣)].

كما أسلم سهيل بن عمرو الذي كاتَبَ الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم يوم صلح الحديبية، فكان سهيل يُقبل ويُدبر، وخرج إلى حُنين وهو

= ويقع الوادي شمال مكة المكرمة بـ ١٥٠٠ كم تقريباً، ويقع جنوب المدينة المنورة بـ ٢٥٠ كم تقريباً [الباحث].

(١) الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص١٦٣؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٥٠ ـ ٥٧٥؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٦.

(٢) البداية والنهاية: ج٤، ص٥٧٧.

(٣) الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص١٦١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧١.

على شركه حتى أسلم بالجعرانة، وأسلم عكرمة بن أبي جهل المخزومي القرشي[1]. ولعل كل ذلك ينفي مقولة أن الإسلام انتشر بحد السيف، فها هم صناديد الكفر يدخلون الإسلام طواعية دون إكراه واستثماراً للعفو النبوي الكريم.

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي الكناني قتل الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال الرسول محمد: «أفضالة؟»، قال: «نعم، فضالة يا رسول الله»، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟»، قال: «لا شيء، كنت أذكر الله»، قال: فضحك النبي ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه»، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: «هلم إلى الحديث»، فقلت: «لا»، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا
يأبى عليك اللهُ والإسلامُ
لو ما رأيت محمدًا وقبيله
بالفتح يوم تُكَسَّر الأصنامُ

---

(١) ابن عبد البر: الدرر، ص٢٣١ ـ ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧١.

لــــــر أيت ديــــن الله أضــــحى بيّنــــاً

والشـــرك يَغشـــى وجهَــه الإظـــلامُ[1]

ولما فتحت مكة فر عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي (شاعرُ قريش) إلى نجران، فقال الصحابي حسان بن ثابت يعيره بالجبن والفرار:

لا تعــــدمنْ رجــــلاً أحلــــك بغضــــه

نجــــران مــــن عــــيش أحــــذَّ لئــــيم

فلما جاء ابنَ الزبعري شِعْرُ حسان تهيأ للخروج، فقال هبيرة بن أبي وهب: «أين تريد يا ابن عم؟»، قال: «أردت والله محمداً»، قال: «أتريد أن تتبعه»، قال: «إي والله»، قال: يقول هبيرة: «يا ليت أني كنت رافقت غيرك والله، ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً»، قال ابن الزبعرى: «هو ذاك، فعلى أي شيء أقيم مع بني الحارث بن كعب، وأترك ابن عمي وخير الناس وأبرهم ومع قومي وداري؟»، ثم توجه إلى مكة وقصد الرسول محمداً، حتى جاء الرسول وهو جالس وأصحابه، فلما نظر الرسول إليه قال: «هذا ابن الزبعري ومعه وجه فيه نور الإسلام»، فلما وقف على الرسولِ قال: «السلام عليكم أي رسول الله، شهدت أن لا الله إلا الله، وأنك عبده ورسوله،

(١) السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص٢٤٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧١.

والحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد عاديتك، وأجلبت عليك، وركبت الفرس والبعير، ومشيت في عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران وأنا أريد ألا أقرب الإسلام أبداً، ثم أرادني الله منه بخير فألقاه في قلبي وحببه إلي، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة، واتباع ما لا ينفع ذا عقل من حجر يُعبد ويُذبح له، لا يدري من عبده ومن لا يعبده»، فقال له الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله الذي هداك للإسلام، إن الإسلام يجب ما كان قبله»، فأسلم ومدح الرسولَ فأمر له بحلة(١).

وحين خرج سيد قبيلة خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي يستنصر النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على قريش وبني الديل، أنشده الأبيات المشهورة ثم قال له: «يا رسول الله، إن أنس بن زنيم هجاك»، فأهدر النبي محمدٌ دمه، فبلغ ذلك أنس، فلما كان يوم الفتح أقبل على الرسولِ معتذراً، وقام سيد بني الدئل بن بكر نوفلُ بن معاوية الديلي الكناني فقال: «يا رسول الله، أنت أولى بالعفو، ومن منا لم يؤذك ولم يعادك؟ وكنا في الجاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة»، فقال الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم: «قد عفوت عنه»، فقال: «فداك أبي

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٥ ـ ٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٦٥ ـ ٥٦٨.

وأمي»، فجاء أنس بن زنيم[1] إلى النبي محمد وقال له:

أَأَنـــت الـــذي تُهـــدَى مَعَـــدٌّ بـــأَمرِه

بَـــل اللهُ يهـــديهم وقـــال لَـــكَ اشْـــهَدِ

فمـــا حَمَلَـــتْ مِـــن ناقـــةٍ فـــوق رحْلِهـــا

أَبَـــرَّ وَأَوْفَـــى ذِمَّـــةً مـــن محمـــدِ

وفي بيت أنس:

فمـــا حَمَلَـــتْ مِـــن ناقـــةٍ فـــوق رحْلِهـــا

أَبَـــرَّ وَأَوْفَـــى ذِمَّـــةً مـــن محمـــدِ[2]

أورد ابن حجر: قول دعبل بن علي في طبقات الشعراء: هذا أصدق بيت قالته العرب[3].

ومن قصة إسلام أنس وشفيعه عند رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) أنس بن زنيم الكناني، أسلم يوم الفتح، وأتى رسول الله ﷺ، يعتذر إليه مما بلغه، قال رسول الله ﷺ: «قد عفوتُ عنه». ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص١٥١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٥ ـ ٥٢، الطبري: الأمم والملوك، ج٢، ص١٦٠ ـ ١٦٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٦٥ ـ ٥٦٨.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص١٢٣.

وسلم نوفل بن معاوية ندرك أثر الفتح في تحول الناس إلى الدين وتحول مواقفهم من العداء إلى المتابعة والنصرة.

وقد ترتب على العفو النبوي حفظ الأنفس من القتل والسبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم رب البيت عز وجل[1].

*** بعض مظاهر التحولات الاجتماعية في المجتمع المكي بعد الفتح:**

ـ بلالٌ يعلو سطح الكعبة ويؤذن في الناس:

ورُوي أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دخل الكعبة في بعض أيام الفتح ومعه بلال، وحان وقت صلاة الظهر، فأمر بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن، فأذَّن للصَّلاة، وكان بفناء الكعبة من قريش: «أبو سفيان بن حرب، وعتَّاب بن أَسِيد، والحارث بن هشام». فقال عتَّاب بن أَسيد: «لقد أكرم الله أَسيدًا (أي: أباه) ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه». كبر جاهلي عن أن يؤذن حبشي على الكعبة. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنَّه مُحِقٌّ لاتَّبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلَّمت لأخبرت عني هذه الحصى. فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «قد علِمْتُ الذي قلتُمْ»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنَّك رسول الله،

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٨٢ ـ ٤٨٦.

والله ما اطَّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك[1]، من ذلك يتبين مدى التحول الذي أحدثه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في العقلية القرشية المشركة التي تأنف أن يصعد عبدٌ على ظهر الكعبة، وكيف حوله الإسلام والسابقية فيه إلى منزلة رفيعة.

ـ والمرأة تُجير على الرجال:

قالت «أم هانئ[2] ابنة أبي طالب» أخت علي رضي الله عنهما: لما

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٥٧.

(٢) أمّ هانئ: بنت أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ. واسمها فَاخِتة. وكان هشام بن الكلبي يقول: اسمها هند. وفاختة عندنا أكثر، وأمّها فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ. عن ابن عبّاس قال: خطب النبيّ ﷺ، إلى أبي طالب ابنته أمّ هانئ في الجاهليّة، وخطبها هُبيرة بن أَبِي وَهْب بن عمرو بن عَائِذ بن عِمران بن مخزوم، فتزوّجها هُبيرة فقال النبيّ صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «يا عمّ زوّجتَ هبيرة وتركتني؟» فقال: يا ابن أخي إنّا قد صاهرنا إليهم، والكريم يُكَافِئُ الكريم. ثمّ أسلمت ففرّق الإسلام بينها وبين هُبيرة، فخطبها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، إلى نفسها فقالت: والله إن كنت لأحبّك في الجاهليّة، فكيف في الإسلام؟ ولكنّي امرأة مُصْبِية وأكره أن يؤذوك. فقال رسول الله: «خير نساء ركبن المطايا نساء قريش، أَحْنَاه على وَلَدٍ في صغره وأَرْعاه على زوج في ذات يده». ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١٠، ص١٤٦؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٩٤٣.

نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى مكة، فرَّ إليَّ رجلانِ من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي. فدخل عليَّ عليٌّ بن أبي طالب أخي، فقال: «والله لأقتلنَّهُما». فأغلقت عليْهِما باب بيتي، ثم جئتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إنَّ فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشَّح به، ثُمَّ صلَّى ثَمانيَ ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي، فقال: «مرحبًا وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي، فقال: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما». قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام[1]، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة[2]، وذلك مثال حي على التحول الاجتماعي الذي

---

(١) الحارث بن هشام بن المغيرة القرشيّ المخزوميّ: وهو أخو أبي جهل لأبويه، قال الحارث بن هشام: وجعلت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ، وأذكر رؤيته إياي في كل موطن مُوضِعًا مع المشركين، ثم أذكر بره ورحمته وصلته، فألقاه وهو داخل المسجد، فتلقاني بالبِشْر ووقف حتى جئته، فسلّمت عليه وشهدت شهادة الحق، فقال: «الحمدُ لله الذي هَدَاك، ما كان مِثْلُك يجهلُ الإسلام!» قال الحارث بن هشام: فو الله ما رأيت مثل الإسلام جُهِلَ. فشهد الحارث بن هشام فِحْل وأجنادين ومات بالشام في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص٨٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٧٥؛ صحيح البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن، حديث =

أحدثه الإسلام، أن يمنح المرأة حق الإجارة؛ تكريماً وإعزازاً لها، خلاف ما كانت عليه في الجاهلية من امتهان.

*** ومن مظاهر التحول: فتًا يتحول من مستهزئٍ بالأذان إلى مؤذنٍ في المسجد الحرام:**

إنه أبو محذورة الجمحي[(1)]، فإنه لما سمع الأذان وهو مع فتية من قريش خارج مكة أقبلوا يستهزئون ويحكون صوت المؤذن غيظا، فكان أبو محذورة من أحسنهم صوتًا، فرفع صوته مستهزئًا بالأذان فسمعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول فمسح

= رقم (٣١٧١)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٣٩٧؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، حديث رقم (٣٣٦)، النووي: المنهاج، ج٥، ص٢٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٥٢.

(١) أبو محذورة الجمحي: واسمه سلمة بن معير وقيل سمرة، وقيل أوس بن معير بن لوذان بن ربيعة بن سعد بن جمح، وقيل: اسمه سمير بن عمير بن لوذان بن وهب ابن سعد بن جمح، وأمه خزاعية، مؤذن المسجد الحرام وصاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حدث عنه ابنه عبد الملك وزوجته والأسود بن يزيد وعبد الله بن محيريز وابن أبي مليكة وآخرون، قال الواقدي: كان أبو محذورة يؤذن بمكة إلى أن توفي سنة تسع وخمسين فبقي الأذان في ولده وولد ولده إلى اليوم بمكة [أي إلى زمن الواقدي]. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٨٣.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناصيته وصدره بيده قال فامتلأ قلبي والله إيمانا ويقينا وعلمت أنه رسول الله فألقى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأذان وعلمه إياه وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وهو ابن ست عشرة سنة فكان مؤذنهم حتى مات ثم عقبه بعده يتوارثون الأذان كابراً عن كابر[1].

وخلال إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد فتحها أمر تميم بن أسيد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم[2].

قال ابن كثير: كانت العرب تلوَّم[3] بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم[4].

وهكذا أدى فتح مكة إلى تحول موقف العرب ودخولهم في دين الله أفواجًا دون قتال ـ عدا ما كان في حنين والطائف ـ حين علموا حقيقة دين الإسلام وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) السهيلي: الروض الآنف: ج٧، ص٢٣٩.

(٢) سيأتي الحديث عنها في المبحث التالي.

(٣) التلوم: الانتظار والتمكث. الرازي: مختار الصحاح، ص٢٥٤.

(٤) البداية والنهاية: ج٤، ص٥٨٢.

ـ ثمار التحول الكبير:

استمرت فترة الإعداد للجيل النبوي المبارك ثلاثة وعشرون عامـًا حتى الوفاة؛ وقد خرج معه ألف وأربعمائة من الصحابة رضي الله عنهم في صلح الحديبية، ثم فتح خيبر، وبعد صلح الحديبية وفي أقل من سنتين وصل عدد المسلمين المشاركين إلى عشرة آلاف، وفي فتح مكة البلد الحرام؛ يتبين من ذلك كيف حول المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم الذخائر البشرية المكية وغيرها من باقي بلاد العرب إلى طاقات إيمانية قيادية، فغرس فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، فما لبث العالم أن رأى من أهل مكة وباقي ديار العرب نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويبني دولة إسلامية قوية، وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان، يصبح سيفًا ربانيـًا لا يقوم له شيء إلا حصده، ويترك ذكراً خالداً في التاريخ، فأصبح قائداً عسكريـًا ذا ملكات ومهارات قيادية إستراتيجية فائقة في المعارك تُدرس في أعظم كليات الجيوش العسكرية الحديثة، وهذا أبو عبيدة كان موصوفـًا بالصلاح والأمانة والرفق، ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل «قيصر الروم» من ربوع الشام ومروجها الخضراء، وهذا عمرو بن العاص، وأرطبون العرب، كان يُعد من عقلاء قريش، وترسله في سفارتها إلى

الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً، إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة، وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وفارس، وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد، وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول: لو كان حياً لاستخلفته، وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبي بكر وعمر، وهذا علي بن أبي طالب الشجاع الفقيه الملهم حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، وعائشة الصديقة بنت الصديق، أم المؤمنين، حبيبة سيد المرسلين، والفقيهة العالمة، وعبد الله بن مسعود الصحابي الجليل وفقيه الأمة وأول من جهر بالقرآن، وعبد الله بن عباس ابن عم رسول الله، وحبر هذه الأمة، العلامة الجهبذ، وغيرهم من الأصحاب الأبرار؛ قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم من علماء العالم، يتدفق العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبرّ الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً(١).

---

(١) انظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٨٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٧٤ ـ ٥٧٨؛ وانظر: الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٨ ـ ١١٠.

فأينعت ثمار التحول بعد فتح مكة، فأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع نهراً من رجال الإسلام ـ مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفا منهم ـ يتدفق حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء. حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصحّت العقول العليلة، حتى تركت الأصنام؛ بل كسرت، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالاً وجنوبًا، يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله[١].

* مظاهر التحولات في حجة الوداع[٢]:

كانت حجة الوداع سنة (١٠هـ)، مظهراً عظيمًا من مظاهر التحول الديني والفكري والسياسي، كما وضحته خُطب وأقوال النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وتوجيهاته لأمة الإسلام.

---

(١) المباركفوري: الرحيق المحتوم، ص٣٨٠.

(٢) لارتباط فريضة الحج ببناء الكعبة المشرفة؛ الأمر الذي يدفعنا للإشارة إلى =

= الارتباط الإلهي بين مكة والقدس زمن أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام، القادم من القدس أو أرض فلسطين إلى وادٍ غير ذي زرع (مكة المكرمة ـ البلد الحرام) حيث بنى بها بيت الله الحرام وكعبته المشرفة، حجراً حجراً، يرافقه ويعينه ابنه إسماعيل عليه السلام، الذي أصبح بتقدير الله من أهل مكة بل له ولأمه حق الولاية على الماء الذي تفجر بين قدميه، حيث تفجرت زمزم «الماء المبارك»، وبعد إتمام البناء، نادى إبراهيم عليه السلام في الناس بالحج، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[الحج: ٢٧]. فالحج هو إعادة للسيرة الإبراهيمية؛ فالحاج متبع للمناسك الإبراهيمية على مدى الأعوام والدهور حتى كانت حجة الوداع بقيادة النبي المصطفى وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان الحج الركن الخامس في الإسلام، وأُديت مناسك الحج على أسسها الإبراهيمية. وكان الله قد جعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الهداية حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة ١٢٤]، فيقول ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، وجعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه، وأن الله تعالى قد اختاره لعمل دائم لكي يصل علم النبوة إلى الآخرين بدون انقطاع، فظهر عدد كبير من الأنبياء في هذا الفرع ابتداء من إسحاق إلى المسيح عليهما السلام، وقد قام هؤلاء بإبلاغ الرسالة في فلسطين وما يليها من المناطق بصورة =

فمن تفاصيل حديث حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله؛ يتضح أن من أبرز المظاهر والشعائر في حجته صلى الله عليه وآله وسلم تعمد مخالفة المشركين في مناسكهم، وإقامة التوحيد الخالص لله وحده، ووقع ذلك منه عليه الصلاة والسلام في فعلا مواطن عدة؛ وصدع به قولا في خطبة عرفة فقال عليه الصلاة

= غير منقطعة، ثم انتقلت هذه الإمامة الدينية إلى الفرع الإسماعيلي من أولاد إبراهيم بعد المسيح عليه السلام، فظهر فيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هيّأ الله له غلبة خاصة للحفاظ على الوحي الإلهي، وتبليغه، وإظهار الدين: (ليُظهِره على الدينِ كلِّه). تفسير ابن كثير، ج١، ص١٦٥. فبعد أن كانت فلسطين و(القدس) مركز الهداية الإلهية في أول الأمر، وولد بها كل أنبياء ذلك العصر فكان كل الأنبياء من بعد إبراهيم عليه السلام يتوجهون شطر البيت المقدس للصلاة، ومع ظهور الدعوة المحمدية نُسِخت القبلة القديمة وجُعِلت الكعبة قبلةً للعابدين في كل أنحاء العالم، فكانت مهمة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يُظهِر الدين ـ دعوة التوحيد ـ. إنه الارتباط الإلهي الرباني بين مكة والقدس كما بينته وشرحته مصادر تاريخ مكة المكرمة، كالأزرقي في المجلد الأول، ص٩٧ ـ ١٥٠، والفاكهي: الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة، في المجلد الخامس، الملحق الأول، ص١٢٠ ـ ١٣٦.

والسلام: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله»(١)

فعن جعفر بن محمد(٢)، عن أبيه، قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال بيده فعقد تسعًا، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكث تسع سنين، لم يحج، ثم أذَّن في الناس في العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩.

(٢) جعفر بن محمد (الصادق) ابن علي بن الشهيد أبي عبد الله، ريحانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الإمام الصادق شيخ بني هاشم أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، العلوي، النبوي، المدني، أحد الأعلام. وأمه هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي، وأمها هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين. وكان يغضب من الرافضة، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر ظاهراً وباطناً. هذا لا ريب فيه، ولد سنة ثمانين ورأى بعض الصحابة، وليس هو بالمكثر إلا عن أبيه. وكان من جلة علماء المدينة. مات جعفر الصادق في سنة ثمان وأربعين ومائة وقد مر أن مولده سنة ثمانين أرخه الجعابي وأبو بكر بن منجويه، وأبو القاسم اللالكائي فيكون عمره ثمانياً وستين سنة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء: الطبقة الخامسة من التابعين، ترجمة رقم (٩٤٨)، ج٦، ص٤٣٨.

وآله وسلم حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويعمل مثل عمله... إلى بقية الحديث[1].

من تفاصيل هذا الحديث العظيم وغيره يتضح أن من أبرز المظاهر والشعائر في حجته صلى الله عليه وآله وسلم تعمد مخالفة المشركين في هديهم وعباداتهم وحجهم، ووقع ذلك منه عليه الصلاة والسلام في فعلا مواطن عدة؛ وصدع به قولا في خطبة عرفة فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله»[2].

ومن مظاهر التحول في شعائر الحج إبطال النبي صلى الله عليه وآله وسلم التلبية الشركية التي كانت شعار أهل الجاهلية؛ وأبدلها بالتوحيد الخالص لله تعالى؛ كما روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩، وأورده البغوي: الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، مشكاة الأنوار في فضائل النبي المختار، دراسة وتحقيق: غالب محمد هوايش حامضي، ماجستير، ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى.

(٢) رواه مسلم [سبق ذكره].

وآله وسلم: ويلكم قدٍ، قدٍ ـ أي: يكفيكم هذا عن باقي تلبيتكم ـ فيقولون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت، فأبطل تلبيتهم تلك بالتلبية الشرعية المعروفة، وأعاد الحج على أصوله التي أذن بها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام؛ كما روى أبو داود من حديث عمرو بن عبد الله بن صفوان عن يزيد ابن شيبان قال: أتانا ابن مربع الأنصاري(١) ونحن بعرفة في مكان يباعده عمرو عن الإمام فقال: أما إني رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليكم، يقول لكم: قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم»(٢).

وذكر صلى الله عليه وآله وسلم تتابع الأنبياء عليهم السلام لإحياء الشعائر العظيمة في المشاعر المقدسة فذكر موسى وعيسى ويونس؛ كما

---

(١) عبد اللهِ بنُ مِرْبَع: بن قَيظي بن عَمرو بن زَيْد بن جُشَم بن حارثة، وأمه عُميرة بنت ظُهير بن رافع بن عَدي بن زَيد بن جُشَم بن حارثة، شهد أُحدًا والخندقَ والمشاهدَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عبد الرحمن بن بُجَيد الحارثي من الأنصار: سمعتُ عبد الله بن مِربَع يقول: أنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومَ عَرَفَة، وقُتِل عبد الله بن مِرْبع يوم جسر أبي عُبَيد شهيدًا في خلافة عمر بن الخطاب ولاَ عَقِبَ له. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٤، ص٢٧٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، حديث رقم (١١٨٥)، النووي: المنهاج، ج٨، ص٨١.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بوادي الأزرق ـ ويبعد عن مكة بميلين ـ فقال: «أي واد هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق[1]، قال: كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثنية هرشى[2] فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هرشى، قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف خطام ناقته خَلْبَة وهو يلبي»[3]، وفي حج عيسى عليه السلام قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده

---

(١) وادي الأزرق: الوارد في الحديث، يحدده البلادي، بقوله: الأزرق يعرف اليوم بالنّغر، جنوب الدف غير بعيد بينه وبين عسفان، فيه ماء وزراعة عثرية. انظر: معجم معالم الحجاز، ج١، ص٩٢.

(٢) قال ياقوت: هرشى بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، والقصر، يقال: رجل هرش وهو الجافي المائق، وهارشت بين الكلاب معروف: وهي ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان فكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد. معجم البلدان: ج٥، مادة الهاء، ص٣٩٧، وقال البلادي: لا زالت هرشى معروفة تأتي الأبواء من الجنوب بينها وبين رابغ، وفي شمال هرشى مسجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٨٣٠.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء، حديث رقم ١٦٦، النووي: المنهاج، ج٢، ص١٩٧، وفي شرح النووي: الجعدة: المكتنزة اللحم، والخُلب: الليف.

ليهلن ابن مريم بفج الروحاء[١] حاجًا أو معتمراً أو ليثنينهما»[٢].

ولقد أبطل النبي صلى الله عليه وآله وسلم دين المشركين في الحج؛ وأعاد مناسكه على مقتضى أذان إبراهيم عليه السلام، وسنن الأنبياء بعده، وظهر ذلك في مواطن عدة؛ ففي العمرة كان المشركون يحرِّمون العمرة في أشهر الحج، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم اعتمر أربع مرات كلهن في ذي القعدة وهو من أشهر الحج، بل في حجته صلى الله عليه وآله وسلم أمر الناس أن يحولوا نسكهم إلى عمرة، ثم يحرمون بالحج بعد ذلك؛ كما

---

(١) الروحاء: الروح والراحة من الاستراحة ويوم روح أي: طيب، وأظنه قبل للبقعة روحاء أي: طيبة ذات راحة وقدر روحاء في صدرها انبساط وقصعة روحاء قريبة القعر. قال ابن الكلبي: لما رجع تبع من قتال أهل المدينة يريد مكة نزل بالروحاء فأقام بها وأراح فسماها الروحاء. وسئل كثير: لم سميت الروحاء روحاء؟ فقال: لانفتاحها ورواحها، وهي من عمل الفرع على نحو من أربعين يومًا. وفي كتاب مسلم بن الحجاج على ستة وثلاثين يومًا، وفي كتاب ابن أبي شيبة على ثلاثين ميلا». ياقوت: معجم البلدان: ج٣، ص٧٦. ويضيف البلادي: بأنها قرية صغيرة على بعد (٧٣) كيلاً من المدينة على طريق مكة، يشرف عليها من الشرق جبل ورقان، وكانت محطة للجمال حتى ظهور السيارات. معجم معالم الحجاز، ج٤، ص٧١٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب إهلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهديه، حديث رقم ١٢٥٢، النووي: المنهاج، ج٨، ص٢٠٥.

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صفر، ويقولون: إذا برأ الدبر وعفا الأثر[1] وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر. فقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم «فقالوا: يا رسول الله أي الحل؟ قال الحل كله»[2]. ولما حاضت عائشة رضي الله عنها في حجة الوداع فجعلت نسكها حجاً، وقالت: «يا رسول الله، كل أصحابك يرجع بحج وعمرة غيري»[3] أمرها بالعمرة بعد حجها، وكان ذلك عظيما في دين

---

(١) الجرح الذي يحصل في ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب، فإنها كانت تدبر بالسير عليها للحج. وعفا الأثر: أي درس وامحى، والمراد أثر الإبل وغيرهما في سيرها، عفا أثرها لطول مرور الأيام. وقال الخطابي: المراد أثر الدبر. وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الأخر ويوقف عليها، لأن مرادهم السجع. شرح النووي لصحيح مسلم. كتاب الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج، حديث رقم ١٢٤٠، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٩٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج، حديث رقم ١٢٤٠، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٩٨.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب كيف تهل الحائض والنفساء؟، حديث رقم ١٥٥٦، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٦٥٥؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام..، حديث رقم ١٢١١، النووي: المنهاج، ج٨، ص١١٩.

المشركين، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: (والله ما أعمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك فإن هذا الحي من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون إذا عفا الوبر وبرأ الدبر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر، فكانوا يحرِّمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة والمحرم)[1].

وفي الطواف كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس، والحمس: قريش وما ولدت، سموا بذلك لما شددوا على أنفسهم، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لا يأكلون لحماً، ولا يضربون وبراً ولا شعراً، وإذا قدموا مكة وضعوا ثيابهم التي كانت عليهم، وكان الناس غيرهم يطوفون بالبيت عراة إلا أن يعطيهم أحد من قريش ثيابا، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء، فأبطل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك[2].

وفي الوقوف بعرفة كانت الحُمْس لا يخرجون من المزدلفة، وكان

---

(١) سنن أبي داود: كتاب المناسك، باب العمرة، حديث رقم (١٩٨٧)، الكتب الستة: ج١، ص١٤٩٦.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب في الوقوف، قوله تعالى: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)، حديث رقم (١٢١٩)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٧٤؛ وانظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الساقي، ج١، ص٣٥٩.

الناس كلهم يبلغون عرفات... فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾(١). عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾(٢). وسبب فعلهم هذا: أن الشيطان قد استهواهم فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم، استخف الناس بحرمكم فكانوا لا يخرجون من الحرم، ويقولون: نحن أهل الله لا نخرج من الحرم، وكان سائر الناس يقف بعرفة، وخالفهم صلى الله عليه وآله وسلم في النفرة من عرفة، وفي الدفع من مزدلفة؛ إذ كانوا ينفرون من عرفة قبل الغروب، ويدفعون من مزدلفة بعد الشروق؛ فنفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عرفة بعد الغروب، ودفع من مزدلفة قبيل الشروق، وروى عمرو بن ميمون رضي الله عنه فقال: (شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح ثم وقف فقال: إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون:

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٩٩).

(٢) سورة البقرة: آية رقم (١٩٩)؛ صحيح مسلم: كتاب الحج، باب في الوقوف، قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾، حديث رقم (١٢١٩)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٧٣.

أشرق ثبير[(١)]، وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس)[(٢)].

وكان من حرصه صلى الله عليه وآله وسلم في مخالفة المشركين ومراغمتهم، وإبطال دينهم، أنه كان يقصد الأماكن التي تواصوا فيها على الشرك ومحاربة الدعوة، ويقيم فيها معالم التوحيد، ويشكر الله تعالى على ما من به عليه من ظهور دينه، وإعلاء كلمته، ودحر الكفر وأهله[(٣)].

ويصعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصفا في حجته حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[(٤)].

---

(١) ثبير: جبل بمكة على يسار الذاهب إلى منى، كما عرفه ابن حجر في شرح الحديث، ج٣، ص٨٣٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب متى يدفع من جمع، حديث رقم (١٦٨٤)، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٨٣٠.

(٣) الراوندي: محمد، حجة الوداع ومكانتها في السنة النبوية، ندوة الحج الكبرى، حجة الوادع شعائر وقيم، (٢ ـ ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ)، وزارة الحج، المجلد الأول، ص٣٢ ـ ٣٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم ١٢١٨، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩.

ونزل في حجته في المكان الذي تقاسم فيه المشركون وتعاهدوا على مقاطعة قرابة النبي ﷺ إذا لم يسلموه للمشركين؛ كما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الغد يوم النحر وهو بمنى: «نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر... وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

قال ابن حجر: قيل: إنما أختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم النزول في ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه، فيشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم، وتمكنهم من دخول مكة ظاهراً على رغم أنف من سعى في إخراجه منها، ومبالغة في الصفح عن الذين أساءوا، ومقابلتهم بالمن والإحسان، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[2].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب نزول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة، حديث رقم (١٥٩٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٧١٣؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب النزول بالمحصب، حديث رقم ١٣١٤، النووي: المنهاج، ج٩، ص٥٥.

(٢) فتح الباري: ج٧، ص٢٨٧.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول الأمر يحب موافقة أهل الكتاب، لما معهم من الكتاب، ويقصد مخالفة المشركين؛ لأنهم عباد أوثان؛ فأهل الكتاب أقرب إليهم منهم، ولذا كانوا يفرحون بانتصار الروم على فارس، وكان المشركون يفرحون بانتصار فارس على الروم؛ لأنهم أهل وثنية مثلهم، فلما كملت أحكام الإسلام، واستقرت شرائعه؛ قصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخالفة عموم الكفار، وحذر من توليهم، ومن التشبه بهم، سواءً كانوا أهل كتاب أم عباد أوثان[2].

والمعنى أن المخالفة كانت مرتبطة بغاية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يغير ما يمس عقيدة التوحيد، أو يخالف المناسك الإبراهيمية؛ ذلك أن الإسلام لم يغير من مناسك العرب في الحج إلا أشياء قليلة. فإن «أعمال الحج ومناسكه مما رسمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإذن ربه تعالى، واستمر عليه العرب في أطوارهم كلها إلى أن دخل فيهم الإشراك، فحرفوا الحنيفية، ومع ذلك لم يدخلوا في مناسك الحج شيئا من عبادة الأصنام إلا

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (٣٢ ـ ٣٣).

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٣٦٠ ـ ٣٩٠؛ الزيد: فقه السيرة، ص٦٥٢ ـ ٦٥٥.

وضعهم طائفة من الأصنام في المسجد الحرام». وإلى هذا الإرث الإبراهيمي أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم»[1].

فإذا لم يكن ثم مساس بعقيدة التوحيد ولا بالمناسك الإبراهيمية فإنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يراعي قلوب قريش والعرب. فمن ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمسك عن إنفاق كنز الكعبة، وأمسك عن جعل بابها بالأرض، وترك بناءها على قواعد إبراهيم عليه السلام، لأن قريشاً كانت حديثة عهد بكفر. وأيضاً فإنه وجد الإشعار والتقليد من عادة الجاهلية، يفعلونه «ليعلم أنه هدي خارج عن ملك المهدي فلا يتعرض له السراق وأصحاب الغارات» فرأى «في ذلك معنى صحيحا فأقره»[2].

قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، حديث رقم (١١٨٥)، النووي: المنهاج، ج٨، ص٨١؛ ورواه أبو داود في سننه برقم (١٩١٩)؛ والترمذي في سننه، برقم (٨٨٣)، وصححه الألباني برقم (٤٣٩٤) في صحيح الجامع.

(٢) الروسي: محمد الحافظ، مظاهر تعظيم شعائر الله تعالى من خلال حجة الوداع، ندوة الحج الكبرى، حجة الوداع شعائر وقيم، (٢ـ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ)، وزارة الحج، المجلد الأول، ص٧٠ـ٧٥.

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(١) عن أبي بكرة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجته، فقال: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة [حرم، ثلاثة] متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. إن المراد بقوله: قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، أنه اتفق أن حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة)(٢).

فلما جاء الله تعالى بالإسلام أبطل ذلك وحرم العمل به، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ

(١) سورة التوبة، آية رقم (٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٣٥٤؛ صحيح البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٧٤١)، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٨٩٣؛ صحيح مسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩)، النووي: المنهاج، ج١١، ص١٤٩، متفق عليه؛ ورواه أبوداود في سننه برقم (١٩٤٧)، الكتب الستة، ج١، ص١٤٩٤.

(٣) سورة التوبة، آية رقم (٣٧).

عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[(١)].

فسنة العرب اليوم اثنا عشر شهرًا قمرية دائرة في الأزمنة الأربعة. والنسيء الذي يُذكر: هو كبس صحيح، وليس مجرد تقديم شهر وتأخير آخر على نحو ما رأيت. غايته تثبيت الأزمنة، وجعل الحج في موسم ثابت معين، فلا يكون في شتاء مرة، وفي صيف مرة أخرى، وفي ربيع مرة، وفي خريف مرة أخرى، بجعل السنة سنة قمرية شمسية على نحو فعل يهود بسنتهم[(٢)].

وقد ارتضى الله تعالى التقويم القمري لنظام العبادات؛ وبينته السنة النبوية، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين»[(٣)].

وكان نظام الحج الذي وضعه إبراهيم عليه السلام قائمًا على التقويم القمري مراعاة لهذه المصالح، ولكن قريش مكة، الذين كانوا يتولون رعاية

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (٣٦).

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٦، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا نكتب ولا نحسب، حديث رقم (١٩١٣)، ابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص١٩٤.

شئون الكعبة، أرادوا أن يحددوا أيام الحج وفق التقويم الشمسي لكي تقع أيامه في موسم واحد دائمًا، الأمر الذي كان مفيدا لتجارتهم.. واستعارت قريش لهذا الغرض مبدأ النسيء أو الكبيسة من الشعوب الأخرى وأجرتها فيما يتعلق بالحج. وهكذا استمرت قريش تقيم الحج لمدة (٣٣) سنة متواصلة في غير أيامه الأصلية. وكان الحج سيقع في تاريخه الإبراهيمي الأصلي ـ أي في ذي الحجة ـ مرة أخرى في العام الرابع والثلاثين.. وعندما فتحت مكة في رمضان سنة ٨هـ كان هذا الدوران ذو الثلاث والثلاثين سنة في آخر مراحله أي أن موسم الحج خلال سنتي ٨ و٩هـ كان يقع في ذي القعدة وفق طريقة النسيء السائدة حينذاك، أما في السنة العاشرة الهجرية فكان هذا الدوران سيكتمل ليقع الحج مرة أخرى في أيامه الأصلية أي: في ذي الحجة المتطابق مع التقويم القمري الحقيقي، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجدداً للدين الإبراهيمي، وكان الله تعالى قد كلفه بأن يعيد إنشاء نظام الحج على أسسه الإبراهيمية. وكان يمكن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلن هذا سنة (٨هـ) بصفته فاتح مكة ولكنه لم يفعل هذا. وهكذا كان يمكن لرسول الله أن يصدر التعليمات في السنة التالية لأداء الحج في أيامه الإبراهيمية، ولكنه لم يقم بهذا العمل الهام إلا في السنة العاشرة الهجرية حين وصلت أيام الحج تلقائيا إلى الأيام الإبراهيمية؛ فأدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحج في السنة العاشرة في أيامه

الإبراهيمية وأعلن أن هذا سيحدث للأبد من الآن فصاعداً. وهذه هي الحكمة التي بينها رسول الله بالكلمات الآتية في خطبة حجة الوداع: أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، ويعني هذا أن التاسع من ذي الحجة يقع في اليوم مرة أخرى في موقعه الأصلي بعد دوران ثلاث وثلاثين سنة، وهذا يطابق نظام الطبيعة، واليوم يلغى التقويم الصناعي. ومن الآن فصاعداً سيؤدى الحج كل سنة في ذي الحجة وفق هذا التقويم الطبيعي[1].

وقد جاء في تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن

(١) انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٦، ص٧٨ ـ ١٠٠؛ العلبي: أكرم حسن، التقويم «دراسة للتقويم والتوقيت والتأريخ»، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المصادر ـ بيروت، ص١٥ ـ ٣٥ ـ ٦٠؛ الزيد: فقه السيرة، ص٦٥٥ ـ ٦٦٠؛ البوطي: محمد سعيد، فقه السيرة النبوية، دار الفكر، الطبعة العاشرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٤٨٢. وانظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م، المجلد الثاني، ص٢٠٦ ـ ٢١٥.

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٣).

حجّ؛ فلما حجّ صلى الله عليه وآله وسلم وكمل الدين نزلت هذه الآية.. والدين عبارة عن الشرائع التي شرع لنا؛ فإنها نزلت نجومـًا، وآخر ما نزل منها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حكم، قاله ابن عباس والسُّدّي. وقال الجمهور: المراد معظم الفرائض والتحليل والتحريم. وقالوا... وإنما كمل معظم الدين وأمر الحج، إذ لم يَطُف معهم في هذه السَّنَةِ مشرك، ولا طاف بالبيت عُريان، ووقف الناس كلهم بعرفة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[1] يقول القرطبي: أي بإكمال الشرائع والأحكام وإظهار دين الإسلام كما وعدتكم، أما قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2] أي: أعلمتكم برضاي به لكم دينـًا... وقيل: المعنى ورضيت عنكم إذ أنقدتم [وفي نسخة] أقررتم لي بالدين الذي شرعته لكم... والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3].

فكان التحول الختامي في هذه الخطبة وهو الطلب النبوي من الأمة الشهادة على تبليغه الرسالة؛ إذ حازت شرفـًا لم تنله أمة قبلها؛ فقد كان

(١) سورة المائدة، آية رقم (٣).

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٣).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص٦١؛ إبراهيم: أبوبكر محمد أحمد، المبادئ الشرعية في حجة الوداع، ندوة الحج الكبرى، حجة الوادع شعائر وقيم، (٢ـ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ)، وزارة الحج، ج١، ص٢٢٤.

الأنبياء هم الشهداء على أقوامهم، وكان شرف هذه الشهادة محصوراً فيهم، أما أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنها شهيدة على الأمم السابقة وشاهدة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم[(١)].

* * *

(١) ابن عبد البر: الدرر، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣؛ وانظر: الديرشوي: محمد جنيد، الأثر الاجتماعي والنفسي لخطبة الوداع، ندوة الحج الكبرى ـ حجة الوداع ـ شعائر وقيم، مكة المكرمة، موسم حج ١٤٢٨هـ، ج١، ص٣٨٣.

المبحث الخامس

تحول مكة إلى مدينة إسلامية في ظل دولة الإسلام

ـ النبوي والراشدي ـ (التحول السياسي)

فبالفتح النبوي لمكة سقطت سلطة مشركي قريش والسيادة القبلية، وزالت عبادة الأصنام، وقامت دولة النبوة والتوحيد، فكان التحول السياسي؛ حيث صارت مكة المكرمة لأول مرة في تاريخها ولاية تابعة للدولة الإسلامية بالمدينة المنورة تتلقى أوامرها وسياستها من قبل الحكومة المركزية المتمثلة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم من بعده خلفائه الراشدين يعاملونها وأهلها بما يليق بها من المكانة، فكان أول ولاة مكة: عتاب بن أَسِيد ـ بفتح الألف ـ بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف الأموي، أبو محمد، ويقال أبو عبد الرحمن: أسلم يوم الفتح، واستعمله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مكة، وسِنُّه عشرون سنة، ثم قال لعتاب: «أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيراً»[1] ورزقه (أي: رتب له) كل يوم درهمًا، فقال: أيها

(١) الحديث إسناده مرسل، أخرج الجزء الأخير من الحديث الفاكهي، من حديث ابن جريج عن معاوية، وذكره الفاسي في شفاء الغرام. (كما ورد في حاشية كتاب الأزرقي، للمحقق، ج٢، ص٧٢٦). وقال ابن أبي مليكة، كان أهل مكة فيما =

الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم، الحديث. وقال عند موته: والله ما اكتسبت في ولايتي كلها إلا قميصاً معقداً كسوته غلامي كيسان. وكان قد قال قبل أن يسلم وسمع بلالا يؤذن على الكعبة: لقد أكرم الله أسيداً ـ يعني: أباه ـ أن لا يكون سمع هذا فيسمع معه ما يغيظه، وكانت تحت عتاب جويرية بنت أبي جهل بن هشام وهي التي خطبها علي على فاطمة فشق ذلك على فاطمة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا آذن، ثم لا آذن، إن فاطمة بضعة مني، الحديث. فقال عتاب: أنا أريحكم منها فتزوجها، فولدت له عبد الرحمن، روى عن النبي، وروى عنه سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، ولم يزل على مكة إلى أن توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم(١).

= مضى يُلقون، فيقال لهم: يا أهل الله، أو نحو ذلك، والحديث إسناده حسن، حاشية الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص٦٨.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص٣٤؛ وتاريخ خليفة ابن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٧، ج١، ص٩٧؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢٦؛ الفاكهي: ج٣، ص٩٠؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٩٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٥، ص١٥٢.

* تجديد الأنصاب سنة إبراهيمية، محمدية:

ذكر الأزرقي عدة روايات عن أنصاب الحرم[1]، أهمها: إن أول من نصب أنصاب الحرم المكي إبراهيم الخليل عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام، دلّه على مواضعها، ثم لم تُحرك حتى قُصَيّ بن كلاب، فجددها، ثم لم تُحرك حتى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبعث عام الفتح تميم بن أسد الخزاعيّ فجددها، ثم لم تحرك حتى كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبعث أربعة من قريش كانوا يتبدون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم، فمنهم مَخْرَمةُ ابن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزوميّ، وحُويطب بن عبد العُزَّى، وأزهر بن عبد عوف الزهري، ولما ولّي عثمان بن عفان رضي الله عنه، بعث على الحج عبدالرحمن بن عوف وأمره أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث عبدالرحمن نفراً من قريش، فكانوا يجددون أنصاب الحرم في كل سنة[2].

* سقاية الحاج وسدانة البيت العتيق:

كان قصيٌّ بن كلاب ـ الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه

---

(١) أنصاب الحرم: أعلام ومنارات حجرية بنياناً؛ تُحدد حدود الحرم على أطراف مكة المكرمة ومداخلها من جهاتها الأربع. [الباحث].

(٢) أخبار مكة، ج٢، ص٦٨٤.

الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء، فحاز شرف مكة كلَّه، وقطع مكة أرباعًا بين قومه، فأنزل كلَّ قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها(١).

أما الرفادة والسقاية، فإنهما لم تزالا في حياة قصي إلى عبد بن قصي، ثم صارتا إلى عبدالدار بن قصي، حتى عظم شأن بني عبد مناف بن قصي... واقترع بنو عبدمناف على الرفادة والسقاية، فصارتا لهاشم بن عبدمناف، ثم صارتا بعده للمطلب بن عبدمناف بوصية، ثم لعبدالمطلب، ثم للزبير بن عبدالمطلب، ثم لأبي طالب. ولم يكن له مال، فادّان من أخيه العباس بن عبدالمطلب عشرة آلاف درهم، فأنفقها، فلما كان العام المقبل، سأله سلف خمسة عشر ألف درهم، فأنفقها؛ ويقال أربعة عشر ألف درهم، فقال له: إنك لم تقتضي مالي عليك، وأنا أعطيك ما سألت على أنك إن لم تدفع إليّ جميع مالي في قابل فأمر الرفادة والسقاية إليّ دونك، فأجابه إلى ذلك، فلما كان الموسم الثالث، ازداد أبوطالب عجزاً وضعفًا، ولم تمكنه النفقة، وأعدم حتى أخذ كل رجل من بني هاشم ولداً من أولاده يحمل عنه مؤنته، فصارت الرفادة والسقاية إلى العباس، وأبرأ أبا طالب مما عليه(٢).

---

(١) الطبري: الأمم والملوك: ج١، ص٥٠٥ ـ ٥٠٨.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٥٥ ـ ٥٧؛ وانظر: الحارثي: الشريف محمد بن حسين، سقاية الحاج مأثرة بني هاشم، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، ملتقى الأحبة ـ مكة المكرمة، ص٣٦.

حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح (العام الثامن من الهجرة)، فقبض السقاية من العباس بن عبدالمطلب، والحجابة من عثمان بن طلحة، فقام العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، فبسط يده، وقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، اجمع لنا الحجابة والسقاية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي يومئذ حين كلمه في المفتاح: «إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ مَا تُرْزَءُونَ، وَلَمْ أُعْطِكُمْ مَا تَرْزُءُونَ» (يَقُولُ: أُعْطِيكُمُ السِّقَايَةَ لِأَنَّكُمْ تَغْرَمُونَ فِيهَا، وَلَمْ أُعْطِكُمُ الْبَيْتَ. أَيْ إِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْ هَدِيَّتِهِ)، رواه الطبراني مرسلاً، ورجاله رجال الصحيح[1].

فقام النبي المصطفى بين عضادتي باب الكعبة فقال: «ألا كل دمٍ أو مالٍ أو مأثرةٍ[2] كانت في الجاهلية، فهي تحت قَدَمَيَّ هاتين إلا سقاية الحاجّ وسدانة الكعبة؛ فإني قد أمضيتهما لأهلها على ما كانت عليه في الجاهلية» فقبضها العباس فكانت في يده حتى تُوُفي، فوليها بعده عبد الله بن عباس،

---

(١) أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد تحقيق: حسام الدين القدسي، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م، مكتبة القدسي، القاهرة، ج٦، ص١٧٧.

(٢) المأثرة: بفتح الثاء وضمها المكرمة لأنها تُؤْثَر أي يذكرها قرنٌ عن قرن، ولأنها تُنقل ويتحدث بها (وهي المكرمة المتوارثة والفعل الحميد) انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص٣؛ الفيومي المقرئ: المصباح المنير، ص٨؛ المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، ص٣.

فكان يفعل فيها كفعله دون بني عبدالمطلب، وكان محمد بن علي بن الحنفية قد كلّم فيها ابن عباس: مالك ولها؟ نحن أولى بها منك في الجاهلية والإسلام، قد كان أبوك ـ يقصد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه تكلّم فيها فأقمت البيّنة؛ طلحة بن عبيدالله، وعامر بن ربيعة، وأزهر بن عبد عوف، ومخرمة بن نوفل؛ أن العباس بن عبدالمطلب كان يليها في الجاهلية بعد عبدالمطلب، وجدك أبو طالب في إبله في باديته بعرنه، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاها للعباس يوم فتح مكة دون بني عبدالمطلب، فعرف ذلك من حضر؛ فكانت بيد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بعد أبيه لا ينازعهم فيها منازع[(١)].

قال ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وهو على درج الكعبة: «الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية فإنها تحت قدمي اليوم إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وإن ما بين العمد والخطأ والقتل بالسوط والحجر فيها مائة بعير منها أربعون في بطونها أولادها»[(٢)].

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٨٣ ـ ١٨٤؛ وانظر: الحارثي: الشريف محمد بن حسين، سقاية الحاج مأثرة بني هاشم، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م ملتقى الأحبة ـ مكة المكرمة، ص٤٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ت٢٤١هـ، المحقق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى =

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشراب من عندها فقال: اسقني، قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: اسقني. فشرب منه، ثم أتى زمزم، وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: اعملوا، فإنكم على عمل صالح. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت، حتى أضع الحبل على هذه. يعني: عاتقه، وأشار إلى عاتقه»[١]. (أي خشية أن تصبح مشاعاً لكل المسلمين) (أي أن يجتمع عليكم الناس إذا رأوني أعمل اقتداءً بي فيغلبوكم عليها لكثرتهم).

وعن الأزرقي، قال حدثني جدي، قال حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريح، قال حدثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: أن العباس استأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له[٢].

= ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ج٨، ص٥٢١ (إسناده صحيح على شرط الشيخين).

(١) البخاري: كتاب الحج، باب سقاية الحاج، حديث رقم (١٦٣٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٧٦٩.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه البخاري (٢/ ٥٨٩ح١٥٥٣)، ومسلم (٢/ ٩٥٣ ح١٣١٥)، وأبو داود (٢/ ١٩٩ح١٩٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٩ح٣٠٦٥)، =

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أستأذن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن يبيت بمكة، ليالي منى، من أجلِ سقايته، فأذن له»[1].

فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة، أراد دفع المفتاح إلى عمه العباس رضي الله عنه. فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ..﴾[2]؛ فدفع المفتاح إلى عثمان بن طلحة، ثم قام بالحجابة ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة[3]، وفي رواية ابن هشام وابن كثير، لما أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه، ولما نزل مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى

= وأحمد (٢/ ٢٢ح٤٧٣١)، والدارمي (٢/ ١٠٢ح١٩٤٣)، والفاكهي (٢/ ٦٥ ح ١١٥٩)، والبيهقي (٥/ ١٥٣ح٩٤٧٣) كلهم من طريق: عبيدالله بن عمر، به. «انظر: حاشية الأزرقي: أخبار مكة: ج١، ص٥٧٦».

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٧٦٩، صحيح البخاري: كتاب الحج، باب سقاية الحاج، حديث رقم (١٦٣٤)؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب وجوب المبيت في منى، حديث رقم (١٣١٥)، ج٩، ص٥٧.

(٢) سورة النساء، آية رقم (٥٨).

(٣) البلاذري: أحمد بن يحي، أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق: محمد حميد الله، الطبعة الثالثة، دار المعارف: ج١، ص٥٣.

طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» وذكر بقية الحديث في خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ إلى أن قال ثم جلس رسول صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي، فقال له «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر»[1].

* ولاة مكة في العهد الراشدي:

وأقر عتاب، أبي بكر رضي الله عنه إلى أن مات، وجاء نعي أبوبكر إلى مكة، يوم دفن عتاب بها. وكان رجلاً صالحًا خيراً فاضلاً وتولى أمر مكة في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحرز بن حارثة من بني عبد شمس القرشي، الذي استخلفه عتاب بن أسيد، ثم ولاه عمر بن

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٤١؛ وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥١٦.

الخطاب[1]، ثم وليها قنفذ بن عمير بن جدعان[2]، ثم نافع بن عبد الحارث الخزاعي[3]، ثم أحمد بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، ثم طارق بن المرتفع[4]، ثم الحارث بن نوفل بن الحارث عبد المطلب بن هاشم، وعنه يقول ابن سعد: (كان الحارث بن نوفل رجلًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وروى عنه وأسلم عند إسلام أبيه، ووُلد له ابنُه عبد الله بن الحارث على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأتى به رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحنّكه ودعا له. واستعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحارث بن نوفل على بعض أعمال مكّة ثمّ ولاّه أبو بكر وعمر وعثمان مكّة)[5].

ولعل ما يفسر سياسة عمر رضي الله عنه في كثرة تغير الولاة في زمانه

---

(١) الفاكهي: ج٣، ص١٨٢؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٣٥.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج٥، ص٤٥٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٥، ص٤٨٤.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج٦، ص٤٠٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٦٤.

(٤) الفاكهي: ج٣، ص١٦٦؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٢٩١؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، المكتبة التجارية ومكتبة نزار الباز، ج٢، ص٨٩٠.

(٥) الطبقات الكبير: ج٤، ص٥٢، وانظر: الذهبي: تجريد أسماء الصحابة، دار المعرفة ـ بيروت، ج١، ص١١٠، الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣١١.

هو شدته ومراقبته لولاته مراقبة شديدة، وكان يوصيهم بأهالي الأقاليم خيرًا، وروى الطبري أن الفاروق خطب الناس فقال: أيها الناس، إني والله ما أرسل عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فو الذي نفس عمر بيده لأقتصن منه، فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته، إنك لتقصه منه؟ قال: إي والذي نفس عمر بيده إذًا لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه[(١)].

وذكر الفاسي: «وممن ولي مكة لعمر رضي الله عنه على ما قيل: الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.. وذكر أن أبا بكر رضي الله عنهما استعمله، واستعمله النبي ﷺ على بعض صدقات مكة، وبعض أعمال مكة، ثم استعمله أبو بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم على مكة، ثم ولي مكة: علي بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي العبشمي؛ ولاه عليها عثمان بن عفان

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٦٦، السباعي: أحمد: تأريخ مكة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص٦٧؛ العُمري: عبد العزيز، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار إشبيليا - الرياض، ص١٩٨.

رضي الله عنه حين ولي الخلافة، ثم ولي مكة خالد بن العاص المخزومي المقدم ذكره لعثمان أيضـًا، ذكر ما يقتضي أنه أقام على ولاية مكة إلى أن عزله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وممن ولي مكة لعثمان أيضـًا: عبد الله بن عامر الحضرمي وذكر أنه كان عامل عثمان رضي الله عنه على مكة في سنة خمس وثلاثين»[١].

ومن أهم أسباب الهدوء في مكة ـ قياسـًا بالفتن والاضطرابات في خارج الجزيرة العربية على عمال عثمان عفان ـ أن عمّال عثمان عليها كانوا لا يملكون اضطهادها بقدر ما يملك غيرهم في الأمصار؛ لاتصال العائلات الكبيرة فيها بأقربائهم من كبار المهاجرين بالمدينة وسهولة نقل الأخبار والشكاوى بين المدينتين كلما دعت الحاجة إلى نقلها من طريق المترددين من الأقارب[٢].

(١) شفاء الغرام: ج٢، ص٨٩٠ ـ ٨٩١. تولى عدد من الولاة مكة في عهد عمر بن الخطاب، لما اتصفت سياسته نحو ولاته بالحزم، وشدته في مراقبتهم. وكذلك اختلاف الروايات في تقدم وتأخر بعض الولاة ونوع أعمالهم.

(٢) السباعي: تاريخ مكة، ص٦٨، ولكن من باب التأكيد على أن الصحابي الجليل والخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، بذل كل الجهد في حسن اختيار ولاته ونصحهم، وعزلهم إذا كثرت الشكوى ضدهم، ولكنه لم يسلم من اتهامات وُجهت إليه من قبل أصحاب الفتنة في وقتها، أو الباحثين المتأخرين في بحوثهم غير المحققة، والناقلة لمن سبقهم من أهل الفتنة كابن أعثم الكوفي وغيره. =

ثم ولي مكة في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه، فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحارث بن ربعي، وقيل: النعمان بن ربعي، وقيل غير ذلك، ثم قثم العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بعد عزل أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، وقثم بن العباس من رجالات قريش الهاشميين، كان قد أخلص العمل لعلي في مكة وأحسن في سيرته مع جيرة بيت الله وبذل كثيراً في سبيل الإصلاح، ولم يتفق لعليّ أن يحج بالناس في عهد خلافته لاشتغاله بالحروب، فحج بالناس سنة (٣٧هـ) عبد الله بن العباس، وحج بهم في سنة (٣٩هـ) قثم بن العباس[(١)].

* * *

= انظر لمزيد من التفاصيل والتعليق والتحقيق لهذه الاتهامات دراسة عبد العزيز العُمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٩٩.

(١) شفاء الغرام: ج٢، ص٨٩٢؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٧٣.

المبحث السادس

التحول الاجتماعي في مكة

يتخذ التحول الاجتماعي عدة أشكال: فالتحولات الاجتماعية تكون في القيم الاجتماعية وفي النظام الاجتماعي ومراكز الأشخاص، وعليه فإن ماهية التحول الاجتماعي هو كل ما يطرأ على البناء الاجتماعي في الوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال مدة محددة من الزمن.

كما أن للتحوّل الاجتماعي خاصية أساسية تتميز بها الحياة الاجتماعية وهي الاستمرارية والتطور والنمو، فهو سبيل بقائها ونموها، وبه يتهيأ لها التوافق مع الواقع ويتحقق التوازن والاستقرار الاجتماعي، وعن طريقه تواجه الجماعات متطلبات أفرادها وحاجاتهم المتجددة.

وكما سبق بيان حال أهل مكة قُبيل البعثة النبوية، في قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: حين خطب أمام النجاشي فقال: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، ويَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ(١).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٧٩. وقد تم بيان حال مكة وأهلها قبل الإسلام في التمهيد عند الحديث عن مكانة مكة، ومن ذلك: تَحقُّقُ كيان قبلي قوي متماسك تمثل في (قبيلة قريش) في شكل وحدة اجتماعية، ووضع اقتصادي =

وانطلاقًا من أن التحول الاجتماعي والأخلاقي في أمة الإسلام، وفي بلد الله الحرام؛ فرع عن التصور والاعتقاد وهو أثر من آثاره؛ فالمرحلة المكية قد شهدت عملاً دائبًا في محو عقيدة الشرك، بمختلف تجلياتها وإقرار عقيدة التوحيد وإرساخها وتعميقها في القلوب، حتى تستنير بها، فتعرف إلهها وخالقها ورازقها ومدبرها، وتعرف واجبات العبادة المستحقة لله تعالى وحده، وتلتزم بمقتضيات الشريعة والآداب والأخلاق الإسلامية، ودون إقرار العقيدة الصحيحة وإرساخها أولاً في القلوب، لا يرجى صلاح ولا استقرار لأحوال الناس، إذ سرعان ما ينقض أمر الدين والشريعة تمامًا كما ينقض أي بناء شيد على غير أساس وطيد، كما اتضح لنا كذلك أن العهد المكي شهد إلى جانب إقرار العقيدة وإرساخها إقرار الكثير من الآداب والأخلاق والشرائع الإسلامية، فالعهد المكي لم يكن مهتمًا فقط بالعقيدة دون الشريعة، كما تجلى ذلك في آياته.

وحققت الشريعة الإسلامية الضبط الاجتماعي، الذي تميز بخصائص فريدة عن تلك الضوابط التي توجد في بعض الشرائع، فالتشريع الإسلامي يستمد سلطته من الله سبحانه وتعالى، ويعتمد في سلطته وضوابطه على وازع الضمير في النفس الإنسانية، ويعمل كموجه للإنسان

= بارز، ولغة عربية فصيحة بلغت أوج مجدها مع ظهور الإسلام.

في تصرفاته، فيكون الضمير على يقظة في جميع الأوقات بأنه مراقب من الله تعالى في السر والعلن[1]. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2]، فأقر الإسلام مبدأ الضبط الاجتماعي منذ أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالصدع بالدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]، فالصدع بالدعوة والأمر بها هي الأمارات الأولى لضبط المجتمع؛ وما أركان الإسلام إلا قواعد للضبط الاجتماعي[5].

ومن الدعائم التي يعتبرها (الماوردي) ضرورية للضبط الاجتماعي قوله: «واعلم أن ما به تصلح الدنيا، حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة أشياء، في قواعدها وإن تفرعت، وهي: دين متبع وسلطان قاهر

---

(١) أبو غدة: حسن عبد الغني، وآخرون: الإسلام وبناء المجتمع، مكتبة الرشد، الطبعة الخامسة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ص٢١؛ الزامل: محمد بن عبد الله، الدين والضبط الاجتماعي، قسم التربية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، ص٣.

(٢) سورة التغابن: آية رقم (٤).

(٣) سورة المدثر: آية رقم (١-٢).

(٤) سورة الحجر: آية رقم (٩٤).

(٥) الزامل: الدين والضبط الاجتماعي، ص١٣.

وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح»[1].

ومن أهم المبادئ التي أرساها الإسلام العدالة الاجتماعية، والتي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، والأسس التي تؤسس عليها العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، والعدل هو المعيار الذي يدرك من خلاله مدى ثبات المجتمع واستقراره، ولما قام المجتمع الإسلامي، ساوى بين الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2][3].

كما حققت الشريعة الإسلامية التكافل الاجتماعي، متمثلاً فيما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى»[4].

---

(١) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، أدب الدنيا والدين، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ص١١١.

(٢) سورة الإسراء: آية رقم (٧٠).

(٣) أبو غدة، وآخرون: الإسلام وبناء المجتمع، ص٥٠ ـ ٦٠؛ الزامل: الدين والضبط الاجتماعي، ص١٥؛ وانظر: الشريف: أحمد، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، ص٢٤٤ ـ ٢٥٥.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، حديث رقم =

والتكافل الاجتماعي بمفهومه الإسلامي يعني أن يكون أفراد المجتمع متشاركين متضامنين مع بعضهم البعض، محافظين على مصالحهم العامة والخاصة، يدفعون عن بعضهم البعض المفاسد والأضرار، ليس فقط في النواحي المادية، بل المعنوية أيضـًا. فالتكافل الاجتماعي يعم كل فرد من أفراد المجتمع المسلم، طاعة لله ورسوله، وابتغاء الثواب من الله، في حين إن التكافل الاجتماعي الذي نادى به العرب قائم على رغبة الفرد، فهو تطوعي، فالتكافل الاجتماعي في القرآن لا يقتصر على المسلمين فقط، بل يتعداهم كل بنى الإنسان على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم؛ ما داموا يعيشون بسلام داخل ذلك المجتمع، وليس بينهم وبين المسلم قتال ولا عداوات؛ من اغتصاب للأموال والدور، فأولئك يشملهم التكافل الاجتماعي القرآني، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]، ومن أهم مظاهره كفاية المحتاجين، من غذاء أو كساء أو إيواء، فقد جعل الله ـ تبارك وتعالى ـ كفايتهم فرض كفاية على الأغنياء، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ

= (٦٠١١)، ابن حجر: فتح الباري، ج١٠، ص٦٤٢؛ صحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٦)، النووي: المنهاج، ج١٦، ص١٢٦.

(١) سورة الممتحنة: آية رقم (٨).

صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1][2].

أما في جانب العلاقات الأسرية، فقد أدى اعتناق بعض أفراد الأسرة الإسلام إلى التأثير على العلاقات الأسرية والمجتمعية عامة. وقد كانت النظرة إلى المرأة في الجاهلية لا تتجاوز كونها موضع شهوة الرجل، وأنها بمثابة المتاع يباع ويشترى، ويكفي في هذا التصوير القرآني لحالة المرأة في العصر الجاهلي، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3]، فهنا السياق يرسم صورة منكرة لعادات الجاهلية، بحيث يرزق الرجل الفتاة فيصيبه الهم والحزن والضيق، وهو كظيم يكظم غيظه وغمه، كأنها بلية من البلايا العظيمة ومصيبة من المصائب الكبيرة، بحيث يصل الأمر إلى أن يتوارى ويختفي عن أعين الناس خشية سؤاله عما رزق من الولد، فيترتب على ذلك التعيير والعيب، فيبقى متردداً في فعله، وليس له تجاه ذلك إلا أحد أمرين: إما الوأد أو الإمساك على هوان وذل.

---

(١) سورة التوبة: آية رقم (١٠٣).

(٢) أبوغدة، وآخرون: الإسلام وبناء المجتمع، ص٦٦.

(٣) سورة النحل: آية رقم (٥٨ ـ ٥٩).

وقد بينت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها صورة العلاقة الأسرية بما يجلّي حجم الانحراف الذي أصاب العلاقات الأسرية في ذلك الوقت، فتقول: النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء[1]، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هدم نكاح أهل الجاهلية إلا نكاح الإسلام اليوم[2].

فنزل القرآن المكي بحفظ الفروج، وأبطل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنكحة الجاهلية، ورغب الإسلام في الزواج، ونهى عن التبتل، وفي أوائل العهد المدني شُرعت أحكام النكاح (التي شملت مكة ـ ولا شك ـ بعد الفتح)، وفي السنة الثالثة بعد غزوة أحد نزلت آيات الفرائض، وآية الميراث قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن

---

(١) وقد سبق بيانه في الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية قبل البعثة.

(٢) الخطابي: أبو سليمان أحمد بن محمد، معالم السنن (وهو شرح سنن الإمام أبي داود)، تحقيق: محمد راغب الطباخ، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م، المطبعة العلمية بحلب، ج٣ ص٢٧٧.

لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾[(١)]، وشرع الله الطلاق والرجعة والخُلع والعدة في السنة الثالثة من الهجرة، حيث نزلت سورة الطلاق، وآيات الطلاق والعدة في سورة البقرة وإلى غير ذلك من الأحكام الشرعية المرتبطة بالمرأة المسلمة، وبوفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم انتهى عصر التشريع، وما استحدث من سنن في عصر الراشدين هو من باب الفقه في الشريعة، ومن القضايا التي حكم فيها الخلفاء الراشدون فقهاً، مثل: الطلاق الثلاث، والطلاق عند اختلاف الزوجين في الحرية والرق، وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها، والنفقة والسكنى للمبتوتة، ووقت وقوع الطلاق في إيلاء، وميراث الأخوات مع البنات، وغير ذلك[(٢)].

---

(١) سورة النساء، آية رقم (١١ ـ ١٢).

(٢) القطان: مناع، تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٥٧ ـ ٢١٦.

ومن أهم ما قامت عليه الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة تجاه المرأة في العهد النبوي، وما أضافه الخلفاء الراشدون في مراحلهم المتوالية، فهماً وفراسة، وقدوة وقيادة، على خُطى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، في هديه وهداه وحكمه وحكمته؛ ما يلي:

١ ـ أن التكليف بالأحكام الشرعية يشمل الرجل والمرأة إلا ما خص أحد النوعين بأحكام مغايرة لأحكام النوع الآخر كالنفقة بالنسبة للرجل والحيض بالنسبة للمرأة.

٢ ـ المساواة في الحقوق والواجبات، إلا ما خص أحدهما بواجبات مغايرة للآخر، وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾[1]، والدرجة في سياق الآية لها معنيان متداخلان، الأول متعلق بالطلاق كما يدل عليه السياق النصي وهو أن الرجل بيده العصمة في النكاح، وهو الذي يبقي المرأة في ذمته أو يطلقها، فالطلاق ـ عموماً ـ بيد الرجل وليس بيد المرأة وهو أمر يفرضه طبيعة الموقف الذي يضبط العلاقة بين الرجل والمرأة، والمعنى الثاني أن للرجل على المرأة درجة ليست هي درجة التفضيل والتشريف وإنما هي درجة التكليف، وقد اقتضته الطبيعة الخلقية للرجل.

٣ ـ للمرأة أهلية مطلقة، أي لها حق التصرف في أموالها بالبيع

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٢٨).

والشراء والهبة والتجارة دون خضوعها لقانون الزوج.

٤ ـ المرأة في الشريعة لها ذمة مستقلة عن ذمة زوجها[(١)].

وتحولت نظرة المجتمع المكي تجاه العبودية ومعاملة الرقيق، إلى معاملة رحيمة اتباعًا لأقوال المصطفى الحبيب؛ ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إخوانكم خَوَلُكم ـ أي: عبيدكم ـ جعلهم الله تحت أيديكم، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم، فمن كان أخوه تحت يده، فليُطعِمه مما يطعم، وليُلبِسه مما يلبَس، ولا تكلِّفوهم ما يغلِبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم»[(٢)]، وفي هذا المعنى كذلك يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيدالله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي، وجاريتي، وفتاي وفتاتي»[(٣)]؛ أي: كما يُنادي أولاده. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأيما امرئ أعتق مسلما وأيما امرأة أعتقت

---

(١) انظر: الخطابي: معالم السنن، ج٣، ص١٧٩ ـ، ج٤، ص١٠٤؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٦٨٤ ـ؛ أبو غدة، وآخرون: الإسلام وبناء المجتمع، ص٥٠، ص١١٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يَكفُر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، حديث رقم (٣٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٤٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب ألفاظ من الأدب وغيرها، باب حُكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، حديث رقم (٢٢٤٩)، النووي: المنهاج، ج١٥، ص٦؛ ورواه أحمد في مسنده، برقم (٩٧٧٦)، ج٢، ص٥٩٦.

امرأة مسلمة. وزاد: وأيما رجل أعتق امرأتين مسلمتين إلا كانتا فكاكه من النار، يُجزى مكان كل عظمتين منهما عظم من عظامه منه»[١].

فوضع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العبيد ومواليهم في مرتبةٍ واحدة، وجعل أولئك إخوانًا لهؤلاء، ورتَّب على ذلك أنه لا ينبغي أن يُحرَم العبيد شيئًا مما يَنعَم به مواليهم في المأكل والمشرب والملبس، وما إلى ذلك، وأشار إلى أنه ليس ثَمَّ مِلكيَّة بالمعنى المعروف، وإنما هي مجرد ولاية قد منحها الله الموالي على عبيدهم، كما منَحهم الولايةَ على أولادهم، فهي وظيفة اجتماعيَّة يجب عليهم حُسْن أدائها، ويُحاسِبهم الله على أيِّ تقصير فيها[٢].

وبالرغم من أن عدداً من أهل مكة من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن زعماء قريش قد هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، إلا أن مكة لم تخل من سكانها الأصليين من بطون القبائل والنازحين إليها من العرب المجاورين والموالي المجلوبين، الذين تبنوا وطبقوا تعاليم الشريعة الإسلامية فور

(١) رواه أبو داود في سننه، برقم (٣٩٦٧) ج١، ص١٦٤٩، واللفظ له (حديث صحيح)؛ كما ورد، والترمذي في سننه، برقم (١٥٤٧)، ج١، ص١٩٤٥؛ وابن ماجه في سننه، برقم (٢٥٢٢)، ج٢، ص٢٩٣٥، الكتب الستة؛ رواه أحمد في مسنده، برقم (١٠٨٥٤)، ج٢، ص٧١١.

(٢) انظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٥٢.

وصولها إليهم في مكة في جميع تعاملاتهم اليومية(١).

فأصبحت فئات المجتمع المكي متعاونة متعاضدة لا يبغي بعضها على بعض، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وأصبح كل واحد في هذا المجتمع راعياً ومسؤولاً عن رعيته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وامتد التعاون الاجتماعي والأخلاقي بين طبقات المجتمع المكي في عهود الراشدين نتيجة العدالة الاجتماعية التي حققها الخلفاء الراشدون على المنهج النبوي، فمن المعلوم أن التحول الاجتماعي للمجتمع المكي قد اكتملت مظاهره في عهد النبوة وبظهور الإسلام وسيادة مبادئه وتعاليمه، فما كان العهد الراشدي إلا استمراراً لتلك البيئة الاجتماعية النبوية، ولم يطرأ على المجتمع المكي من تحولات اجتماعية إلا المشاركة في الفتوحات الراشدية، وما أحدثته التحولات العمرانية والحضارية الأخرى بمكة من قرب أو بعد عن المسجد الحرام، كما سيأتي بيانه في المبحث القادم.

* * *

(١) السباعي: تأريخ مكة، ص٦٣.

المبحث السابع

التحول الحضاري لمكة:

(التطور العلمي، النشاط الاقتصادي، النمو العمراني)

* التطور العلمي:

- دار الأرقم أول مدرسة في الإسلام:

تحولت مكة إلى منارة علمية بظهور الإسلام، فكان المسجد الحرام ومعالمه منابر للدعوة والعلم، وكانت دار الأرقم أول مدرسة في الإسلام، حيث كان النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يقرئ أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن الكريم مدة ثلاث عشرة سنة من بعثته الشريفة، وهي الفترة المكية، فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان اجتماع المسلمين في مكة، يوم أن كانت أعدادهم قليلة، يتسربون إليها خلسة خوفاً من قريش، حيث يلتقون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتعلمون منه أمور دينهم، ويتلقون عنه ما ينزل من القرآن[1]. ومن المعروف أن نفراً منهم كان يعرف الكتابة في هذه المرحلة المبكرة، فدون بعض سور القرآن الكريم، ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٩٠٠؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٣٣٠، ج٤، ص١٢.

اطلع على صحيفة فيها صدر سورة طه، فتأثر عند قراءتها وأسلم. والخبر يفيد معرفة عمر رضي الله عنه القراءة في المرحلة المكية ومعرفة خباب رضي الله عنه وهو الذي كان يقرأ الصحيفة على فاطمة أخت عمر رضي الله عنهما القراءة[1]، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أول من جهر بالقرآن في مكة[2].

ولا شك أن ظروف المسلمين الصعبة ومواجهتهم العنيفة مع مشركي قريش، كانت تقف حائلا أمام توجيه معظم اهتمامهم للتعليم، إذ إن الاستقرار وهدوء البال يساعدان على انتشاره، كما أن الحاجة العملية للدعوة الإسلامية ـ في بدايتها ـ كانت محدودة. وكان في المسلمين الأوائل عدد من المتعلمين[3].

وقد أصبحت مكة المكرمة ـ في العهد النبوي ـ مهد العلم، حيث كان المسجد الحرام مركز الإشعاع المعرفي، وقام بعض أصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالتعليم كابن مسعود، وابن عباس، وأبي ذر الغفاري، وابن عمر وأبي الدرداء رضي الله عنهم يترددون إليها بعد

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٩٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٢، ص٢٩٥.

(٣) العُمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، العبيكان ـ الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠١١م، ص٢٨٩.

الفتح، وكانت مكة المكرمة تستفيد من علومهم[(١)].

أما كُتّاب الوحي الرباني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد اختلف أهل السير في تحديد عددهم، فمنهم من جعلهم ثلاثة عشر، ومنهم من جاوز بهم العشرين، وجعلهم ابن كثير ثلاثة وعشرين وقال: أما كتاب الوحي وغيره بين يديه صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهم أجمعين فمنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وأبان بن سعيد بن العاص، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع، وخالد بن سعيد بن العاص، وخالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه، والعلاء بن الحضرمي، ومحمد بن مسلمة بن جريس، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم أجمعين[(٢)].

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمرت مكة كمنارة علمية ومركز فكري ومدرسة لها سماتها وعلماءها وأعلامها، فأصبح المسجد الحرام مزدحماً

---

(١) انظر: تراجم الصحابة عند ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص١٤٩، ج٢، ص٣١٤، ج٤، ص١٣٣، ح٢، ص٣٠٥، ج٩، ص٣٩٥؛ وتراجم الصحابة عند ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٨٣ ـ ٤٦٥ ـ ٤٧٣ ـ ١٥٢ ـ ٥٨٧.

(٢) البداية والنهاية، ج٥، ص٤٨٧.

بحلقات رجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، وظلت حلقاتهم تناقش تفسير الآيات وتقارن بينها وبين ما عرفت عن القواعد في لغة آبائهم من قريش، ويتضاعف اتساع الحلقات في مواسم الحج ويشتد التنافس على الطلب كلما قدم من المدينة أحد الصحابة المشهورين بترددهم على مجالس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وقد تلقى العلم عن ابن عباس عدد يصعب حصره من أهل مكة، وكونوا ما عُرف في العصور المتأخرة بمدرسة مكة، أو مدرسة ابن عباس، وقد كان مفخرة مكة في الفقه كما روى تلميذه مجاهد بن جبر[2].

---

(١) السباعي: تاريخ مكة، ص٨٠.

(٢) مجاهد بن جبر: ترجم له الذهبي فقال: شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، روى عن ابن عباس، فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن، والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، ورافع بن خديج، وأم كرز، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأم هانئ، وأسد بن ظهير، وعدة. تلا عليه جماعة: منهم ابن كثير الداري، وأبو عمرو بن العلاء، وابن محيصن، وحدث عنه عكرمة، وطاوس، وعطاء، وخلق كثير. قال سفيان الثوري: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك. وقال خصيف: كان مجاهد أعلمهم بالتفسير. وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد. مات سنة ثلاث ومائة. وقال ابن المديني وغيره: سنة أربع ومائة. وجاء عن ابن المديني: سنة ثمان ومائة. وقال يحيى القطان وغيره: مات سنة أربع ومائة. سير =

وعبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي[1]، الذي بعثه عثمان بن عفان رضي الله عنه مع المصحف الذي خص به أهل مكة، فصار قارئهم ومفخرتهم. روي عن مجاهد بن جبر أنه قال: «كنا نفخر على الناس

= أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٧٧؛ انظر: المغربي: أحمد بن محمد: القراء الأعلام في البلد الحرام، ١٤٢٧هـ، مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة، ص١ ـ ٣.

(١) عبد الله بن السائب بن أبي السائب صيفي بن عابد بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، أبو عبد الرحمن وأبو السائب القرشي المخزومي المكي، مقرئ مكة. وله صحبة ورواية عداده في صغار الصحابة، وكان أبوه شريك صلى الله عليه وآله وسلم قبل المبعث، قرأ عبد الله القرآن على أبي بن كعب، وحدث عنه أيضا، وعن عمر عرض عليه القرآن مجاهد، ويقال: إن عبد الله بن كثير تلا عليه. فالله أعلم. وحدث عنه: ابن أبي مليكة، وعطاء، وابن بنته محمد بن عباد بن جعفر، وولده محمد بن عبد الله، ومحمد بن عبد الرحمن المخزومي، وغيرهم، وصلى خلف النبي ﷺ بمكة، فقرأ بسورة المؤمنين، قال مسلم وغيره: له صحبة، وروى أنس بن عياض، عن رجل، عن عبد الله بن السائب، قال: اكتنيت بكنية جدي أبي السائب. وكان خليطا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: نعم الخليط؛ كان لا يشاري، ولا يماري. عن مجاهد، قال: كنا نفخر على الناس بقارئنا عبد الله بن السائب، وبفقيهنا عبد الله بن عباس، وبمؤذننا أبي محذورة، وبقاضينا عبيد ابن عمير. قيل: مات ابن السائب في إمارة ابن الزبير، وقال ابن أبي مليكة: رأيت ابن عباس قام على قبر عبد الله بن السائب، فدعا له. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٧٧.

بقارئنا عبد الله بن السائب، وبفقيهنا ابن عباس، وبمؤذننا أبي محذورة، وبقاضينا عبيد بن عمير»[1].

* النشاط الاقتصادي:

أولى الإسلام المال والاقتصاد عناية بالغة، فهما عصب الحياة وعماد القوة المادية، وهذه لا بد منها ليتوافر للمسلمين القوة الكاملة التي دعا القرآن الكريم إلى إعدادها دفاعًا عن الحق، فالنظام الاقتصادي في الإسلام قائم على تصور أنَّ الله هو الخالق والمالك لهذا الكون وما فيه،

---

(١) عبيد بن عمير: بن قتادة الليثي الجندعي المكي، ثقة كثير الحديث، وهو الواعظ المفسر، ولد في حياة رسول الله ﷺ. وحدث عن أبيه، وعن عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وطائفة، حدث عنه ابنه عبد الله بن عبيد، وعطاء بن أبي رباح، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وعبد العزيز بن رفيع، وأبو الزبير، وجماعة. وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة، وكان يذكر الناس، فيحضر ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مجلسه. وروى حماد بن سلمة، عن ثابت، قال: أول من قص عبيد بن عمير على عهد عمر بن الخطاب. توفي في سنة أربع وسبعين. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٨، ص٢٤؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٩٥؛ ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، تحقيق: الشيخ خالد طرطوسي، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ص٣٧٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص١٧١؛ انظر: المغربي: القراء الأعلام في البلد الحرام، ص١ ـ ٣؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٨٠.

وهو الوهاب والرزَّاق، استخلف الإنسان في هذه الأرض، ومكَّنه مما فيها من أرزاق وأقوات، وقوى وطاقات، وجعل له حرية التَّصرف فيها، ولكن بشرط أن يكون وفق منهج الله وحسب شريعته، فالأمر ليس فوضى، وإنَّما هناك حدود وقيود واضحة؛ فالله هو المشرِّع، وله الحكم وحده، والإنسان مُستخلَف في الأرض، وليس مالكًا لما بين يديه من أرزاق؛ لذا فالنظام الاقتصادي في الإسلام قائم على أساس الكسب المشروع، والإنفاق المشروع، وأداء ما أمر الله بأدائه، وتنمية المال بوسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين، فلا بُدَّ من الطهارة في النية والعمل، والنظافة في الوسيلة والغاية، فإذا قام التصور في النظام الاقتصادي على هذا الأساس، ازدهرت الحياة الاقتصاديَّة، وشاع الرخاء، وأما إذا قام على غير هذا الأساس المشروع، انتكست الحياة الاقتصاديَّة، وعمت الأزمات؛ ذلك أنَّ المفاهيم الاقتصادية، التي تقوم على أساس الكسب المشروع والإنفاق المشروع ـ ينتج عنها أن يشيع التفكير في المصالح العامة، وأن يحسن الناس التعامل بمصادر الثَّروة، وهذا فيه صالح الجميع[1].

---

(١) صقر: محمد أحمد، الاقتصاد الإسلامي مفاهيم ومرتكزات، بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز ـ المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص٢٥؛ القطان: مناع خليل، مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي، المرجع السابق، ص١٣٢.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لأن يغدو أحدُكم فيحتطب على ظهره، فيتصدق منه، فيستغني به عن الناس ـ خيرٌ له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من استعفَّ أعفَّه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن سأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأل إلحافًا»[2].

كما حث الإسلام على التزام جانب القصد والاعتدال، واجتناب السرف والشطط في الإنفاق، والاستمتاع بالطيِّبات التي أحلها الله، والبعد عن النمط الاستهلاكي الترفي، وأن تبقى الحاجات الاستهلاكيَّة محدودة بحدود الاعتدال؛ ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

وكان العرب قبل الإسلام يتأثمون من الاتجار في الحج، فلا يحجون ولا يتجرون وتكون تجارتهم في الأسواق المذكورة قبل الحج، أو في مكة

---

(١) صحيح سنن الترمذي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني،، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٩ ـ ١٩٩٨، ج٢، ص٦٨٠.

(٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات، الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (ت ١٤٢٠هـ): سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٥، ص٣٩٩.

(٣) سورة الأعراف، آية رقم (٣١).

بعد الحج، وبقوا على ذلك حتى رفع عنهم الحرج بنزول الوحي: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[١]، فرخص لهم في المتجر والركوب والزاد، وأحل الله لهم الاتجار في الحج، فصاروا يتبايعون بمكة فأثر ذلك في الأسواق، وكان تحديد مواقيت الحج وانتشار الإسلام ومنع التعرض والتحرش بالناس طيلة أيام السنة من جملة العوامل التي قللت من أهمية تلك الأسواق، فلم يعد الحجاج في حاجة إلى ذهاب القوافل إليها استغلالاً لحرمة الأشهر، بل صاروا يتجهون إلى المواقيت المعينة للحج رأساً، فيتجرون بمكة ويعودون إلى ديارهم، فقلت بذلك أهمية تلك الأسواق حتى ماتت؛ حيث كانت الأسواق عامرة مقصودة قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام هدم ذلك[٢].

لقد كانت قريش صاحبة تجارة حيث كانت تسيطر على المسالك التجارية الرابطة بين جزيرة العرب من جهة، وبين الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط عن طريق الشام وبحر العرب عن طريق المرافئ الجنوبية من جهة أخرى، وخشية فقدان امتيازاتها وموارد ثرائها المرتبطة بدور وسيط ذي شأن في الدورة التجارية الدولية فقد عملت على الحفاظ على هذين المسلكين التجاريين الرئيسيين، حيث إنهما يمثلان عاملاً

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٩٨).

(٢) علي: جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٤، ص٦٩ ـ ٧٠.

حاسماً لإتمام حلقة المقاطعة الاقتصادية للمسلمين آنذاك، وقد ظهر هذا جلياً عندما حاصرت قريش المسلمين في شعب أبي طالب لثلاث سنين حتى أجهد المحاصرون وتصايح الأطفال، واتفق كل بطون قريش على مقاطعتهم على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقتله، واشتد الحصار فقطعت عن المسلمين الميرة، والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً ولا بيعاً يدخل مكة إلا بادروه فاشتروه حتى بلغهم الجهد، والتجؤوا إلى أكل الأوراق والجلود، وتصايحت أصوات النساء والأطفال من الجوع، وفي المحرم من السنة العاشرة للدعوة نُقضت صحيفة الظلم، وخرج صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، ولكن بوضع اقتصادي على أسوأ ما يكون الحال(١).

واتجرت قريش بأنواع السلع المختلفة من العنبر والعود والطيب والمسك والبخور والتوابل والبهارات والجلود والزبيب والصمغ والحنطة والتمر والبر والثياب وغيرها، وكانت هذه السلع مجلوبة من مختلف البلدان كالشام والحبشة واليمن وفارس والهند والصين(٢). وقد كانت علاقة قريش في تجارتها الخارجية مع تلك الدول كبيرة وعظيمة، أورد

---

(١) السهيلي: الروض الأنف، ج٣، ص٢١٥؛ الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٢٣٣.

(٢) ابن حبيب: كتاب المُحبَّر: ص٢٦٣ ـ ٢٦٨.

القرطبي في تفسيره سورة قريش البلاد التي كانت تشد إليها ومنها قوافل التجارة، فقال: وكان أصحاب الإيلاف أربع إخوة هم: هاشم، عبد شمس، المطلب، ونوفل، فأما هاشم: فكان يؤلف ملك الشام وأخذ منه عهداً بتأمين تجارته لبلاد الشام، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس، وسار العرب إلى هذه البلاد برا وبحرا، واتجروا منها وإليها بأنواع السلع الكثيرة(١).

ومن المعلوم أن قريشاً سكان مكة لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممراً للقوافل فقط، بل أسهموا بأنفسهم بالنشاط التجاري، وليس أدل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض، وقد ساعدها على ذلك كونها مركزاً دينياً يحج إليها سنوياً عدد كبير من العرب، وذلك يوفر للمكيين سوقاً تجارية رائجة للمبادلات المربحة، كما أنهم مدوا تجارتهم إلى الأقطار الأخرى في سوريا واليمن والحبشة والعراق(٢).

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص١٨٥؛ ابن حبيب: كتاب المُحبَّر، ص١٦٢ ـ ١٦٤، ٢٦٥؛ وانظر: البطاينة: محمد ضيف الله: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، الأردن ـ عمان، دار طارق للطباعة والنشر، اربد: دار الكندري للطباعة والنشر، ص٧٧.

(٢) الشاهين: محمد عمر أحمد: التحولات التي أحدثها الإسلام في النظام القانوني =

إلا أن التحول الملفت للنظر أن هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وانتصار الإسلام على كفار مكة، ثم وفاته بالمدينة واتخاذ الخلفاء الثلاثة الأول إياها قاعدة لهم وبيت مال المسلمين، ثم خروج سادات مكة إليها في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وانتقالهم إلى الأمصار المفتوحة لإدارتها سياسياً وعسكرياً أو للاشتغال بها بالزراعة والتجارة وبالأعمال الأخرى المربحة، كل هذه العوامل وأمثالها جعلت مكة في الدرجة الثانية بعد المدينة من الناحية الاقتصادية، وبعض الصحابة لم يغادروها كما غادرها غيرهم إلى الأمصار المفتوحة حيث فضلوا مجاورة المسجد النبوي الشريف في المدينة، ولا يتجهون لمكة إلا أيام الحج، فأثر ذلك على وضعها المالي، وأزال مكانها القديم في التجارة ـ بين الشام واليمن ـ، فتغير بذلك كل شيء(1).

وتحولت التجارة بمكة المكرمة بعد الفتح إلى تجارة تلتزم بضوابط الشريعة الإسلامية: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(2)، وأداء الزكاة التي فيها صلاح

= عند العرب ـ دراسة تاريخية قانونية مقارنة لعصر الرسالة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ـ جامعة الموصل، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٢٨.

(١) علي: جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٤، ص٧٢؛ الشاهين: التحولات التي أحدثها الإسلام في النظام القانوني عند العرب، ص١٣٣.

(٢) سورة الجمعة، آية رقم (١٠).

المجتمع كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[(٢)]، فقد كان أهل مكة يعولون كثيرا على الربا؛ فأحياناً يبلغ أضعاف القرض نفسه، فتؤكل بذلك أموال المدين وتذهب حقوق الأفراد، فأعلن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع إسقاط ربا عمه العباس: «وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»[(٣)].

وبعد عام الفتح، العام الثامن للهجرة النبوية، واستقرار الإسلام بمكة، شهدت أسواقها الموسمية تراجعاً كبيراً، كأسواق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، التي كانت قائمة منذ الجاهلية إلى الإسلام، ثم انتهت وتلاشت وخربت. فقد تُركت عكاظ بعد أن جاءت فتنة الخوارج[(٤)] سنة

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١١٠).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢٧٦).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩؛ انظر: الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٢٣٣.

(٤) الخوارج هم أولئك النفر الذين خرجوا على الخليفة الراشد أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين، ولهم ألقاب =

(١٢٩هـ)، فخافوا من فتنة الخوارج، ثم تُركت مجنة وذو المجاز، واستغنى الناس عنها بأسواق مكة ومنى وعرفة، كما أن موسم الحج لم يعد فقط للقرشيين، فقد كان الكثير من التجار من خارج مكة يشاركون في البيع بالأواق، كما نشأت في موضع الأبطح بمكة أسواق تجارية وحرفية، وقد كانت سوق الليل نشيطة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتنوعت أسواق مكة، وأصبحت تصنف حسب المهن، فذكر الأزرقي عدة أسواق متخصصة بمكة، كسوق الغنم، الذي كان موجوداً في عهد رسول الله ﷺ. وأخرج الأزرقي بسنده عن ابن جريج قال: لما كان يوم الفتح، فتح مكة، جلس رسول الله ﷺ على قرن مسقلة[1]، فجاءه الناس يبايعونه بأعلى مكة

= أخرى عرفوا بها غير لقب الخوارج، ومن تلك الألقاب الحرورية والشراة والمارقة والمحكمة وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا بالمارقة؛ فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقين من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وفي سنة ١٢٩هـ ثاروا باليمن بقيادة عبد الله يحيى الكندي واستولوا على حضرموت واليمن وصنعاء وأرسلوا جيشا بقيادة أبو حمزة الشاري فدخل مكة وانتصر في المدينة إلى أن هزمه حيش أموي جاءه من الشام في جمادى الأولى ١٣٠هـ. لمزيد من التفاصيل عن الخوارج عام ١٢٩هـ، انظر: ابن كثير البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٤٨ـ٢٥٧.

(١) قرن مسقلة: يقول الأزرقي: وهو قرن قد بقيت منه بقية بأعلى مكة في دبر دار سمرة عند موقف الغنم بين شعب ابن عامر وحرف دار رابغة في أصله، ومسقلة رجل كان يسكنه في الجاهلية. أخبار مكة، ج٢، ص٩١٤؛ ويضيف المحقق: =

عند سوق الغنم، وأسواق مكة التي كانت قائمة حتى منتصف القرن الثالث الهجري؛ فذكر الأزرقي منها ما يقرب من (٣٠) سوقاً مثل: سوق الليل، وسوق العطارين، وسوق الحدادين، وسوق الحذائين، وسوق الفاكهة، وسوق الرطب، وسوق ساعة، وسوق الحمارين، وسوق البرامين، وسوق الحجامين، وسوق الصيارفة، وسوق القواسين، وسوق اللبانين، وسوق البزازين، وسوق الحطب[1]، ولعل منها ما كان معروفاً زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين، ومنها ما ظهر بعد ذلك إذ لم تؤرخ المصادر لنشأة تلك الأسواق على وجه الدقة.

وإذا كان معظم أهل مكة من كبار الصحابة من قريش قد هاجروا إلى المدينة المنورة؛ فإن مكة المكرمة بعد الفتح بقيت رغم هذا يتواجد بها الكثير من سكانها الأصليين من قريش والنازحين إليها من العرب والموالي، تطبق ضوابط الشريعة في معاملاتها التجارية ـ الداخلية ـ، وتباشر أعمالها في الصناعات المحدودة التي عرفتها، وتباشر ما اعتادت زراعته في مزارعها في بعض أطراف مكة وأوديتها[2].

= وموقف الغنم كان عند مسجد الجودرية (مسجد الراية).

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، في مواضع متفرقة؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص١٠٤٩ ـ ١٠٥٢.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٢٨١؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٦٤.

وفي بداية عهد الخلفاء الراشدين بدأت الفتوحات الإسلامية تتجه إلى خارج شبه الجزيرة، وقد اتسعت في عهدي عمر وعثمان رضوان الله عليهما مما نتج عنه تدفق الأموال على المسلمين[١]. ونشطت التجارة في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، ومن عطائه تدفقت الأموال على مكة إلى جانب ما تدفق إليها من غنائم الحروب، وجلب الرقيق إليها من أطراف الأرض المفتوحة شراءً وإهداءً، فازدهرت الحضارة، وتملك أهل مكة الأراضي في الطائف، واستثمروا خيراتها[٢].

وكانت تمارس التجارة في أماكن مخصصة ومعروفة أطلق عليها اسم السوق، والسوق له أنظمة وقوانين وهيئة إشراف، فالسوق هو المحطة النهائية لعملية التبادل التجاري أو لحركة البيع والشراء، وعرفت الأسواق قديماً، وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة بعد الفتح، وتفقد الخلفاء الراشدون أسواق مكة بأنفسهم[٣].

---

(١) الصالح: صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩١؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٥٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٢٨٤؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٨٢.

(٣) لمزيد التفاصيل عن البيع والشراء والتجارة والأسواق في صدر الإسلام، =

ومن ذلك أيضاً الإشراف على نظافة الأسواق من الطين والأتربة والأوساخ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم مكة فكان يطوف في سككها، فيأمرهم بنظافة الطرقات والأفنية، ويعاقب على ذلك فيقول: قموا فناءكم، حتى مر بدار أبي سفيان فقال: قموا فناءكم، فقال: نعم يا أمير المؤمنين حتى يجيء خادمنا، ثم مر به فلم يصنع شيئاً ثم مر ثالثاً فلم يصنع شيئاً فعاقبه. إلا أنه مع كثرة انشغال الخلفاء والولاة فقد تعذر عليهم الإشراف المباشر على الأسواق؛ لذلك ظهرت وظيفة جديدة تولت مهام تلك المسؤولية تلك هي وظيفة الحسبة، فهي وظيفة إسلامية صرفية نشأت اختصاصاتها في صدر الإسلام، والمحتسب هو ذلك الرجل الذي يمارس اختصاصاته داخل نطاق السوق[1].

= انظر: نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية» للسيد محمد عبد الحي الكتاني الإدريسي الحسني الفاسي، تحقيق: عبد الله الخالدي، الطبعة الثانية، دار الأرقم ـ بيروت، ج٢، ص٨ ـ ٣٠.

(١) القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (ت ٤٥٨هـ): الأحكام السلطانية للفراء، تحقيق: محمد حامد الفقيدار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠، ص١٨٥؛ وانظر: الزهراني: ضيف الله، وغباشي: عادل: تاريخ مكة المكرمة التجاري، الغرفة التجارية الصناعية بمكة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص٨٣ ـ ٨٩.

ـ التحول من الشعيبة إلى جُدة ميناءً لأهل مكة:

كان ميناء الشعيبة[١] هو ميناء أهل مكة في الجاهلية والإسلام، حتى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت أولى أهم الأحداث التي ارتبطت بهذا الميناء المكي «حادثة الهجرة إلى الحبشة» وهي أول هجرة في

---

(١) شعيبة تصغير شعبة، والشعبة: المسيل من الارتفاع إلى قرارة الرمل. والشعبة: المسيل الصغير، وقيل الشعبة ما انشعب من القلعة والوادي أي عدل عنه وأخذ في طريق غير طريقه فتلك الشعبة، والجمع شُعب وشعاب. ويرى البلادي أن الشعيبة هي الوادي الذي يعرف اليوم بالشعيبة ولكن دخل عليه تحريفًا، وفي رأيه أن اسمه القديم الشعبة. والشعيبة الميناء، ولايزال معروفًا بهذا الاسم وشهرته التاريخية تقدمه على الوادي. وتقع الشعيبة بقرب الخط ٥٩/ ٢٠° على الشاطئ في جون من البحر يقع في الشمال الغربي من جبل شداد وعلى الشمال من مستابه «المصطبة» وهو في موقع «الشعيبة المقفلة» لأن الشعيبة الآن موضعان «الشعيبة المقفلة» وغربها في داخل الجون البحري «الشعيبة المفتوحة»... وبعد مراجعة ودراسة أبحاث ودراسات الجاسر والأنصاري اتضحت الصورة للموقع الحقيقي للشعيبة. والمتجه لها من جنوب مكة بحي الكعكية على طريق الجنوب الساحلي وبعد ٦٠كم تقريبًا ومن نقطة الأمن يُتجه غربًا في حدود ٢٤كم تقريبًا ليجد الشعيبة أمامه. انظر: الحارثي: محمد بن حسين، الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، كرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ مكة المكرمة، ص١٠٦.

الإسلام، ففي السنة الخامسة لبعثة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم اشتد أذى المشركين لمن أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأى أنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه(١).

وفي عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه شجعته قريش على اتخاذ جُدة(٢) ميناءاً وبندراً رئيسياً لمكة بدل الشعيبة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٨٠؛ وابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٠٤.

(٢) الجُدُّ بالضم: شاطئ النهر، والجُدة أيضاً وبه سميت المدينة التي عند مكة جُدة. وجُدة كل شيء: طريقته وجُدَّتُه: علامته، وكل طريقة جُدة وجادة. ويقول ياقوت: جُدة بالضم والتشديد، والجُدة في رأيه الطريقة. وذلك موافق لما تبناه الأنصاري؛ وشدد عليه من أن الضبط الصحيح لصيغة جُدة الضم للجيم وتشديد الدال بعدها تاء مربوطة، ونقل عدة آراء لعدد من اللغويين والجغرافيين والمؤرخين تؤكد صحة ما ذهب إليه. وتقع مدينة جُدة عند منتصف البحر الأحمر عند التقاء خط العرض ٢٩,٢١ شمالاً والطول ٣٩,٠٧ شرقاً. على السهل الساحلي «سهل تهامة» ويحدها من الشرق مجموعة تلال صغيرة تليها سلاسل غير متصلة من الجبال الموازية لسلسلة جبال الحجاز. ابن منظور: لسان العرب: ج٣، ص١٠٨؛ ياقوت: معجم البلدان: ج٢، ص١١٤؛ وانظر: الحارثي: محمد بن حسين، الموانئ البحرية =

لقربها من مكة، فخرج بنفسه رضي الله عنه إلى جُدة واغتسل من البحر وأمر من معه بالغسل منه، وأمر بنقل البندر إليه، وكان ذلك في العام السادس والعشرين من الهجرة[1].

* النمو العمراني: تطهير الكعبة وعمارة المسجد الحرام:

أعاد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة الطهر حسًا ومعنى للبيت الحرام والبلد الحرام، ليعيد التوحيد ويقيم العبادة ويطهر ساحة الكعبة من الأنجاس الحسية والمعنوية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط، ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه»[2]، وفي رواية «أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا رأى الصُور

= الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، ص١٠٠.

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٢٣١؛ والفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج١، ص١٨٢؛ وانظر: الحارثي: محمد بن حسين، الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، ص١٢٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، حديث رقم (٤٢٨٨)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٨٦.

في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط»[1]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[2].

وذكر عدد من المؤرخين أن الكعبة كُسيت أنواعًا متعددة من الكسى منها الخصف[3]، والمعافر[4]، والملا، والوصائل، والعصب قبل الإسلام، وقيل: إن أول من كساها تُبعّ الحميري، وذُكر أنه كساها المسوح والأنطاع،

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٣٥٢)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٥٦٦.

(٢) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب المغازي، حديث رقم (٤٢٨٧)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٨٦؛ صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، حديث رقم (١٧٨١)، النووي: المنهاج، ج١٢، ص١١٦.

(٣) الخصف: من سعف النخيل، وقيل غير ذلك، مادة خصف. ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص١١٧٤.

(٤) بُرْدٌ مَعافِريّ منسوب إلى معافِر اليمنِ ثمن صار اسمًا لها بغير نسبة، فيقال: مَعافِر. ابن منظور: لسان العرب، ج٣٤، ص٣٠١٢.

وكُسيت الحبرات اليمانية، وقد كساها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام الثياب اليمانية، وكساها أبو بكر ثياباً لم تذكر المصادر نوعها[1]، وكساها عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي من مصر[2].

وقد كان المسجد الحرام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا جدار يحيط به ولا باب يغلق عليه، وبقي المسجد على حاله في خلافة أبي بكر الصديق، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتحديدا سنة ١٧هـ بدأت أعمال التوسعة الأولى للمسجد الحرام، بعدما أفسد سيل أم نهشل مباني المسجد الحرام، وقد انحدر من جانب المسعى وأحدث تلفاً عظيماً في المباني، ولضيق المسجد بالمصلين رغب عمر بتوسعة المسجد، فاشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دورا فهدمها، وهدم على من قرب

(١) مطر: فوزية حسين، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٨٧.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٣٥٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٢٣٨؛ باسلامة: حسين عبد الله تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، تهامة، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٢٤٤-٢٥٠. (والقباطي ثوب رقيق أبيض منسوب إلى قبط مصر، أما الوصائل فهي ثياب حمراء مخططة يمانية، كذلك الحبرات جمع حبرة وهي ثياب يمانية، أيضاً العصب برود يمنية يُعصب غزلها أي يُجمع ويشد، والأنماط نوع من البسط واحدها نمط). انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٢٣٨.

من المسجد وأبى بعضهم أن يأخذ الثمن، وتمنع من البيع، فوضعت أثمانها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد، ثم أحاط عليه جدارا قصيرا، وقال لهم عمر: إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها، ولم تنزل الكعبة عليكم، وأقام جداراً حوله، وجعل له أبوابًا، ووضع عليه مصابيح كي تضيء بعد سدول الظلام، وعمل سداً لحجز ماء السيول عن الكعبة، وتعتبر أعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هي أول توسعة للمسجد الحرام في العصر الإسلامي(١).

واستمر المسجد الحرام على ما كان عليه إلى سنة ٢٦ هجرية أي: في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث بدأت أعمال التوسعة الثانية للمسجد الحرام، وكانت بعد التوسعة الأولى بحوالي عشر سنوات، وذلك عندما رأى الخليفة عثمان بن عفان ازدياد السكان بمكة، وازدياد الحجاج، فقرر توسعة المسجد الحرام، وبدأت أعمال التوسعة في سنة ٢٦هـ، وذلك عن طريق شراء الدور الملاصقة للمسجد وضم أرضها، ومع هذه التوسعة جدد المسجد تجديداً شاملاً، وأدخل الأروقة المسقوفة، فكان أول من اتخذ الأروقة له، وجعل في المسجد أعمدة من الرخام(٢).

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٥٩٣؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٥٧.

(٢) الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٥٨؛ باسلامة: حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م - تهامة، ص١١ - ١٦.

وحدث النمو العمراني لمكة نتيجة توسعة المسجد الحرام، فنتج عن الزيادة السكانية وازدياد أعداد الحجاج والمعتمرين؛ وثم تمت توسعات متعاقبة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأن توسعات المسجد الحرام المتعاقبة تعني توسعة المدينة نحو الأطراف، لأن من يهدم بيته يقوم بالبناء في مكان أبعد عن الكعبة أو أن يشتري منزلاً مشرفاً على الساحة المحيطة بالكعبة المشرفة لتوفر المال لديه والحاصل من التعويض، لأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع قاعدة لتقدير أسعار الأرض والعقار في المنطقة المحيطة بالكعبة المشرفة، فلم يربط ثمن العقار أو قيمته بحسب القرب من الكعبة أو البعد عنها، وذلك حين رأى أن المسجد لا يسع جموع المصلين، فاشترى بعض الدور المحيطة بالمسجد وهدمها وأدخل مساحتها في المسجد الحرام، واحتج بعض المُلاك وتمنّعوا من استلام ثمن التعويض لدورهم المنزوعة ملكيتها لصالح أول توسعة للمسجد الحرام، فوضع أثمانها في خزانة الكعبة وقال لهم: «إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم»[(1)]، فكانت نتيجة التوسعات المتعاقبة للمسجد الحرام أن ساهمت في زيادة رقعة المدينة، وتطور عمرانها، فزادت كثافة البيوت والمنازل حول المسجد الحرام لأن غالبية السكان يفضلون السكن بالقرب منه، ولقد أخذ

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٥٩٣.

وسط أم القرى شكل المدينة المكتظة، والأطراف للقبائل التي تنزلها تؤدي دور الضواحي للمدينة. وتُقَدر مساحة مكة المكرمة في نهاية العهد الراشدي بحدود ١٦ هكتاراً(١).

* أعمال الخلفاء الراشدين بمكة المكرمة:

واهتم الخلفاء الراشدون بأمر توفير المياه لأهل مكة من الآبار التي حفرت قبل الإسلام، وأحدثوا بعض الآبار(٢). وجراء سيل وقع أثناء خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وامتد للحرم واقتلع مقام إبراهيم عليه السلام، وهدم بعض الدور وملاء آبار مكة بالمياه، أمر الخليفة بعمل ردم في أعلى مكة، وقد بني هذا الردم بصخور كبيرة للحيلولة دون هجوم السيول على الحرم المكي، وأمر بإعادة بناء الدور التي خربها السيل، وقام الخليفة بإعادة مقام إبراهيم إلى مكانه مستدلاً بأحد سكان مكة وهو المطلب بن وادعة السهمي(٣).

وتبرز سياسة الدولة ورعايتها لمكة وأهلها؛ في اتخاذ ميناء جُدة ميناءً

---

(١) مرزا: معراج نواب: أثر التنمية على التغيرات المكانية بمدينة مكة المكرمة، نشرت هذه الورقة العلمية في كتاب الملتقى الرابع للجغرافيين العرب، الجمعية الوطنية للجغرافيين المغاربة، الرباط، ٢٠٠٩م، ص٦ ـ ٧.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٤٣٦ ـ ٤٤٨.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٥٣٦، ج٢، ص٧٥٧.

لأهل مكة، بعد أن كان ميناء الشعيبة هو ميناء أهل مكة في الجاهلية والإسلام، حتى عهد الخليفة عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وفي عهده شجعته قريش على اتخاذ جُدة ميناءً وبندراً رئيسيًا لمكة بدل الشعيبة لقربها من مكة، فخرج بنفسه رضي الله عنه إلى جُدة واغتسل من البحر وأمر من معه بالغسل منه، وأمر بنقل البندر إليه، وكان ذلك في العام السادس والعشرين من الهجرة(١).

ونمت التجارة في العهد الراشدي، وكانت تمارس في أماكن مخصصة ومعروفة أطلق عليها اسم السوق، والسوق له أنظمة وقوانين وهيئة أشراف، فالسوق هو المحطة النهائية لعملية التبادل التجاري أو لحركة البيع والشراء، وعرفت الأسواق قديمًا، وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة بعد الفتح، وتفقد الخلفاء الراشدون أسواق مكة بأنفسهم(٢).

* * *

---

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٢٣١؛ والفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج١، ص١٨٢؛ وانظر: الحارثي: الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، ص١٢٤.

(٢) لمزيد التفاصيل عن البيع والشراء والتجارة والأسواق في صدر الإسلام، انظر: الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية»، ج٢، ص٨ ـ ٣٠.

الباب الثاني
التحولات التاريخية للقدس

* الفصل الأول: عوامل التحولات التاريخية في القدس.
* الفصل الثاني: مظاهر التحولات التاريخية في القدس.

الفصل الأول
عوامل التحولات التاريخية في القدس

*** توطئة:**

التخطيط للوصول إلى القدس وضمها للكوكبة المقدسة (مكة والمدينة)، تم بتقدير رباني إلهي علوي من الله سبحانه وتعالى، وتخطيط نبوي محمدي صلى الله عليه وآله وسلم ـ استراتيجي ـ[1]؛ يتسامى على المكان والزمان؛ فكان الاهتمام الإسلامي النبوي المحمدي المكي بالقدس يتدرج، بل يسبح في فضاءات أرضية سماوية؛ ساعياً لتحقيق

---

(١) التخطيط الاستراتيجي: هو التخطيط بعيد المدى يأخذ في الاعتبار المتغيرات الداخلية والخارجية، وتحديد الغايات والأهداف، وتحديد البدائل، ويُعنى بإيجاد الترابط والتناسق بين الأهداف الاستراتيجية والمرحلية والأهداف قصيرة الأجل، وكذا الترابط والتناسق بين الأهداف والتشريعات والسياسات الاستراتيجية، وتحقيق التكامل بين كل منها بما يضمن أن كافة الجهود المتناثرة تصب تجاه تحقيق الغايات المحددة بأفضل السبل والتكاليف وذلك في ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمهددات والمخاطر والتطورات العلمية محلياً وإقليمياً ودولياً. وانظر: محمد حسين أبو صالح، التخطيط الاستراتيجي القومي، (الخرطوم: شركة مطابع العملة، ٢٠١٠م)، ص٥٨.

الربط الإلهي بين المكانين المقدسين (مكة والقدس)، انطلاقـاً من رحلة الإسراء والمعراج السماوية الأرضية، إلى التخطيط الأرضي السياسي والعسكري من بعد صلح الحديبية؛ ليكتمل فيما بعد هذا العِقْد النبوي في الثلاثية المكانية المقدسة (مكة والمدينة والقدس) في العهد الراشدي.

* * *

المبحث الأول

من فضائل وأحكام القدس والمسجد الأقصى

* القدس: الموقع والصفة:

تقع القدس في منطقة جبلية بوسط فلسطين، وبالتحديد على خط عرض ٣١ ـ ٤٦ شمالاً وخط طول ٣٥ ـ ١٢ شرقًا، وهي تبعد نحو ٥٢ كم من البحر المتوسط و٢٢ كم عن البحر الميت و٢٥٠كم عن البحر الأحمر وقد أقيمت على أربعة جبال وهي «جبل موريا» (المختار) القائم عليه المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة و«جبل أكرا» و«جبل بزيتا» و«جبل صهيون» الذي يعرف باسم جبل داود ويحيط بالقدس العديد من الجبال والتلال كجبل الزيتون (الطور) و«بطن الهوا» و«سكويس» ومثل «تل الغول» و«تل الكابوس» و«تل النصبة» و«تل القرين» وتتخلل تلك الجبال والتلال العديد من الأودية مثل «وادي جهنم» و«وادي الجسور» (قدرون) و«وادي القلط»، ومن أهم هذه الأودية وادي ساباط أو وادي يهوشافاط الممتد بين جبل القدس حتى المسجد وقبة الصخرة وجبل الزيتون[1][2].

---

(١) بغدادي: رشاد محمود عبد المجيد، العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ص٤٧٧؛ شُرَّاب: محمد محمد حسن، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٣٧؛ رباح: إسحاق، تاريخ القدس عبر العصور، دار كنوز المعرفة العلمية ـ عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص٣٨.

(٢) **القدس عربية**: واليبوسيون هم أول من بنوا وسكنوا مدينة القدس، وكان ملكهم =

ويصف ابن حوقل[1] (ت ٣٦٧هـ) القدس فيقول: «مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كلّ مكان يقصدها القاصد من فلسطين، وببيت المقدس مسجد[2] ليس في الإسلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته

= المعروف باسم «ملكي صادق» يسكنها على أيام إبراهيم عليه السلام، ولكن لا يعرف متى تم بناؤها بالتحديد، فأسفار العهد القديم (التكوين ١٤ : ١٨) تذكر فقط أن «ملكي صادق كان معاصراً لإبراهيم الخليل عليه السلام، والذي سبق أن أشرنا أنه عاش في الفترة (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق. م) وإن كان هناك من حدد له الفترة (٢٢٦١ ـ ١٩٨٦ ق. م)، وعليه فإن بناءها يكون قد تم قبل هذه الفترة التاريخية، وتدل الحفريات التي اكشفت حديثاً على وجود سور للمدينة يعود تاريخه إلى منتصف العصر البرونزي الثاني وفي حوالي ١٨٠٠ ق. م. كما عثر على فخار في موقع المدينة التي بناها اليبوسيون يعود تاريخه إلى عام ٣٢٠٠ ق. م، وربما أقدم من ذلك بكثير في حين أن هناك من يرى أن مدينة القدس كانت موجودة خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. العارف: عارف باشا، تاريخ القدس، الطبعة الثانية، ١٩٥١م، دار المعارف، ص١١؛ ظاظا: حسن: القدس مدينة الله أم مدينة داود، ١٩٧٠م، مطبعة جامعة الإسكندرية، ص٩؛ بغدادي: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، رسالة دكتوراه، ص٤٧٨؛ شُرَّاب: محمد محمد حسن بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٥٥، ٤٤؛ رباح: تاريخ القدس عبر العصور، ص٢٨.

(١) ابن حوقل: أبو القاسم ابن حوقل النّصيبي، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، سنة ١٩٣٨، ص١٧١.

(٢) المقصود مسجد قبة الصخرة.

مسقّف في زاوية من غربي المسجد، ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد والباقي من المسجد خال لا بناء فيه، إلّا موضع الصخرة، فإنّ هناك حجراً مرتفعًا كالدكّة عظيم كبير غير مستو، وعلى الصخرة قبّة عالية مستديرة الرأس قد غُشّيت بالرصاص الغليظ السمك، وارتفاع هذه الصخرة من الأرض التي تعرف بصخرة موسى تحت هذه القبّة...، وعليها حصار حائط ملوّح ويكون نصف قامة ومساحة الحجر بضع عشرة ذراعًا في مثلها وينزل إلى باطن هذه الصخرة بمراق من باب يشبه السرداب... وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا ينتفع الزروع بها، وفي سورها موضع يعرف بمحراب داؤود النّبيّ عليه السلام، وهو بنية مرتفعة ارتفاعها نحو خمسين ذراعا من حجارة وعرضها نحو ثلاثين ذراعًا..، وبأعلاه بناء كالحجرة وهو المحراب الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[1]، وإذا وصلت إلى بيت المقدس، من الرملة فهو أوّل ما يلقاك وتراه من بيت المقدس وبمسجدها لعامّة الأنبياء آثار ومحاريب معروفة».

قال المقدسي البشاري[2] (ت ٣٩١هـ) في وصف مدينة القدس: ليس في المدائن أكبر منها.. وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة، عليها حصن

(١) سورة ص، آية رقم (٢١).

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص١٦٥.

بعضه على جبل وعلى بقيته خندق..، وهي مدينة لا شديدة البرد وليس بها حرٌّ، وقلَّ ما يقع بها ثلج، وسألني القاضي.. عن الهواء بها؟ فقلت: سجسج[1]، لا حرٌّ ولا بردٌ شديد، قال: هذا صفة الجنة. بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعفّ من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.

وبيت المقدس: فيه لغتان مشهورتان: إحداهما: فتح الميم، وإسكان القاف، والثانية: ضم الميم وفتح القاف، وأصل المقدس والتقديس من التطهير. قال ابن حزم: بيت المقدس؛ نعني: المسجد وحده، هذا قول جمهور العلماء[2].

والقدس لأنه يتقدس منه أي: يتطهر. قال ومن هذا: بيت المقدس، كذا ضبطه بفتح أوله وسكون ثانيه وتخفيف الدال وكسرها، أي: البيت

---

(١) يوم سَجْسَجٌ بوزن جعفر: لا حر فيه ولا برد، الرازي: مختار الصحاح، ص١٢١.

(٢) ابن حزم: المحلى بالآثار، ج٥، ص٥٢٣؛ الأنصاري (ت٧٦١هـ): تحصيل الأنس لزائر القدس، ص١٣٥؛ العلامة الشريف أبي نصر تاج الدين عبد الوهاب بن عمر العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، تحقيق: أبي الحسن عبد الله الشبراوي الوراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ج١، ص١١٦-١١٩.

المقدس المطهر الذي يتطهر به من الذنوب[(١)].

لقد نص الله تعالى على قدسية هذه الأرض في كتابه الكريم، فقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[(٢)] المقدسة في الآية بمعنى المطهرة، وقيل: بمعنى المباركة، والمعنى الأول أصح لأن أصل التقديس التطهير، فالقدس بمعنى الطهر، ويقال للسطل الذي يتطهر به قدس، وقال تعالى ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾[(٣)]: أي نطهر أنفسنا لك. ومن هذا بيت المقدس ـ كما قال الزجاج والجوهري، و«التقديس التطهير الإلهي المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾[(٤)] دون التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة، والبيت المقدس: هو المطهر من النجاسة أي: من الشرك، وكذلك الأرض المقدسة قال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[(٥)] وحظيرة القُدْسِ. قيل: الجنّة. وقيل: الشّريعة. وكلاهما صحيح، فالشّريعة حظيرة

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٦٦.

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٢١).

(٣) سورة البقرة، آية رقم (٣٠).

(٤) سورة الأحزاب، آية رقم (٣٣).

(٥) سورة المائدة، آية رقم (٢١).

منها يستفاد القُدْسُ، أي: الطّهارة.»[1].

أما أسماء بيت المقدس والمسجد الأقصى فكثيرة، دالة على مآثره الغزيرة: منها المسجد الأقصى، لأنه أبعد المساجد التي تزار ويبتغى بها الأجر من المسجد الحرام، أو لبعده عن الأقذار الحسية والمعنوية، ومسجد إيلياء، ككبرياء أي: بيت الله المقدس، وبيت المقدس كمعبد، أي: المطهر للذنوب، مشتق من القدس وهي الطهارة، والبيت المقدس بضم الميم وتشديد الدال [أي:] المطهر من الأصنام والصلبان، والقدس بسكون الدال وتحريكها اسم ومصدر، وبيت المقدس بضم الدال وسكونها وسلم بالمهملة، معناه بيت السلام، لكثرة سلام الملائكة فيه، وكورة إيلياء وإلياء، وإيليا، ومعناه بيت الله المقدس، وأوشلم بضم الهمزة وفتح الشين وكسر اللام وأوشليم وأورشليم وشلم بالمعجمة مشددة وشلم، وبيت إيل أي بيت الرب، وصهيون، وقصروث، وبابوش،

---

(١) النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ): تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ج٤، ص١٠٩؛ الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٢هـ، ص٦٦٠.

وكورشلاة، وأزيل، وصلون، ويقال لبيت المقدس: الزيتون ولا يقال له: الحرم[1].

ويحدد ابن تيمية موقع المسجد الأقصى، بقوله: «ولهذا بنى عمر بن الخطاب مصلى المسلمين في مقدم المسجد الأقصى. فإن «المسجد الأقصى» اسم لجميع المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام، وقد صار بعض الناس يسمي الأقصى المصلى الذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقدمه، والصلاة في هذا المصلى الذي بناه عمر للمسلمين أفضل من الصلاة في سائر المسجد... وأما أهل العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظمون الصخرة، فإنها قبلة منسوخة، كما أن يوم

(١) ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): فضائل القدس، ص٦٧؛ ضياء الدين المقدسي الحنبلي (٦٤٣هـ)، فضائل بيت المقدس، ص٤٧؛ الأنصاري (ت٧٦١هـ): تحصيل الأنس لزائر القدس، ص١٢٩ ـ ١٣٥، شهاب الدين بن تميم المقدسي (ت٧٦٥هـ): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص١٣١؛ عبدالوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص١١٦ ـ ١١٩؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص٩٣ ـ ١١١؛ مجير الدين العليمي (ت٩٢٨هـ): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص٦٩، الرومي (٩٨٢هـ): المستقصى في فضل زيارات المسجد الأقصى، ص١١١ ـ ١١٥؛ اللقيمي (ت ١١٧٨هـ): لطائف الأنس الجليل في تحائف القدس والخليل، ص٤٨.

السبت كان عيدا في شريعة موسى عليه السلام ثم نسخ في شريعة محمد ﷺ بيوم الجمعة، فليس للمسلمين أن يخصوا يوم السبت ويوم الأحد بعبادة كما تفعل اليهود والنصارى، وكذلك الصخرة إنما يعظمها اليهود وبعض النصارى»(١).

فالمسجد الأقصى يشمل الأسوار نفسها وما في داخلها من بناء أيـًا كانت وظيفته للصلاة أو التعليم أو الوضوء أو المآذن والبوابات وأي غرض آخر والساحات المبلطة وغير المبلطة والمزروعة وغير المزروعة بالأشجار، فكل ما في داخل السور والسور نفسه هو من المسجد الأقصى المبارك، ولذلك نص فقهاء المسلمين على أن ركعتي تحية المسجد الأقصى تجوز في أي مكان منه ولو تحت شجرة أو في ظل السور، وأن أجر الصلاة في أي ناحية من نواحيه تعدل خمس مائة ركعة مما سواه إلا الحرمين الشريفين، لأنها كلها تعتبر جزءاً من المسجد الأقصى وليس المسجد الأقصى فقط المسجد المسقوف سواء المسجد القبلي أو قبة الصخرة، ومما يؤكد هذا المفهوم الواسع للمسجد الأقصى وأنه كل ما دار عليه السور، أن القرآن الكريم أخبرنا أن الله عز وجل أسرى بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٢٧، ص١١.

في القدس فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١) فسمى الله عز وجل كل تلك الساحة المسورة بالمسجد الأقصى، ومعلوم أن تلك الساحة زمن الإسراء وهو قبل الهجرة بسنتين تقريباً، لم يكن فيها المسجد القبلي ولا قبة الصخرة!(٢).

* فضائل القدس والمسجد الأقصى:

تحولت القدس بما أظهره الله لها من الفضائل والأحكام إلى ما ارتضاه الله لها من القدسية في دين الإسلام وعلى يد المسلمين، وقد ورد في فضل بيت المقدس آيات وأحاديث كثيرة، فهي أرض الإسراء والمعراج وأرض الصلاة، وهي مقر الأنبياء ومهبط الوحي، فيها وقعت حروب ومعارك ونزاعات، فهي أرض الجهاد المقدس، وهي الأرض الطيبة المباركة منامها طيب وتربتها مباركة، وهي أرض الفضائل والبركات، وما ورد في فضلها كثير، لأنها أرض التقديس والبركة: فهي لا تُذكر في كتاب الله

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٢) شهاب الدين بن تميم المقدسي (ت٧٦٥هـ): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص١٣١؛ عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص١٢٧؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص٩٣، ١٩١.

إلا مقرونة بوصف البركة أو التقديس[(١)].

وسبق أن وردت جملة من فضائل وأحكام القدس والمسجد الأقصى في ثنايا مباحث الفصل الثاني، وأورد هنا بعضها لتناسبها مع هذا المبحث.

فالمسجد الأقصى ثاني مسجد بالأرض، أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ««الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»...».

---

(١) ولمزيد من التفاصيل عن فضائل بيت المقدس وأحكامه، انظر: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): فضائل القدس، ص٦٧؛ ضياء الدين المقدسي الحنبلي (٦٤٣هـ)، ص٤٧؛ الأنصاري (ت٧٦١هـ): تحصيل الأنس لزائر القدس، ص١٢٩ ـ ١٣٥؛ شهاب الدين بن تميم المقدسي (ت٧٦٥هـ): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص١٣١؛ بن عمر العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص١١٦ ـ ١١٩؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص٩٣ ـ ١١١؛ مجير الدين العليمي (ت٩٢٨هـ): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص٣٦٠؛ الرومي (٩٨٢هـ): المستقصى في فضل زيارات المسجد الأقصى، ص١١١؛ اللقيمي (ت ١١٧٨هـ): لطائف الأنس الجليل في تحائف القدس والخليل، ص٤٨.

ولم يكن المسجد الأقصى يحمل هذا الاسم قبل نزول قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1] فالله جل شأنه هو الذي سمَّاه هذا الاسم، والأقصى بمعنى الأبعد، أي: الأبعد عن مكة، وهي أول مرة يذكر فيها، وبعدها عرف عند المسلمين بهذا الاسم. وفي ذلك فضل، ما بعده فضل، لبيت المقدس والمسجد الأقصى.

وقال ابن كثير: بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام. ولهذا جمعوا له كلهم، فأَمَّهم في محلتهم ودارهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدس، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين[2]. قال عطاء الخراساني: بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء، ووالله ما فيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبي[3].

وانطلاقاً من تلك الإمامة، فإن كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلَّى بالأنبياء، وكلهم صلّوا خلفه مأمومين، فهذا يدل على أنَّ شريعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناسخةٌ لجميع شرائع الأنبياء السَّابقين، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٢) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٣.

(٣) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص٢٨٣.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[1]، فالتَّنزيل الآخِر ـ وهو القرآن العظيم ـ حاكمٌ ومهيمنٌ على جميع الكتب السَّابقة، فليس لأحدٍ من الخلق أن يتدين بأديان الأنبياء السَّابقين، وإنما عليه أن يتدين بدين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيهما أفضل مسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه ولنعم المصلى هو، وليوشكن أن يكون للرجل مِثْل شطن فرسه من الأرض حيث يَرى منه بيت المقدس؛ خير له من الدنيا جميعًا»[2].

* بركة القدس القرآنية:

لقد مرت البركة الربانية لأرض فلسطين «القدس وبيت المقدس» بعدة مراحل تاريخية أشارت آيات القرآن الكريم إلى ست مراحل منها، وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام قادمين من العراق

---

(١) سورة المائدة، آية رقم (٤٨).

(٢) الحاكم في مستدركه: ج٤، ص٥٠٩؛ وصححه ووافقه الذهبي والألباني كما في «السلسلة الصحيحة»، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض، في آخر الكلام على حديث رقم (٢٩٠٢)، ج٦، ص٩٤٦.

كما في قوله تَعَالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

المرحلة الثانية: البركة التي جعلها الله على إبراهيم وابنه إسحاق عليهما وذريتهما الصالحة عندما أقاما في الأرض المباركة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[(٢)].

المرحلة الثالثة: توريث الله المؤمنين من بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، كما في قوله تَعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[(٣)].

المرحلة الرابعة: حكم سليمان عليه السلام لهذه الأرض المباركة وانتشار الخير والنماء فيها كما قال سبحانَه وتعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾[(٤)].

المرحلة الخامسة: انتشار القرى الظاهرة العامرة بين هذه الأرض وبين

---

(١) سورة الأنبياء، آية رقم (٧١).

(٢) سورة الصافات آية رقم (١١٢ ـ ١١٣).

(٣) سورة الأعراف، آية رقم (١٣٧).

(٤) سورة الأنبياء، آية رقم (٨١).

اليمن، أثناء حكم سليمان عليه السلام مظهر من مظاهر الحكم بشرع الله كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾[1]. وهي قُرى بيتِ المقدس.

المرحلة السادسة: تبدأ بوقوع حادثة الإسراء والمعراج، ثم بفتح القدس على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووراثة الأمة لحكمها. كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[2]، وأن التعبير عن البركة الربانية بالفعل المادي «باركنا» يدل على ثبوت واستقرار البركة لهذه الأرض، ولأن الفعل الماضي يفيد الثبات والاستقرار، فالله سبحانه قد شاء استقرار البركة في هذه الأرض وجعلها ثابتة فيها. ولهذا ستبقى هذه البركة شاملة مستقرة فيها، على اختلاف فترات التاريخ، ولن ينجح الأعداء في انتزاعها وتفريغها مهما بذلوا من جهود في ذلك، وستبقى لها هذه البركة حتى قيام الساعة[3].

---

(١) سورة سبأ، آية رقم (١٨).

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٣) قراقيش: نجوى بدر، بيت المقدس وأحكامه، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ، مؤسسة الفرسان - عمان - الأردن، ص١٩ - ٢١؛ نصار: مروح موسى: مكانة الأقصى وبيت المقدس، مجلة البيان، التاريخ: ٢٦/ ٠١/ ٢٠١٤م.

* صخرة بيت المقدس:

ويبين ابن القيم شأن الصخرة بقوله: (وَمِنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ الَّذِي يُرْوَى فِي الصَّخْرَةِ أَنَّهَا عَرْشُ الله الأَدْنَى تَعَالَى الله عَنْ كَذِبِ الْمُفْتَرِينَ. وَلَمَّا سَمِعَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ هَذَا قَالَ: «سُبْحَانَ الله يقول الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1]، وتكون الصخرة عرشه الأدنى، وكل حديث في الصخرة فهو كذب مفترى، والقدم الذي فيها كذب موضوع مما عملته أيدي المزورين، وأرفع شيء في الصخرة أنها كانت قبلة اليهود، وهي في المكان كيوم السبت في الزمان أبدل الله بها هذه الأمة المحمدية الكعبة البيت الحرام)[2].

* * *

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٥٥).

(٢) ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: يحيى بن عبد الله الثمالي، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي - جدة، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ص٧٩.

المبحث الثاني

سورة الروم والإخبار بالحرب الفارسية الرومية؛ ومستقبل القدس

أخبر القرآن المكي في سورة الروم بتحول هزيمة الروم إلى نصرٍ في بلاد الشام: قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[1].

ويؤكد القرطبي[2] في تفسيره: أن سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهي ستون آية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ..﴾ قال: غَلَبَتِ وغُلِبَتِ، قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب؛ فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك

---

(١) سورة الروم، آية رقم (١ ـ ٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٥.

أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ألا جعلته إلى دون ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ..﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب(١)، وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سر الكفار، فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون، وتكون الدولة لهم في الحرب، والحديث يدل على أن القراءة (غُلبت) بضم الغين، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الروم غلبتها فارس، فأخبر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، وأن المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز

(١) تخريج الحديث للمحقق (عبد الرزاق المهدي) في الحاشية: صحيح. أخرجه الترمذي ٣١٩٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٨٩ والطبري ٢٧٨٦٥ وأحمد ١/ ٣٠٤ من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح على شرطهما، وهو متصل الإسناد، وقال الترمذي: حسن صحيح. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٥.

وجل به مما لم يكن علموه، قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح، وأجمع الناس على (سيغلبون) أنه بفتح الياء، يراد به الروم، قلت: ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك، فسروا بظهورهم على عدوهم وبظهور الروم أيضاً، وبإنجاز وعد الله، قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها. وقيل: من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء، قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأن كلامه صدق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون وهم الكفار وهم أكثر. وقيل المراد: مشركو مكة[1].

ويقول ابن كثير: وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غُلِبَتِ الروم بين أذرعات وبصرى[2]، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما،

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص٥ ـ ١٠.

(٢) عُرفت درعا قديماً باسم أذرعات، وأذرعات كأنه جمع أذرعة، جمع ذراع جمع قلة: وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، وقال الحفاظ أبو القاسم: أذرعات مدينة بالبلقاء. وذكرها امرؤ القيس في شعره فقال:

ومثلك بيضاء العوارض طفلة ... لعوب تنسيني إذا قمت سربالي
تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

ومن آثار مدينة درعا أو أذرعات الآثار الرومانية واليونانية القديمة والتي =

وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز(١).

*** النصر الفارسي على الروم البيزنطيين يتحول إلى هزيمة مدوية:**

وحرص الفرس على إحداث تغييرات في التركيبة الرومانية والمسيحية البيزنطية للقدس خاصة وفلسطين عامة: فقد قام كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨م) Khosrau II باستغلال نزاع على السلطة في الإمبراطوريةِ البيزنطية، وانطلق مع جيوشه باحتلال شامل للأراضي البيزنطية ضد ملك الروم فوكاس Phocas. فقد كان حلم كسرى الثاني هو إعادة حدود الإمبراطورية الأخمينية السابقة، ويذكر أرثر كريستنسن: أن كسرى اتخذ من مقتل الإمبراطور موريق على يد فوكاس ذريعة لبدء حرب جديدة مع بيزنطة(٢).

فبدأت الحرب عام ٦٠٣م، (قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

= ما زالت قائمة حتى الآن.

وتقع مدينة بصري الشام في شرقي محافظة درعا (جنوب سورية) على مقربة من الحدود الأردنية. انظر: موسوعة المدن العربية، لآمنة أبو حجر، دار أسامة ـ عمان، عام ٢٠٠٢م.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٢٣؛ وانظر الأحداث مفصلة: الطبري: الأمم والملوك، ج١، ص٤٦٤ ـ ٤٦٩.

(٢) إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى خشاب، دار النهضة العربية ـ بيروت، ص٤٣٠.

بسبع سنين)[1] وفي عام ٦٠٨م وصلت جيوش الفرس في آسيا الصغرى إلى كريسبوليس المواجهة للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (أي: في الجانب الآسيوي)، وفي نفس الوقت تقدمت قبائل الآفار والسلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان لتطوق القسطنطينية من الجانب الآخر (الأوربي)، وغزت جيوش تلك القبائل كذلك عامة البلقان ووصلت إلى أثينا. وقد وسع الفرس رقعة ممتلكاتهم في الشام وأرمينيا. وفي عام ٦١٣م وصلت جيوشهم إلى دمشق. وانتصر الفرس في عدة معارك، منها معركة حاسمة في سهل حوران بين مدينتي بُصرى وأذرعات. وأخرى عند البحر الميت. ثم في العام التالي ٦١٤م زحف جيش القائد الفارسي شهربراز إلى إيلياء (القدس)؛ وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت روحهم المعنوية، حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع فجعلوا المدينة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام، ودمر الحريق كنيسة القيامة (القبر المقدس) ـ لدى المسيحيين ـ التي شيدها قنسطنطين الكبير. وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة، لا سيما أن الصليب المقدس «لدى المسيحيين» (صليب الصلبون)[2]؛ الذي

---

(١) الغامدي: علي محمد عودة: الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م، ص٤.

(٢) «صليب الصلبون أو الصلبوت» وهو صليبٌ ضخمٌ يزعمون أنه الذي صُلب =

يعتبر أثمن المقدسات الدينية عند المسيحيين، استولى عليه الفرس ونقلوه إلى عاصمتهم أكتسيفون (المدائن) Ctesiphon، واشترك اليهود مع الفرس فيما جرى من المذابح والنهب والسلب، ومن بين الأسرى الذين حملوا إلى فارس زكريا بطريرك بيت المقدس(١).

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ما ساد الشام وفلسطين من الأحوال الدينية يسّر على الفرس فتح البلاد، فالمعروف أن معظم السكان، لا سيما بالشام لم يدينوا بالمذهب الأرثوذكسي الذي يجد التأييد من قبل الحكومة المركزية. فتعرض النساطرة ثم المونوفيزتيون في الشام وفلسطين للاضطهاد من قبل الحكومة البيزنطية. فمن الطبيعي أن يؤثروا الخضوع للفرس الذين يعبدون النيران والذين اشتهروا بالتسامح الديني في بلادهم مع النساطرة، ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين، بل امتدت إلى آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور، تجاه القسطنطينية، وبذلك تعرضت

= عليه السيد المسيح، وهو افتراء ومخالف لما ورد في كتاب الله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

(١) العريني: السيد الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢. ص١١٨؛ عمر يحيى محمد: بيزنطة وفارس، قراءة جديدة لآخر جولات الصراع، بين القوتين العظميين في العصور الوسطى، مجلة الدرعية: السنة الثامنة، العدد الثاني والثلاثون، ذو الحجة ١٤٢٦هـ ـ يناير ٢٠٠٦م، ص٢١ ـ ٢٦.

العاصمة لزحف الفرس، وشرع الفرس في غزو مصر، فسقطت في أيديهم الإسكندرية سنة ٦١٩م، ولم تلبث مصر بأسرها أن سقطت في يد الفرس. وترتب على ذلك انقطاع القمح عن العاصمة البيزنطية، فأسهم ذلك في سوء الأحوال الاقتصادية بتلك العاصمة، فأصبح الفرس يسيطرون على معظم أرجاء الشرق الأدنى. غير أن ما أصاب الفرس من الهزيمة فاق في السرعة والشدة ما حدث من انهيار بيزنطة[١].

في تلك الفترة الحالكة على بيزنطة، انصرف الإمبراطور هرقل إلى القيام بإصلاحات بالغة الأهمية، وهبت الإمبراطورية قوة جديدة، فجعل هرقل أساس عمله تنظيم أقاليم الدولة، بما أدخله من نظام الأجناد، فاتخذت التنظيمات الجديدة طابعاً عسكرياً خالصاً، فكانت نتائج هذه الإصلاحات الشاملة تفسر ما جرى من تغيير في مسار الحرب ضد فارس في أوائل القرن السابع، فما تكبده الجيش البيزنطي من خسائر، لم يلبث أن عوضها بما أحرزه في ظل هذا التغيير من انتصارات باهرة. ولم تلبث الإمبراطورية المتداعية أن نهضت من جديد. كما أسهمت الكنيسة البيزنطية بقدر كبير فيما أحرزته الإمبراطورية في الفوز والنجاح، فجعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة التي خوت خزائنها من المال، فقرر هرقل أن يبدأ بقتال الفرس، وطغى على الحرب في مستهلها جو من

---

(١) العريني: الدولة البيزنطية، ص١١٩.

الحماس الديني لم يكن معروفاً في العصور السابقة، فتولى الإمبراطور بنفسه قيادة الجيش، وأبرم معاهدات مع خصومه الآخرين، ثم غادر العاصمة يوم الاثنين (٣) إبريل سنة (٦٢٢م) بعد أن أدى القداس، وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى، وعكف على دراسة الخطط الحربية، فابتكر أساليب جديدة، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال، وأبدى هرقل اهتماماً كبيراً بالرماة من الفرسان، فتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرض أرمينية، ونشبت بينهما معركة أحرز فيها الجيش البيزنطي نصراً حاسماً على الجيش الفارسي بقيادة شهرباراز، وبذلك تحقق أول أهداف هرقل، وهو تخليص آسيا الصغرى من الفرس[1].

وعلى الرغم من الهزيمة التي حلت بالفرس، إلا أن كسرى رفض الإقرار بالهدنة التي عقدها معه هرقل، وأرسل لهرقل كتاباً طفح بالشتائم والإهانات التي وجهها للمسيحية، فسار هرقل حتى بلغ أرمينيا، فاستولى على دوين عنوة، ثم خربها، ثم توجه ناحية الجنوب فزحف على جانزاك، التي كانت عاصمة لأردشير أول ملوك الساسانيين، وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسية في فارس، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة، التي لم تلبث أن سقطت في يد البيزنطيين.

---

(١) العريني: الدولة البيزنطية، ص١٢٠ ـ ١٢٥؛ وانظر: أرثر كريستنِسِنْ: إيران في عهد الساسانيين، ص٤٣٠ ـ ٤٣١.

وأشعل البيزنطيون الحرائق في معبد زرادشت انتقامًا لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من النهب والتخريب، ووقع في يدي هرقل عدد لا حصر له من الأسرى، وفي خريف سنة ٦٢٧م شرع الإمبراطور البيزنطي هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب متجهًا إلى قلب فارس، وكان هرقل على رأس جنده أوائل ديسمبر سنة ٦٢٧م أمام نينوى (قرب الموصل الحالية على نهر دجلة)، وفي هذا الموضع نشبت المعركة الحاسمة، التي قررت مصير النزاع بين الفرس والبيزنطيين؛ إذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً، وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة، وخسارة فادحة. ثم واصل هرقل زحفه المظفر، وفي أول سنة ٦٢٨م استولى على داستاجرد، مقر ملك فارس فأسرع بالخروج منها، لوقوع حوادث داخلية بفارس إذ جرى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم من بعده ابنه قباد شيرويه، فلم يلبث أن عقد الصلح مع الإمبراطور البيزنطي. وبمقتضى هذا الصلح، استردت بيزنطة كل ما كان لها من ممتلكات فضلاً عن أرمينيا، وما كان للبيزنطيين من أملاك بالجزيرة، وسوريا وفلسطين ومصر، وعاد هرقل إلى عاصمته، بعد أن غاب عنها ست سنوات، وفي عام ٦٣٠م، توجه إلى بيت المقدس في ٢١ مارس فأقام الصليب المقدس «لدى المسيحيين» في موضعه[1].

---

(١) العريني: الدولة البيزنطية، ص١١٨ ـ ١٢٨؛ وانظر: أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ص٤٣٢.

ويتجلى جانب إعجازي آخر في هذه الآيات، وهي أنها تقرر حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت. فالآية الثالثة من سورة الروم تخبرنا أن الرومان كانوا قد خسروا المعركة في أدنى منطقة من الأرض. وتعبير «أدنى الأرض» في العربية يعني حسب بعض التفاسير مكاناً قريباً، ولكن هذا التفسير تفسير مجازي، لأن كلمة أدنى لم تأت في هذه الآية بهذا المعنى. فكلمة أدنى باللغة العربية مشتقة من دني، ومعناها منخفض، والأرض تعني العالم. ولذلك فإن أدنى الأرض معناها أكثر الأمكنة انخفاضاً في العالم[1].

وهذا النصر بدا مستحيلاً في أعين العرب المشركين إلى درجة دفعت بهم إلى السخرية من هذه الآيات القرآنية، وظنوا أن هذا النصر الموعود في القرآن لن يتحقق. وبعد ما يقارب السبع سنوات من نزول الآيات الأولى من سورة الروم، وفي الشهر الثاني عشر من عام ٦٢٧م وقعت معركة حاسمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قرب خرائب نينوى[2]،

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٢٤؛ هارون يحيى: المعجزات القرآنية، ص٦٩.

(٢) نِيْنَوَى: بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو، وهي قرية يونس بن متى عليه السلام، بالموصل، ياقوت: معجم البلدان، حرف النون، ج٥، ص٣٣٩. وهي محافظة في شمال العراق ومركزها الموصل التي تعد ثاني أكبر مدن العراق وتبعد عن بغداد ٤٦٥ كم. انظر للتفاصيل: فرنسيس: بشير يوسف، موسوعة المدن والمواقع في العراق، إصدارات: إي ـ كتب، لندن، ٢٠١٧م، ص٩٧٣.

وفي هذه المرة هَزم البيزنطيون الفرسَ هزيمة غير متوقعة وربحوا المعركة، وبعد أشهر قليلة توصل الفرس إلى معاهدة مع الروم أجبرتهم على إعادة الأراضي التي استولوا عليها. في نهاية الأمر فإن نصر الروم الذي أعلنه الله في القرآن الكريم تحقق تحققًا كاملاً[1].

*** آية التحول.. غاية الإعجاز:**

في تلك اللحظات التي هُزم فيها الروم «البيزنطيين» نزلت الآيات الأولى من سورة الروم لتعلن أن الإمبراطورية البيزنطية سوف تحرز النصر في غضون بضع سنوات من هزيمتها، وهذا النصر بدا مستحيلاً في أعين العرب المشركين إلى درجة دفعت بهم إلى السخرية من هذه الآيات القرآنية، وظنوا أن هذا النصر الموعود في القرآن لن يتحقق. وبعد ما يقارب السبع سنوات من نزول الآيات الأولى من سورة الروم، وفي الشهر الثاني عشر من عام ٦٢٧م وقعت معركة حاسمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قرب خرائب نينوى[2]. وفي هذه المرة هَزم البيزنطيون الفرسَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٢٣؛ وانظر الأحداث مفصلة: الطبري: الأمم والملوك، ج١، ص٤٦٤ ـ ٤٦٩.

(٢) نِيْنَوَى: بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو، وهي قرية يونس بن متى عليه السلام، بالموصل، ياقوت: معجم البلدان، حرف النون، ج٥، ص٣٣٩. وهي محافظة في شمال العراق ومركزها الموصل التي تعد ثاني أكبر مدن العراق وتبعد عن بغداد ٤٦٥ كم.

هزيمة غير متوقعة وربحوا المعركة، وبعد أشهر قليلة توصل الفرس إلى معاهدة مع الروم أجبرتهم على إعادة الأراضي التي استولوا عليها. في نهاية الأمر فإن نصر الروم الذي أعلنه الله في القرآن الكريم تحقق تحققاً كاملاً[1].

ويتجلى جانب إعجازي آخر في هذه الآيات، وهي أنها تقرر حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت. فالآية الثالثة من سورة الروم تخبرنا أن الرومان كانوا قد خسروا المعركة في أدنى منطقة من الأرض. وتعبير «أدنى الأرض» في العربية يعني حسب بعض التفاسير مكاناً قريباً، ولكن هذا التفسير تفسير مجازي، لأن كلمة أدنى لم تأت في هذه الآية بهذا المعنى. فكلمة أدنى باللغة العربية مشتقة من دني، ومعناها منخفض، والأرض تعني العالم. ولذلك فإن أدنى الأرض معناها أكثر الأمكنة انخفاضاً في العالم. والمثير للاهتمام أن أهم مراحل الحرب التي خيضت بين الروم والفرس وأسفرت عن هزيمة الروم وخسارتهم للقدس، حصلت في أكثر مناطق العالم انخفاضاً في حوض البحر الميت الذي يقع في منطقة تتقاطع فيها كل من سوريا والأردن وفلسطين ويبلغ مستوى سطح الأرض هنا ٣٩٥م، تحت سطح البحر، مما يجعل هذه المنطقة فعلاً أدنى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٢٣؛ وانظر الأحداث مفصلة: الطبري: الأمم والملوك، ج١، ص٤٦٤ ـ ٤٦٩.

منطقة من الأرض. وأهم ما في الأمر أن ارتفاع البحر الميت لم يكن ليقاس في غياب تقنيات القياس الحديثة، ولذلك كان من المستحيل أن يعرف أي شخص في ذلك الوقت أن هذه المنطقة أكثر المناطق انخفاضاً في العالم، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة ذكرت في القرآن وهذا يقطع بجلاء على أن القرآن هو وحي يوحى من رب العالمين(١).

* عوامل التحول الفكري:

ومما قد يُستنبط من هذه الآيات الكريمات في سورة الروم:

يقول الطاهر بن عاشور: أن سبب نزولها على ما سر المشركين من تغلب الفرس على الروم، فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحداهم بأن العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة. ثم تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله، ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأن من ابتغى غيره دينا فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنى له ذلك. (أما إنهم سيغلبون)، ونزلت هذه الآية فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة الـم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٤٢٤؛ هارون يحيى: المعجزات القرآنية، ص٦٩.

سنين، فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك قال: بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه. فسمى أبو بكر لهم ست سنين فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان فمضت ست السنين قبل أن يظهر الروم فأخذ المشركون رهن أبي بكر. وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ألا أخفضت يا أبا بكر، ألا جعلته إلى دون العشر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع»[1].

فظهر أن مشركي مكة كانوا يشعرون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم، ويقابلهم المسلمون كذلك شعروا أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان، وكانوا يُدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم، وتؤثر في قضية الكفر والإيمان، والاستنباط الآخر هو تلك الثقة المطلقة في وعد الله، وتجلت في مراهنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه للمشركين بنفاذ وعد الله للمسلمين بانتصار

---

(١) الطاهر بن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ، ج٢١، ص٤٧.

الروم في بضع سنين. وتلك الثقة الإيمانية هي لب عقيدة المؤمنين أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والاستنباط الثالث من تلك الآيات، هي تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر، من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، بهدف بناء قاعدة عقدية، تحقق تحولاً إيمانياً راسخاً بأن الأمر كله لله، فالنصر والهزيمة، وظهور الدول واندثارها، وضعفها وقوتها، شأنه شأن سائر ما يقع في الكون من أحداث ومن أحوال، قاعدته العقدية «الأمر كله لله»[1].

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى التي تحققت جراء هذه الحرب بين أقوى دولتين في العالم في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومع انبلاج فجر النبوة بالبعثة والدعوة ومن ثم الهجرة، والجهاد المبارك للمشركين، هي بلا شك؛ إشغال للقوتين الكبيرتين ببعضهما البعض عن التفكير في ما كان يجري في بلاد العرب من اصطفاء الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وإرساله للناس ليتمكن من نشر دعوته وغرس عقيدة التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى في نفوس أصحابه الكرام والتمكين لأمة الإسلام في المدينة، فتمكنت هذه الأمة بعد فترة وجيزة من وفاة نبيها الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم من إسقاط دولة فارس وهزيمة دولة

(١) الشحود: علي بن نايف: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ج١، ص١١٠.

الروم، وفتح كثير من البلاد التي كانت تخضع لها(١).

ولم يدم انتصار هرقل طويلاً فقد أعقبه مباشرة الفتح الإسلامي لمدينة إيليا في السنة الخامسة عشرة من الهجرة النبوية، وذلك في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢).

* * *

(١) الغامدي: الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم، ص٣.

(٢) بغدادي: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، ص٤٨٨.

المبحث الثالث

حادثة الإسراء والمعراج

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

كانت حادثة الإسراء والمعراج من عوامل التحول في تاريخ مدينة القدس؛ إذ كانت سبباً في صلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووصوله إليها والصلاة بمسجدها الأقصى، وأضحت ميدانًا لمعجزة كبرى من معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشاهداً على صحة نبوته، ودليلاً على إمامته، وإرهاصة[2] لوصول نور الإسلام إليها واستظلالها بظل دولة الإسلام، ولتبرز هذه الحادثة مكانة القدس في الإسلام، وقيمة مسجدها المسجد الأقصى، ثاني مسجد بني لعبادة الله في الأرض بعد المسجد الحرام، ولتؤكد العلاقة والتوأمة بين المسجدين، وقدرهما في دين الإسلام

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١). قال القرطبي: هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات.. الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٨٠.

(٢) والإرهاص: الإثباتُ. واستعمله أبو حنيفة في المطر فقال «وأما الفَرْغُ المقدَّم فإن نوءه من الأنواء المشهورة المذكورة المحمودة النافعة، لأنه إرهاصٌ للوسمي». قال ابن سيده «وعندي أنه يريد أنه مقدِّمةٌ له وإيذانٌ به»، ابن منظور: لسان العرب، مادة رهص، ج٢٠، ص١٧٥٣. واختيار الباحث لمعنى: المقدمة أو التمهيد.

وعند المسلمين؛ قدراً أكدته تعاليم الإسلام قرآنًا وسنة، ونفذه المسلمون على أرض الواقع، بدعوة أهلها، وفتح أرضها، ونشر الإسلام بينهم وإعلاء كلمة الله في بلادهم، ومعاملتها بما هي أهل له، بعد تحولها إلى الإسلام، وتحولها بالإسلام إلى ما أراده الله لها من المكانة عند الله وعند عباده.

وثبت الإسراء في كثير من مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش: أن ممن رواه عشرين صحابياً[(١)].

فحادثة الإسراء والمعراج من أكثر حوادث السيرة روايةً في كتب السيرة، رواها البخاري عن ستةٍ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عشرين موضعًا من كتابه الصَّحيح، ورواها الإمامُ مسلم عن سبعةٍ من الصحابة في ثمانية عشر موضعًا، وهذه الرِّوايات لم تكن لكل أحداث هذه الرحلة المباركة، وإنما تُروى منها أحداث معينة في رواياتٍ متفرقةٍ، وبمجموع هذه الرِّوايات ـ أي: روايات البخاري ومسلم، وروايات أصحاب السُّنن والمسانيد ـ تكون هذه الحادثة قد رُويت في كتب السُّنَّة روايةً متواترةً[(٢)].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٨٠ ـ ١٨١.

(٢) كما سيأتي بسطه وبيانه، وانظر: ابن حجر، والسيوطي: الإسراء والمعراج، جمع وتحقيق: محمد عبد الحكيم القاضي، دار الحديث ـ القاهرة، سنة الطبع: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٥٢، ص٨٤.

ويقول مجير الدين الحنبلي العليمي: وَالْحق الَّذِي عَلَيْهِ النَّاس ومعظم السّلف وَعَامة الْمُتَأَخِّرين من الْفُقَهَاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بجسده صلى الله عَلَيْهِ وآله وَسلم يقظة(١).

فكان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء الله عز وجل، وقال البخاري: باب حديث الإسراء وقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(٢)، عن جابرَ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لما كذبني قريش، قُمْتُ في الحجر فجلا اللهُ لي بيت المقْدِسِ، فطفقت أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»(٣).

وورد عند البخاري: سمعتُ ابن مالك ـ يعني أنساً ـ رضي الله عنه

---

(١) مجير الدين (ت ٩٢٨هـ): الحنبلي العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بتحقيق: عدنان يونس عبد المجيد أبوتبانة، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٩٣.

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء، حديث رقم (٣٨٨٦)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٢٩٢؛ مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم (١٦٢)، النووي: المنهاج، ج٢، ص١٨٢.

يقول ليلةَ أُسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مسجد الكعبة: «إِنَّه جاءَه ثلاثةُ نفرٍ قبل أَنْ يوحى إليه وهو نائمٌ في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أَتوه ليلةً أخرى فيما يرى قلبُهُ وتنامُ عينه ولا ينام قلْبُهُ. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. فلم يكلِّموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئْرِ زمزم، فتولاه منهم جبريلُ فشقَّ جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى أفرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشاً به صدره ولغاديده ـ يعني عروق حلقه ـ ثم أَطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء: مَنْ هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومَنْ معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، فيستبشر أهل السماءِ لا يعلم أهل السماء بما يريدُ اللهُ به في الأرضِ حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوكَ فسلِّم عليه، فسلَّم وردَّ عليه آدم وقال: مرحباً وأهلاً يا بنيَّ نعم الابن أَنْتَ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذا النيل والفرات. ثم مضى به في السماءِ فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خَبَّأَ لك ربُّكَ. ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟ قال: جبريل،

قالوا: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا به وأهلاً. ثم عُرِجَ به إلى السماء الثالثة وقالوا مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عُرِجَ به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك، ثم عُرِجَ به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عُرِجَ به إلى السادسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عُرِجَ به إلى السماءِ السابعة فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سمَّاهم فأوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمَهُ وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله، فقال موسى: ربِّ لم أظن أَنْ يرفع عليّ أحدٌ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللهُ تعالى حتى جاء سِدْرَةَ المنتهى ودنا الجبَّارُ ربُّ العزَّةِ فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللهُ فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أُمَّتِكَ كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربُّكَ؟ قال: عهد إلي خمسين صلاة كلَّ يوم وليلة، قال: إنَّ أُمَّتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفِّف عنك ربُّك وعنهم، فالتفتَ النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبريل كأَنَّه يستشيرُهُ في ذلك، فأشار إليه جبريل أَنْ نعم إِنْ شِئْتَ، فعلا به إلى الجبار فقال وهو مكانه: يا رب خفف عنَّا فإِنَّ أُمَّتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربِّه حتَّى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عِنْدَ الخمس فقال: يا محمد واللهِ لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من

هـذا فضـعفوا فتركـوه فأُمَّتـكَ أضـعفُ أَجسـاداً وقلوبـاً وأبـداناً وأبصـاراً وأسـماعـاً، فـارجع فليخفِّـف عنك ربُّـكَ، كـل ذلـك يلتفـت النَّبـيُّ ﷺ إلـى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقـال: يـا ربِّ إِنَّ أُمَّتي ضعفاء أجسامهم وقلوبهم وأسـماعهم وأبـدانهم فخفِّـف عنَّـا. فقـال الجبَّارُ: يا محمد، قال: لبَّيْكَ وسعديك، قال: إِنَّه لا يبـدل القـول لـديّ، كمـا فرضتُ عليك في أُمِّ الكتاب. قال: فكل حسنة بعشـر أمثالهـا، فهـي خمسـون في أُمِّ الكتاب وهي خمسٌ عليك، فرجع إلى موسى فقـال: كيـف فعلـت؟ فقـال: خفَّـف عنَّـا، أعطانـا بكـل حَسَـنَةٍ عشـر أمثالهـا، قـال موسـى: قـد واللهِ راودتُ بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، ارْجـع إلـى ربِّـك فليخفِّـف عنك أيضـاً، قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا موسى قَدْ والله استحييتُ مِـنْ ربِّي مما اختلفت إليه. قال: فاهبط باسْمِ اللهِ. قال واستيقظ وهو في المسـجد الحرام»[1].

وقال الله تعالى عن المعراج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القدس إلى السماء: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ

---

(١) صـحيح البخـاري: كتـاب التوحيـد، بـاب قولـه عـزو جـل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، حديث رقم (٧٥١٧)، ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٧٠١.

أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد رأيتُني في الحجر وقريشٌ تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكُربْتُ كربة ما كُربْتُ مثلها قط، قال فرفعه الله لي أنظر إليه: ما يسألوني عن شيء إلا أنبأْتُهُم به»[2].

ويتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس ثم إلى مكة، فقد روى الترمذي عن شداد بن أوس:»[3].

ثم الذي دلت عليه الآيات والأحاديث أَنَّ الإسراء والمعراج كانا يقظةً لا منامًا، ولو كان الإسراء والمعراج بروحه في المنام لم تكن معجزة

---

(١) سورة النجم، آية رقم (١ ـ ١٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، حديث رقم (١٧٢)؛ النووي: المنهاج، ج٢، ص٢٠٥.

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق ودراسة القسم الأول: الموصلي، من رواية الترمذي، بإسناده إلى شداد بن أوس، وقال: «هذا إسناد صحيح». وخرج المحقق الحديث: إسناده ضعيف وإن صححه البيهقي.. ، ص٥٩٨.

ولا كان لتكذيب قريش بها وقولهم: كُنَّا نضربُ أكبادَ الإبل إلى بيت المقدس شهراً ذهاباً وشهراً إياباً، ومحمدٌ يزعم أنَّه أُسري به إليه وأصبح فينا، إلى آخر تكذيبهم واستهزائهم به صلى الله عليه وآله وسلم، لو كان ذلك رؤيا منام لم يستبعدوه ولم يكن لردهم عليه معنى، لأنَّ الإنسان قد يرى في منامه ما هو أبعد من بيت المقدس ولا يكذبه أحد استبعاداً لرؤياه، وإنما قصَّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسرى حقيقة يقظة لا مناماً فكذَّبوه واستهزؤوا به استبعاداً لذلك واستعظاماً له، مع نوع مكابرة لقلة علمهم بقدرة الله عز وجل وأَنَّ الله يفعل ما يريد، ولهذا لما قالوا للصديق وأخبروه الخبر قال: إنْ كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتصدقه بذلك؟ قال: نعم، إِنِّي لأُصدقه فيما هو أبعد من ذلك في خبر السماء يأتيه بكرةً وعشياً[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٢ ـ ٣٩؛ ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت٥٩٧هـ)، فضائل القدس، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١١٦ ـ ١٢١؛ المقدسي: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، (ت٦٤٣هـ)، فضائل بيت المقدس، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص٧٣ ـ ٨٥؛ الأنصاري: جمال الدين أبي محمد عبد الله بن هشام، (ت٧٦١هـ)، تحصيل الأنس لزائر القدس، تحقيق عيسى القدومي وخالد نواصرة، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، قبرص ـ نيقوسيا، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص١٥٠؛ ابن القيم: =

* عوامل التحولات التاريخية في حادثة الإسراء والمعراج وأوجه المقارنة بين البيتين المباركين في تلك الرحلة:

- تتمثل عوامل التحول في أجلى صورها في طائفةٍ من الآيات الأرضية، وفيضًا من الآيات السماوية، فأما الأرضية؛ فمنها حادثة شَقِّ الصدر السابقة الذكر، وكذا البُراق، ورؤية بيت المقدس الأسير تحت الاحتلال الروماني «البيزنطي»، ولعل الحدث العظيم أن يجتمع في المسجد الأقصى بجميع الأنبياء والمرسلين، وأن يصلي بهم ركعتين؛ إيذانًا بمبايعتهم له، واتباعهم دينه، هذا ولقد أخذ الله سبحانه وتعالى العهد والميثاق على النبيّين الذين بعثوا قبل رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤمنوا هم وأممهم به ويتّبعوه صلى الله عليه وآله وسلم إن هم أدركوه. قال الله - عزّ وجلّ -:

= زاد المعاد، ص٣٤٢، المقدسي: شهاب الدين أبو محمود بن تميم (ت٧٦٥هـ) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٦٥ - ٢٦٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٣٩ - ٣٥٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، ج١، ص١٦٤؛ المنهاجي السيوطي: أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الخالق (ت٨٨٠هـ)، إتحاف الأخصَّا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القسم الأول،، ١٩٨٢م، ص١٦٥ - ١٧٥؛ مجير الدين: (ت ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص٢٨٢-٢٨٨ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

قال أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» وابن عمه «عبد الله بن عباس» رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً ـ وذلكم النبي حي ـ ليؤمننَّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمّد ـ وهم أحياء ـ ليؤمنُنَّ به ولينصُرُنَّه[2].

- الأقصى أي: الأبعد لبعده عن المسجد الحرام، ومن المعلوم أن صيغة أفعل التفضيل تقتضي تماثل موصوفين في صفة واحدة، مع زيادة أحدهما فيها، وفي ذلك إشارة غير مباشرة إلى المسجد الثالث (مسجد طيبة الطيبة) الأقرب للمسجد الحرام، ولم يكن قد بُني بعد، ولكنه علم الله الأزلي، فكان المسجد النبوي الشريف ضمن المساجد الثلاثة التي تُشد لها الرحال[3].

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٨١).

(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٧٩.

(٣) ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦؛ انظر: الفقيه: فرج علي، تأملات في السيرة النبوية، منشورات جامعة ٧ ـ أكتوبر، الناشر: المجموعة

ـ ومن عوامل التحول في رحلة الإسراء والمعراج: أن معراجه بدأ وانتهى على أرض بيت المَقدِس، وهي رسالة لعلها تنبئ عن أن بيت المقدس في أيدي المسلمين وتحت سلطانهم، يُشكل لهم عزة ورفعة، والعكس لعله صحيح عندما تفقد الأمة بيت المقدس، يضعف شأنها، وتفقد هيبتها، ويتجرأُ عليها أعداؤها، ولأن هجرة الأنبياء إلى بيت المقدس، فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل(١).

ـ اجتماع الأنبياء والرسل له صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة خلفه دليل على عموم رسالته وشموليتها، وأن الله سيُخضِع له الأرض ويُمكِّنه فيها، وأن رسالته الخاتمة سيجمع الله له فيها ما تفرَّق بين الرسالات السابقة؛ وكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلَّى بالأنبياء إمامًا وهم مأمومون، ففي ذلك أعظم تسليةٍ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو القائل عن نفسه: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ»(٢)، وبين العلماء الاختلاف في أنه صلى ببيت المقدس بالأنبياء قبل العروج أو بعده؛

العربية للتدريب والنشر ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص٦٦.

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٤٣؛ ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦؛ الغزالي: فقه السيرة، ص١٤٠ ـ ١٤٥.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم على جميع الخلائق، حديث رقم (٢٢٧٨)، النووي: المنهاج، ج١٥، ص٣٤.

وبالتالي لا خلاف بأنه إمام الأنبياء في الدنيا والآخرة صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا[١].

- من التحولات في هذه الرحلة المباركة: كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلَّى بالأنبياء، وكلهم صلّوا خلفه مأمومين، فهذا يدل على أنَّ شريعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناسخةٌ لجميع شرائع الأنبياء السَّابقين، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٢]، كتاب ختم الله به الكتب وأنزله على نبي ختم به الأنبياء بدين عام خالد ختم به الأديان؛ فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق وقانون السماء لهداية الأرض، أنهى إليه منزله كل تشريع وأودعه كل نهضة وناط به كل سعادة، وهو حجة الرسول وآيته الكبرى يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته ناطقًا بنبوته دليلاً على صدقه وأمانته[٣].

- إن الإسراء بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مباشرةً من مكة إلى السماء، وإنما من مكة إلى بيت المقدس، ثم إلى السماء، وهذا يدلّ دلالةً عظيمةً على ما لهذا البيت المُعظَّم وهو المسجد الأقصى، وهو

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٤٣؛ ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦.

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٤٨).

(٣) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١، ص١٠.

من بيوت الله؛ من مكانةٍ في دين الأنبياء، وفي دين الله، وفي هذا الدين العظيم؛ فإنَّ المسجد الأقصى هو للمسلمين، وليس لغيرهم، وليس للنَّصارى، أو لليهود، فالله سبحانه وتعالى يُورِث الأرضَ مَن يشاء، بما فيها أماكن العبادة، وأشرف الأماكن هي أماكن العبادة، وأماكن العبادة التي أذن الله سبحانه وتعالى برفعها إنما تكون لمَن يعبد الله فيها، لا لمَن يكفر فيها من اليهود والنصارى، ولإرادة إظهار الحق على من عاند من المشركين في تصديقه، فلما أخذهم بها حصل التحقيق بصدقه في بقية ما ذكره[1].

- وهنا تحول مهم في هذه الصلاة، يُفيد أنّ الرئاسة الرّوحية تحولت من الأنبياء إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولكون هذه الصلاة كانت على أرض بيت المقدس، فهذا يعني أنّ السيادة على تلك الأرض ستصير لدين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولأتباعه من بعده، وهي سيادة تعمل على إقامة العدل بين الناس، ونشر السلام على الأرض، والحفاظ على دين التوحيد[2].

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٤٣؛ ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦؛ انظر: الصّاحب: محمد عيد: رحلة الإسراء والمعراج ودلالاتها الخاصة بالقدس والمسجد الأقصى، دراسة مقدمة للمؤتمر الدّولي للقدس، عمان ـ الأردن، الذي عقدته وزارة الثقافة في ١٥ ـ ١٨شوال ١٤٣٠هـ/ الموافق ٤ ـ ٧ تشرين أول ٢٠٠٩م، ص١٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٤٣؛ انظر: غضبان: فقه السيرة، ص٢٨٦؛ =

ـ فَرْضُ الصلاة مِنْحَةٌ ربانيةٌ، وتمييز لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فوق سبع سماوات لمكانتها، فهي خمس في الأداء وخمسون في الأجر، انطلاقاً من القبلتين (المسجد الحرام والمسجد الأقصى)، واصطفاءً للمدينتين المقدستين (مكة والقدس)، وهذه الصلاة فيها إشارة عظيمة إلى أنّ ميراث الأنبياء جميعاً آل لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولأمّته من بعده، وهو ميراث تكليف لهذه الأمّة بأن تقوم بواجبها في نشر دين الله تعالى بين العالمين، وهداية الناس إلى طريق الحقّ وطريق مستقيم، ويؤكّد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. ولعل فرض الصلاة في هذه الرحلة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المبعوث في مكة الساري إلى القدس المتلقي من السماء؛ دلالة على تحول القبلة من القدس القبلة الأولى إلى مكة المكرمة مهبط الوحي ومنطلق الرسالة ليجتمع لها ما قدره الله لها من المكانة العليا تحريماً وأمناً وقبلة ومحجاً ومعتمراً.

ـ ومن علامات التحول الفكري لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن رسالة نبيهم (الإسلام) ممتدة ومتواصلة منذ نبي الله إبراهيم الخليل عليه

= الصّاحب: محمد عيد: رحلة الإسراء والمعراج ودلالاتها الخاصة بالقدس والمسجد الأقصى، ص١٢.

(١) سورة الأنبياء، آية رقم (١٠٧).

السلام، إذ يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾(١)، وقال القرطبي: نزهه الله تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركًا؛ والحنيف: الذي يوحد ويحج ويضحي ويختتن ويستقبل القبلة(٢)، وعليه؛ فإن كل ما يتصل بنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام وذريته ومن سار على نهجه، هو حق من حقوق المسلمين؛ يتناقلونها، كأمانة في أعناقهم، من جيلٍ إلى جيل؛ فملة إبراهيم ودعوته لذريته: أن يجعل من ذريته أمة مسلمة، ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٣).

- تمت سيطرة الفرس على القدس من العام ٦١٥م، الموافق للعام السادس من البعثة النبوية، في بضع سنين؛ وهذا يعني أن رحلة الإسراء المباركة تمت والقدس تحت سيطرة الفرس الساسانيين الوثنيين، مما يدل على أن القدس هيأها الله سبحانه وتعالى لأتباع الأنبياء الموحدين وليست للوثنيين، ولأمة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم(٤).

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٦٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص١٠٩.

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٢٨).

(٤) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٤٢؛ ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦.

ـ والتحول الاسمي فلم يكن المسجد الأقصى يحمل هذا الاسم قبل نزول قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]. فالله جل شأنه هو الذي سمَّاه هذا الاسم، والأقصى بمعنى الأبعد، أي: الأبعد عن مكة، وهي أول مرة يذكر فيها، وبعدها عرف عند المسلمين بهذا الاسم، وفي ذلك فضل، ما بعده فضل، لبيت المقدس والمسجد الأقصى[2].

ـ أثر أهمية حادثة الإسراء في تسمية سورة الإسراء، وغلبة التأثير الإسلامي على تاريخ بني إسرائيل في القدس وغيرها؛ حيث وردت تسمية سورة «الإسراء» بسورة «بني إسرائيل» في حديثين صحيحين موقوفين من كلام الصحابة رضوان الله عليهم الحديث الأول: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: هن من العِتَاق الأول، وهُنَّ تِلادِي[3]. قال ابن حجر: «(مِنَ العِتَاقِ) جمع عتيق

(١) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٤٣؛ ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦؛ الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج١٥، ص١٤.

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٤)، ابن حجر: فتح الباري، ج٩، ص٥٨.

وهو القديم، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة، وبالثاني جزم جماعة في هذا الحديث. وقوله: (هُنَّ مِن تِلَادِي) أي: مما حفظ قديماً، والتلاد قديم الملك، وهو بخلاف الطارف، ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم»[١].

الحديث الثاني: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يَنَامُ حَتَّى يَقرَأَ الزُّمَر وبَنِي إِسرَائِيلَ»[٢].

ـ وفي هذا الإسراء سمةٌ تحوليةٌ أخرى، وهي: كون اليهود جحدوا الوحي، وأعرضوا عنه، فإنَّ الله سبحانه وتعالى عاقبهم بأن تحولت النبوةُ من سُلالة إسحاق إلى سُلالة إسماعيل عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهي التي أشار الله إليها في سورة آل عمران في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾[٣]؛ انتقالاً بالقيادة الرّوحية في العالم من أمّة إلى أمّة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذريّة إسرائيل إلى ذريّة إسماعيل[٤]، وهكذا تحولت السيادة

---

(١) فتح الباري: ج٨، ص٣٤٨.

(٢) الكتب الستة، رواه الترمذي في السنن، كتاب الدعوات، حديث رقم (٣٤٠٥)، حديث صحيح ج١، ص٢١٥١.

(٣) سورة آل عمران، آية رقم (٢٦).

(٤) ابن حجر، السيوطي: الإسراء والمعراج، ص٥٦؛ انظر: غضبان: فقه السيرة، ص٢٨٨؛ الصّاحب: محمد عيد: رحلة الإسراء والمعراج ودلالاتها الخاصة =

الروحية في القدس بإمامة المصطفى عليه السلام للأنبياء في المسجد الأقصى؛ إلى الإسلام والمسلمين، فسادوها روحيـًا ثم سادوها بالفتح سياسيًا ودينيًا.

ـ الانطلاق من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس إشارة واضحة ورسالة بيِّنة أن حرية واستقلال بيت المقدس يَرتبِط ارتباطًا جوهريًّا وأساسيًّا ببيت الله الحرام، وكما جمَعهما الله لنبيِّه ومصطفاه، سيَجمعهما الله للمهدي المنتظر الذي بشر به، وهو الرجل الذي تَنتظِرهُ الأمةُ آخر الزمان[1]، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم

= بالقدس والمسجد الأقصى، ص١٤.

(١) يقول ابن القيم حينما تكلم عن أقسام الناس في المهدي في معتقد أهل السنة والجماعة: «القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ولد الحسن بن علي، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورا وظلما، فيملؤها قسطًا وعدلاً، وأكثر الأحاديث على هذا تدل» ص١٥١، وفي الحديث التالي إشارة إلى وصول المهدي إلى الأرض المقدسة (عن عبد الله بن حوالة الأزدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:.. وضع يده على رأسي، أو هامتي، فقال: «يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك» مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الأنصار، حديث رقم (٢٢٤٨٧). انظر: غضبان: فقه السيرة، ص٢٨٦ ـ ٣٠٠؛ الغزالي: فقه السيرة، ص١٣٩.

وإمامكم منكم»[1]، وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعالى صل لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[2].

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام، حديث رقم (٣٤٤٩)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٧٢١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام، حديث رقم (٢٤٧)، النووي: المنهاج، ج٢، ص١٦٨.

المبحث الرابع

تحويل القبلة من القدس إلى مكة

(من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة)

تحول شرعي رباني للقبلة من المسجد الأقصى في القدس إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة؛ قال الله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[1]، قال ابن إسحاق: ويقال: صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة[2]، وقال ابن كثير: قال بعضهم: كان ذلك في رجب من سنة ثنتين، وبه قال قتادة وزيد بن أسلم وهو رواية عن محمد بن إسحاق[3]، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتجه في صلاته بمكة قبل الهجرة مستقبلاً بيت المقدس، تاركاً الكعبة المشرفة بينه وبين بيت المقدس. هكذا ورد في رواية صحيحة الإسناد إلى عبد الله بن العباس[4].

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٤٤).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٨١.

(٣) البداية والنهاية: ج٤، ص٣٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٠٨، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس، وكأن البخاري ـ في ترجمة الباب ـ أراد الإشارة إلى أن الجزم بالأصح =

وذهب بعض العلماء إلى أنه كان يصلي بمكة إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس[1]، وانتقد الحافظ ابن حجر هذا الرأي وضعَّفه، فقال: «وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره»[2].

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة استمر في الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً[3]، وفي منتصف رجب سنة اثنتين للهجرة أمره الله تعالى بالتحول في صلاته إلى الكعبة قبلة

= من أن الصلاة لما كانت عند البيت كانت إلى بيت المقدس (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، حديث رقم (٤٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٤ ـ ١٦٩).

(١) فتح الباري: كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، ج١، ص١٦٦.

(٢) فتح الباري: كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، ج١، ص١٦٩.

(٣) روى ذلك عدد من الصحابة، هم معاذ بن جبل وأنس بن مالك والبراء بن عازب، كما روى ذلك سعيد بن المسيب مرسلاً، والأسانيد إليهم صحيحة: صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، أحاديث رقم (٥٢٧، ٥٢٦، ٥٢٥) النووي: المنهاج، ج٥، ص٩ ـ ١١ وجزم به؛ وصحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، فتح الباري: ج١، ص١٦٦ ولكن رواية البخاري تذكر «ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ـ على الشك ـ وتاريخ خليفة ابن خياط، ج١، ص٦٤.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد حدد سعيد بن المسيب تاريخ تحول القبلة إلى الكعبة بشهرين قبل بدر(١)، في منتصف رجب كما هو قول الجمهور(٢)، وأما الواقدي فأرخ ذلك للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً(٣).

ويتضح أن استمرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة في الصلاة إلى بيت المقدس لقي ترحيباً من اليهود الذين كانوا قد عاهدوه. ولعل ما يذكره مجاهد من أنهم استغلوا ذلك قائلين: «يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا»(٤) صحيح، فكأنهم يرون أن الدين الجديد يتابع قبلتهم، ويأخذ عنهم في التقاليد والطقوس، وقد يطمحون في جره إليهم، والصلاة إلى بيت المقدس كانت استمراراً لما كانت عليه الحال بمكة قبل الهجرة، وكان

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ج١، ص٦٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٠٨ ـ ٢١٠، بإسناد إليه صحيح لكنه مرسل، ومراسيل سعيد بن المسيب قوية؛ انظر: العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٣٩٤.

(٢) ابن حجر: فتح الباري: ج١، ص١٦٧، وقد اعتمدوا على أن تاريخ الهجرة في شهر ربيع الأول بلا خلاف، فأضافوا ستة عشر شهراً، فيكون تحويل القبلة في منتصف شهر رجب على الصحيح، وبه جزم الجمهور. العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٣٩٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٠٨ ـ ٢١٠.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٥.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع إلى الوحي، ويرغب في التوجه إلى الكعبة؛ عودة إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، حيث أول بيت مبارك بني لتوحيد الله وعبادته، ورغبة في تمييز المسلمين بقبلة مستقلة تقطع على اليهود دعايتهم، فاستجاب الله تعالى له، وحقق أمنيته، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١)؛ وأول صلاة صلاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة كانت صلاة الظهر في بني سلمة، وأول صلاة صلاها في المسجد النبوي العصر، وأول صلاة صلاها أهل قباء في مسجدهم الفجر عندما بلغهم خبر تحويل القبلة(٢)، وكان وقع ذلك على اليهود شديداً، فقد غضبوا للأمر وقاموا بدعاية واسعة، فنزل القرآن الكريم في تفنيد مزاعمهم، فلما زعموا أن البر في الاتجاه بالصلاة لبيت المقدس نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٤٤).

(٢) فتح الباري: ج١، ص١٦٥ ـ ١٧٠؛ انظر: العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٣٩٥.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

وعندما يتساءلون عن سبب التحول عن القبلة الحق - في نظرهم - يُعَلِّمُ الله نبيه أن يجيبهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وقد أوضح القرآن الكريم أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة امتحان وابتلاء للمؤمنين، لتظهر قوة عقيدتهم، وتختبر سرعة استجابتهم لأوامر الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

أي: وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس إلا للاختبار، وإنما يظهر وجه الابتلاء عندما تطالعنا الأخبار التي تعكس صدى تحويل القبلة، حيث يزعم المشركون أن الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٧٧).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٤٢). انظر تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٥.

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٤٣).

وسلم تحير في دينه ورجع إلى قبلتهم، ويرجف المنافقون في أوساط المؤمنين: ما بال محمد يحولنا مرة إلى هنا ومرة إلى هنا؟! حتى خاف المسلمون على صلواتهم إلى بيت المقدس أن يبطل أجرها[1]. فأوضحت الآية أن الله لا يضيع صلاة من صلى منهم إلى بيت المقدس ومات قبل تحويل القبلة دون أن يتجه إلى الكعبة، وهم عشرة من الصحابة، لأنهم أطاعوا الله ورسوله بالاتجاه لبيت المقدس، كما أطاعه الأحياء في الاتجاه للكعبة[2].

عن البراء، قال: «قيل: هذا للذين ماتوا قبل أن تُحَوَّل إلى القبلة، ورجال قتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ رواه البخاري عن أبي نعيم[3]،[4].

ويورد البيهقي: وصلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل، فخرج بعد ما صلى فمر على قوم من الأنصار ركوع في صلاة العصر

---

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٠٨ ـ ٢١٠، بإسناد صحيح، وفتح الباري: ج١، ص١٦٨، وانظر: العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٢٩٣ ـ ٢٩٧.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التفسير باب قوله تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ) حديث رقم (٤٤٨٦)، الكتب الستة، ج١، ص٤٤٣.

(٤) البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق ودراسة القسم الأول: الموصلي، ص٧٠١ ـ ٧٠٤.

نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قد وُجِّه نحو الكعبة، فانحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة. رواه البخاري ومسلم[1].

وعن عبد الله بن عمر، قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة. رواه البخاري ومسلم[2].

ويبين ابن كثير[3] قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة، حديث رقم (٣٩٩)، الكتب الستة، ج١، ص٥٥؛ والكتب الستة، صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة حديث رقم (٥٢٥)، ج١، ص٨٤١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة (٤٠٣)؛ صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة (٥٢٦)؛ مسند أحمد: حديث رقم (٤٦٤٢) وحديث رقم (٥٩٣٤).

(٣) البداية والنهاية، ج٤، ص٣٣؛ وانظر: ابن الجوزي: فضائل القدس، ص١١٤؛ المقدسي الحنبلي: فضائل بيت المقدس، ص٥٣ ـ ٥٥؛ المنهاجي السيوطي: إتحاف الأخِصَّا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص١٨٣ ـ ١٩٠.

عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: خياراً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ أي: وكما اخترنا لكم أفضل الجهات في صلاتكم وهديناكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم والد الأنبياء بعد التي كان يصلي بها موسى فمن قبله من المرسلين، كذلك جعلناكم خيار الأمم وخلاصة العالم وأشرف الطوائف وأكرم التالد والطارف لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس لإجماعهم عليكم وإشارتهم يومئذ بالفضيلة إليكم.

*** دلالات وعوامل هذا التحول:**

١) يقول ابن القيم: وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمةٌ، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين، فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾[2]، وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم، وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا، يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق، وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء، وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه،

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٤٣).

(٢) سورة آل عمران: آية رقم (٧).

إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[1]، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه[2].

٢) إن لحادثة تحويل القبلة عوامل تحول كثيرة؛ منها: التحول السياسي، والتحول العسكري، والتحول الديني، والتحول التاريخي؛ فتحولها السياسي أنها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث، وتحولها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث النبوي لإبراهيم عليه السلام، وتحولها العسكري أنها مهدت لفتح مكة، وإنهاء الوضع الوثني في المسجد الحرام؛ حيث أصبح قبلة المسلمين مركز التوحيد بعد أن كان مركزًا لعبادة الأصنام، والتحول الديني أن القدس تحولت من قبلة إلى مستقبلة للمسجد الحرام، وربطت قلوب المسلمين بالحنيفية السمحة، وأبرزت مكانة الأمة الإسلامية بقبلة مستقلة[3].

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣).

(٢) زاد المعاد: ص٣٥٢.

(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٦؛ ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٦؛ النووي: المنهاج، ج٥، ص٩؛ الزيد: فقه السيرة، ص٣٧٤.

٣) تحويل القبلة إعجاز وتميز للأمة المسلمة: أمر الله نبيه في مكةَ بالتوجه في الصلاة نحو بيت المقدس، قبلة الأنبياء السابقين؛ وذلك لوحدة الرسالات السابقة، في مصدرها وهدفها وغايتها، واستمر الحال هكذا ستة عشر شهرًا، إلى ما بعد الهجرة، ثم تكلم اليهود في ذلك فقالوا: «ما بال محمد يتبع قبلتنا ولا يتبع ديننا». فنزلت الآيات القرآنية؛ لتبين حقيقة الموضوع، ويتعلم الناس منها دروسًا تربوية مهمة(١).

٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أخبر الله تبارك وتعالى بما سيقوله اليهود عند تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قبل وقوع الأمر بالتحويل، ولهذا دلالته، فهو يدل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ هو أمر غيبي، فأخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم بآيات قرآنية قبل وقوعه ثم وقع، فدل ذلك على أنه صلى الله عليه وآله وسلم رسول ونبي يخبره الوحي بما سيقع، إذ من الأدلة على صدق رسالة الرسول أن يخبر بأمور غيبية ثم تقع بعد ذلك كما أخبر(٢).

٥) تحويل القبلة اختبارٌ وتربيةٌ للصحابة على السمع والطاعة،

---

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٦؛ ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠.

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٨.

والتسليم لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[1]؛ وقد ثبتوا ونجحوا رضي الله عنهم، فسارعوا للاستجابة والتسليم لأمر الله ورسوله[2].

٦) كذلك أظهر تحويل القبلة حرص المؤمن على أخيه وحب الخير له، فحينما نزلت الآيات التي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة، تساءل المؤمنون عن مصير عبادة إخوانهم الذين ماتوا وقد صلوا نحو بيت المقدس، فأخبر الله عز وجل أن صلاتهم مقبولة[3].

٧) ومن الدلالات والدروس الواضحة والهامة من حادثة تحويل القبلة مخالفة اليهود والنصارى، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة، وكان حريصاً على أن يكون متميزاً عن أهل الديانات السابقة، الذين حرفوا وبدلوا وغيروا كاليهود والنصارى[4].

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (١٤٣)؛ انظر: ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٩.

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٦؛ ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٦؛ النووي: المنهاج، صحيح مسلم، ج٥، ص٩؛ الزيد: فقه السيرة، ص٣٧٤.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٦؛ ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠.

٨) تحويل القبلة توحيد للأمة: من كل اتجاه، في أنحاء الأرض جميعًا، قبلة واحدة تجمع هذه الأمة وتوحد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها، قبلة واحدة، تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها، فتحس أنها جسم واحد، وكيان واحد، تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهج واحد، منهج ينبثق من كونها جميعًا تعبد إلهًا واحدًا، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة[١].

٩) ارتباط مناسك الحج بالبيت الحرام وبالكعبة المشرفة، فناسبه أن يكون التوجه بالصلاة إلى البيت الذي تكون فيه وحوله المناسك[٢].

* * *

---

(١) انظر: ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠.

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص١٤٦؛ ابن القيم زاد المعاد، ص٣٥٣؛ تفسير ابن كثير، ج١، ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٦٦؛ النووي: المنهاج، صحيح مسلم، ج٥، ص٩؛ الزيد: فقه السيرة، ص٣٧٤.

المبحث الخامس

البشارات النبوية بفتح القدس
ودعوة أهلها إلى الإسلام

انطلاقاً مما سبقت الإشارة إليه في توطئة هذا الباب أن الوصول إلى القدس كان مخططاً ـ استراتيجياً ـ نبوياً محمدياً مستنداً لرؤيةٍ استراتيجيةٍ[1] تدرك متطلبات كل مرحلة وتدرك طبيعة البيئة التي تتحرك فيها، مع عدم إغفال أهدافها الأساسية؛ فكان ـ هذا المخطط ـ مثل النهر في مرحلة تكوينه يتدفق، فإذا صادف عقبات في طريقه أكمل السير والتف عليها؛ لأن هدف المخطط النبوي واضح المعالم.

* فالبشارة النبوية الأولى:

كانت البشارة الأولى في غزوة الخندق (الأحزاب): من شوال سنة خمس للهجرة، قال ابن إسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي،

---

(١) وضوح الرؤية الاستراتيجية كونها الأساس النظري الذي تبنى عليه الخطط الاستراتيجية الهادفة لتحقيق هذه الأهداف على المدى الأطول. هذا وتعتمد الرؤية الاستراتيجية مبدأ التقسيم الزمني للأهداف وتوزيعها على مراحل زمنية تتسم بالمرونة التي تعطي الرؤى الاستراتيجية قدرة التكيف مع المتغيرات غير المنتظرة والمفاجآت.

نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، قال: ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، قال: قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت، لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟» قال: قلت: نعم، قال: «أما الأولى فإن الله فتح علي باب اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي باب الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق[1]، وفي حديثٍ رواهُ الإمام مُسلم عن ثوبان: «إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ مُلْك أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَإِنِّي أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ...»[2]»، ويقول الإمام النووي: أما زوى، فمعناه جمع. وهذا الحديث فيه معجزات ظاهرة، وقد وقعت كلها بحمد الله، كما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم. قال العلماء: المراد بالكنزين: الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر، ملكي العراق والشام»[3].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٣٠؛ ابن عقبه: المغازي، ص٢١٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٢٩٠. ورويت البشارة بعدة صيغ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩)، النووي: المنهاج، ج١٨، ص١٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩)، النووي: المنهاج، ج١٨، ص١٢.

* **البشارة النبوية الثانية:**

كانت بفتح بيت المقدس في غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع للهجرة: فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: مَوْتِي، ثم فَتْحُ بيت المقدس، ثم موتان[١] يأخذ فيكم كقعاص الغنم[٢]، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية،

---

(١) ويشرحها ابن حجر: قوله: (ثم موتان) بضم الميم وسكون الواو، قال القزاز: هو الموت. وقال غيره الموت الكثير الوقوع، ويقال بالضم لغة تميم وغيرهم يفتحونها. ويقال للبليد موتان القلب بفتح الميم والسكون، وقال ابن الجوزي: يغلط بعض المحدثين فيقول موتان بفتح الميم والواو، وإنما ذاك اسم الأرض التي لم تحيا بالزرع والإصلاح. ج٦، ص٤٠٤.

(٢) ويشرحها ابن حجر: قوله: (كعقاص الغنم) بضم العين المهملة وتخفيف القاف وآخره مهملة، هو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة. قال أبو عبيدة: ومنه أخذ الإقعاص وهو القتل مكانه. وقيل العقاص داء يأخذ في الصدر كأنه يكسر العنق. ويقال إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس. ج٦، ص٤٠٤.

تحت كل غاية اثنا عشر ألفـًا»[1].

* دعوة أهل القدس وعظيم الروم بها:

كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهرقل عظيم الروم وإمبراطور الدولة البيزنطية وأتباعه من أهل الكتاب، ومنهم أهل القدس (إيلياء) الذي جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهرقل فيها، إيذانـًا بتحول القدس إلى الإسلام والإستِظلاَل بظل الدولة الإسلامية وحكم الشريعة الإسلامية، فبالدعوة وصل الإسلام إلى القدس، وأسلم أسقف كنيستها، وبالدعوة أعلن هرقل صدق النبوة، فأظهر الحق، وتبين للناس صحتها واشتهر خبرها، وبالدعوة عرض هرقل على أتباعه الإسلام أو دفع الجزية فمهد بذلك عند أهلها وفي نفوس النصارى لاعتناق الإسلام أو الخضوع لدولته، وبالدعوة هيأ هرقل قومه لفتح القدس وسوريا، وأخبرهم بأن المسلمين سيملكونها وخرج منها مودعـًا.

فكانت دعوتهم تقدمة للتحول التاريخي للقدس الذي سيتحقق بالفتح الإسلامي زمن الفاروق رضي الله عنه.

فمما سبق تبيانه في الباب الأول (الفصل الثاني) عن صُلْح الحُدِيبية الذي قال عنه البخاري: عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب ما يحذر من الغدر، حديث رقم (٣١٧٦)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٠٣.

كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. انفرد به البخاري[1]، وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2] صلح الحديبية[3].

فقد كان من نتائج صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾[4]، وتحولاته التاريخية الكبيرة أيضاً: أن كتب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر الروم «هرقل» في أواخر السنة السادسة من شهر ذي الحجة؛ وورد في المحرم من السنة السابعة[5]، عقب انتصاره على الفرس، الذي تزامن مع صلح الحديبية، وهو في إيليا (القدس)[6].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٤١٥٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٦٥١.

(٢) سورة الفتح، آية رقم (٢٧).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٣٨٢.

(٤) سورة الفتح، آية رقم (١).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٢٢٢.

(٦) إيلِياء: اسم أعجمي بوزن فِيعِلاء، ومنهم من يقصر فيقول: (إيليا)، وقد تشدَّد الياء الثانية، ويقول ياقوت: «(إيلياء) بكسر أوله واللام وياء وألف ممدودة اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله. = وحكى الحفصي فيه القصر، وفيه لغة ثالثة: حذف الياء الأولى؛ فيقال: (إلياء). بسكون اللام والمد... فإيلياء =

وبين ابن كثير تاريخ الرسالة بقوله: «ذكر الواقدي أن ذلك في آخر سنة ست في ذي الحجة بعد عمرة الحديبية، وذكر البيهقي هذا الفصل في هذا الموضع بعد غزوة مؤتة، والله أعلم. ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة، وبعد الحديبية، لقول أبي سفيان لهرقل حين سأله: هل يغدر؟ فقال: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها. وفي لفظ البخاري: وذلك في المدة التي ماد فيها أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقال محمد بن إسحاق: كان ذلك ما بين الحديبية ووفاته عليه السلام، ونحن نذكر ذلك ها هنا، وإن كان قول الواقدي محتملا، والله أعلم»(١).

وصح أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد كتب إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي(٢) يدعوه إلى الإسلام، فروى البخاري «عن

= الهمزة في أولها فاء لتكون بمنزلة الجربياء والكبرياء، وتكون الكلمة مُلحَقة بطرمساء وجلخطاء وهي الأرض الحزن، والياء التي بعد الهمزة لا تخلو من أن تكون منقلبة من الهمزة أو من الواو»، و(إيلياء) اسم أطلقه القائد الروماني (هادريان) على مدينة بيت المقدس عام ١٣٥م، وهو اسم جد عائلة الإمبراطور (إيلياء كابيتولينا). انظر: ياقوت: معجم البلدان: ج١، ص٢٩٣؛ وابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٤٠.

(١) البداية والنهاية: ج٤، ص٥٠٣.

(٢) دِحْيَة بن خَليفة: هو ابن فَرْوة بن فَضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزْرج، =

عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحدا من قومه لأسألهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

«وقال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان بن حرب[2] أنه كان بالشأم في

= وأسلم دحية بن خليفة قديمًا ولم يشهد بدرًا وكان يُشَبّهُ بجبرائيل. وعن عامر الشعبيّ قال: شبّه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، ثلاثة نَفَرٍ من أمّتِهِ فقال: «دِحيْة الكلبيّ يُشبهُ جبرائيل، وعُروة بن مسعود الثّقَفيّ يُشْبِهُ عيسى بن مريم، وعبد العُزّى يُشْبهُ الدجّال». وعَن مجاهد، قال: بعث رسول الله ﷺ، دحية الكلبي سريّةً وَحْدَه. وشهد دحية مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، المشاهد بعد بدرٍ، وبقي إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٤، ص٢٣٤.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة، حديث رقم (٢٩٤٠)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص١٦٢.

(٢) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب، رأس قريش وقائدهم يوم أحد ويوم الخندق، وله هنات وأمور صعبة، =

رجال من قريش قدموا تجاراً في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين كفار قريش، قال أبو سفيان: فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام، فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسباً إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسباً، قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت هو ابن عمي، وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدنوه، وأمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه، قال أبو سفيان والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فصدقته، ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت:

= لكن تداركه الله بالإسلام يوم الفتح فأسلم شبه مكره خائف، ثم بعد أيام صلح إسلامه. وكان من دهاة العرب ومن أهل الرأي والشرف فيهم، توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين وقيل: سنة اثنتين وقيل: سنة ثلاث أو أربع وثلاثين وله نحو التسعين. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٤١٦.

بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف أن يغدر، قال أبو سفيان: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئًا أنتقصه به لا أخاف أن تؤثر عني غيرها، قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت كانت دولاً وسجالاً، يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى، قال: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت: رجل يأتم بقول قد قيل قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه ملك قلت: يطلب ملك آبائه، وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته

القلوب لا يسخطه أحد وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولا ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة النبي، قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم، وإن يك ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه، قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرئ فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم فلا أدري ماذا قالوا، وأمر بنا فأخرجنا فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن

أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره»[1].

ويورد الطبري: «إن هرقل قال لدحية بن خليفة الكلبي حين قدم عليه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى صغاطر «أو ضغاطر» الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم، فهو والله في الروم أعظم مني، وأجود قولا عندهم مني، فانظر ماذا يقول لك؟ قال: فجاء دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل وبما يدعو إليه. فقال: صغاطر «أو ضغاطر»: والله صاحبك نبي مرسل، نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا باسمه. ثم دخل وألقى ثيابا كانت عليه سوداً، ولبس ثيابـاً بياضـاً، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله. قال: فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه. قال: فلما

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة، حديث رقم (٢٩٤١)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص١٦٢؛ صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، حديث رقم (١٧٧٣)، النووي: المنهاج، ج١٢، ص٩٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٣٩، وص٥٨٥.

رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك أنا نخافهم على أنفسنا، فصغاطر «أو ضغاطر» والله كان أعظم عندهم وأجوز قولا مني. وبه قال محمد بن إسحاق، عن خالد بن يسار، عن رجل من قدماء أهل الشام قال: لما أراد هرقل الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية لما بلغه من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، جمع الروم فقال: يا معشر الروم، إني عارض عليكم أمورا فانظروا فيما أردت بها؟ قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل، نجده نعرفه بصفته التي وصف لنا، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فقالوا: نحن نكون تحت أيدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكًا، وأكثر رجالاً، وأقصاه بلدا؟! قال: فهلم أعطيه الجزية كل سنة أكسر شوكته، وأستريح من حربه بما أعطيه إياه. قالوا: نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عدداً، وأعظمه ملكًا، وأمنعه بلداً، لا والله لا نفعل هذا أبداً. قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية، ويدعني وأرض الشام. قال: وكانت أرض سورية: فلسطين، والأردن، ودمشق، وحمص، وما دون الدرب من أرض سورية، وما كان وراء الدرب عندهم فهو الشام. فقالوا: نحن نعطيه أرض سورية، وقد عرفت أنها سرة الشام، لا نفعل هذا أبدا. فلما أبوا عليه قال: أما والله لتودن أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم. قال: ثم جلس على بغل له، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب، استقبل أرض الشام ثم

قال: السلام عليك يا أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل قسطنطينية، والله أعلم»[1]، وقال ابن حجر[2]: اختلف الإخباريون: هل هو الذي حاربه المسلمون في زمن أبي بكر وعمر أو ابنه؟ والأظهر أنه هو. وأورد البلاذري[3] خلاف ذلك، قالوا: ولما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام.

*** ومن دلالات الكتاب النبوي إلى هرقل:**

- كانت الرسالة النبوية إرهاصة محمدية لفتح بلاد الشام، وفتح بيت المقدس، وذلك ما أقر به قيصر الروم «هرقل» بنفسه وهو يخاطب أبا سفيان: (فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين..)[4].
- تتصف الرسالة النبوية بالاختصار والتركيز، وعمق الأثر، والدعوة النفسية عندما يلقي تبعة الرعية على مسؤولية الملك، بادئاً

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠.

(٢) فتح الباري: ج١، ص٧٦.

(٣) فتوح البلدان، ص١٤٢.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥.

بالتوحيد والدعوة إلى الواحد القهار، ومحاربة الأوثان، فيأخذ الأمور بالتدرج واليسر، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[(١)].

- اتصفت الرسالة النبوية بلطف العبارة ورقتها وسهولة ألفاظها وسلاسة عبارتها، والبعد عن التصنع اللفظي، لتكون مفهومة واضحة[(٢)].

- استخدم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في وصفه الوظيفي (رسول الله) وليس نبي الله مثلاً، وذلك من أجل أن يفهم هرقل ومن يسمع معه أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يوحى إليه من أجل التبليغ للناس كافة، فهو لم يكن نبياً لقومه (للعرب) خاصة، كما كان دور الكثير من الأنبياء الآخرين من قبله، حيث كانوا يبعثون لأقوامهم خاصة، وخاصة أنبياء بني إسرائيل، ومن الأنبياء من لم يبعث لأحد[(٣)].

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ عز الدين: يوسف، المثل الإسلامية في رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزء الثاني، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، مطابع جامعة الملك سعود، ص١٢٥ ـ ١٢٧.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥.

• تجلى في الكتاب النبوي عموماً الخبرة الدقيقة بنفوس من أُرسِلتْ إليهم وحسن اختيار الألفاظ المناسبة للكل والمثيرة للعواطف والمحركة للمشاعر، ولذلك من لم يسلم كان رده جميلاً[١].

• جاءت الكلمات الآتية حسب تسلسل ورودها في الرسالة: (سلام، الإسلام، أسلم، تسلم، وأسلم، مسلمون) وهذه الكلمات تدل على السلام والأمن، وفكرة استخدام مفردة السلام شائعة لدى النصارى، فإذاً هو صلى الله عليه وآله وسلم يخاطبهم بمنطقهم الذي يزعمون للناس في أنهم يرغبون بنشر السلام في الأرض، فالرسالة تقول أن ما جاء إليكم مني إنما هو من نفس المشكاة التي تؤمنون بها، جاءت لنشر السلام الذي تتكلمون عنه، كما جاءت لتصحيح ما زور وبدل في مساركم[٢].

• الدعوة في الرسالة كانت بدعاية الإسلام، (أدعوك بدعاية الإسلام) في حين في رسالته صلى الله عليه وآله وسلم لكسرى كانت (بدعاية الله)، لأن النصرانية ليس لها مشكلة في قضية إيمانها بالله سبحانه وتعالى، ولكن مشكلتها في اختراع ابن لله سبحانه وتعالى، وإن الإسلام كمنهج عقدي يتناول هذه القضية الجوهرية ويعالجها علاجاً جذرياً[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ الزيد: فقه السيرة، ص٥٥١.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥.

(٣) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛

- لأن هرقل كان على دين النصرانية، فقد خُتمت الرسالة بآية قرآنية، لأن عقلاء النصارى يستطيعون أن يميزوا كلام البشر عن كلام الله سبحانه وتعالى، لخبرتهم واطلاعهم ومعرفتهم بالإنجيل من قبل وربما التوراة أيضاً، فبالتالي تعطي هذه اللفتة قوة للرسالة في التأثير النفسي على هرقل ومن عنده، لما فيها من تأييد أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول من الله سبحانه وتعالى[1].

- عالجت الرسالة ضمن الآية القضية التي أخطأ فيها قوم هرقل وأتباعه باتخاذ (الأرباب من دون الله)، وإن أحبارهم ورهبانهم هم الذين يستعبدون الناس، وإنما جاء الإسلام لمعالجة الأمر أيضاً، فلا رب إلا الله سبحانه وتعالى[2].

- أشارت الرسالة إلى الأريسيين، وهم أما أن يكونوا بسطاء الروم وضعفاءهم ومزارعيهم، فيكون القصد في أن رئاسة الناس أمانة في عنق حاكمهم، فإن أظلهم فسيبوء بذنوبهم، لأن الناس على دين ملوكهم، وأما أن يكون الأريسيون هم من على عقيدة أريوس ذلك الرجل المصري النصراني الذي دعا إلى توحيد الخالق جل جلاله وأن المسيح ليس ابن الله،

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١.

وأصبح لـه اتبـاع كثيـرون، فهنـا يكـون مـراد الرسـالة أن الكثيـر مـن الـروم تدعوهم فطرتهم لأن يكونوا موحـدين لله جـل جلالـه، وإن هرقـل قـد أفسـد عقيدتهم التي هـي أقـرب مـا يكـون لمـا جـاء بـه محمـد صـلى الله عليه وآلـه وسلم[(١)].

- اختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتلـك المهمـة مـن يقـوم بهـا إيمانـاً واحتسابـاً غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عنـد مـن يـدعوه، «فعـن ابـن عبـاس أن رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم قـال: مـن ينطلـق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقـال رجـل: وإن لـم يقبـل؟ قـال: وإن لم يقبل! فأخذ دحيـة الكتـاب وسـافر بـه إلـى أرض الـروم..»[(٢)]، كمـا سـبق بيانه.

- كانت الرسالة مقدمة نبوية لفتح بلاد الشام، وفتح بيـت المقـدس، وذلك ما أقر به قيصر الروم «هرقل» بنفسـه وهـو يخاطـب أبـا سـفيان: (فـإن

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ المرسومي: عبد الستار، نماذج من رسائل النبي للملوك إلى هرقل عظيم الروم، قراءة في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، شبكة الألوكة:

http://www.alukah.net/sharia/0/60251/#ixzz3t5uYXGzP

وانظر: الندوي: السيرة النبوية، ص٣٤٥.

(٢) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥؛ الغزالي: فقه السيرة، ص٣٨٦.

كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين..)[1]، ولعل مرد قول قيصر ناتج عن قراءاته في التوراة والإنجيل.

- دل الكتاب النبوي على عالمية الدعوة وعموم الرسالة فاستخدم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صفة (رسول الله) وليس نبي الله مثلاً، وذلك من أجل أن يفهم هرقل ومن يسمع معه أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يوحى إليه من أجل التبليغ للناس كافة، فهو لم يكن نبياً لقومه خاصة، كما كان دور الكثير من الأنبياء الآخرين من قبله، حيث كانوا يبعثون لأقوامهم خاصة، وخاصة أنبياء بني إسرائيل، ومن الأنبياء من لم يبعث لأحد[2].

- دل موقف هرقل وقوله على استشراف التحول السياسي والعسكري المستقبلي لدولة الروم في بلاد الشام وانحسار سلطانه عنها.

ومهد عدم استجابة هرقل لدعوة الإسلام، وما تلاه من ردود قاسية

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٥؛ وانظر: حميد الله: محمد: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس ـ بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧، ص١١٢.

من بعض أمراء نصارى العرب الموالين للروم[1]، للاستمرار في الدعوة والقيام بواجب التبليغ وإزالة العقبات من وجه الدعاة في الوصول بالإسلام إلى آفاق الأرض. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تتحرك السرايا والغزوات الإسلامية النبوية باتجاه بلاد الشام؛ فبلاد الشام كانت ضمن الإطار الحيوي للأمة الإسلامية الناشئة، ولا بد من الربط بين الوجود الإسلامي القديم في الشام (مسرى الأنبياء، المسجد الأقصى) وبين إيصال الدعوة إلى الناس في تلك البلاد[2].

ولا شك أن اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الشام والمناطق الشمالية يمكن أن يُفهم في ضوء التطورات الجديدة؛ ليس فقط بسبب صلح الحديبية والتفرغ للمناطق الشمالية، وإنما أيضاً فيما يتعلق بعودة الحكم البيزنطي إلى الشام بصورة خاصة [الذي سبق بيانه]؛ حيث

---

(١) بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة، إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب معه: سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك. فقدم شجاع بن وهب فقرأه عليه فقال: ومن ينتزع ملكي؟ إني سائر إليه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: باد ملكه. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٣١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٤٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٥١١.

(٢) انظر: الغزالي: فقه السيرة، ص٣٨٦؛ الزيد: فقه السيرة، ص٥٥١.

أصبح المسلمون في مواجهة البيزنطيين لأول مرة[(١)]، فقد ظلت طريق الشام تشغل حيّزاً هاماً في خطّته عليه الصلاة والسلام؛ إذ حاول أن يوطّد علاقاته بفروع من جُذام؛ حيث أعطى كتاباً بالأمان لرهط رفاعة بن زيد الجذامي الذي قدم عليه في هدنة الحديبية قبل خيبر[(٢)]، إلا أنه لم يلبث أن قدم دحية الكلبي من عند قيصر، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه ومعه تجارة له، حتى إذا كانوا بواد من أوديتهم يقال له شنار، أغار على دحية بن خليفة الهنيد بن عوص، وابنه عوص بن الهنيد الضلعيان. والضليع: بطن من جذام، فأصابا كل شيء كان معه، فأصابا كل شيء معه، حتى قدم على رسول الله فأخبره الخبر، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم زيد بن حارثة[(٣)]؛ وبدأ النبي صلى الله عليه وآله

(١) الشبول: أحمد: علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزء الأول، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص١٦٨.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج٤، ص١٩١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٤١.

(٣) سرية زيد بن حارثة إلى محل يقال له حِسْمَى، في خمسمائة رجل ورد معه دحية. انظر: ابن هشام: السيرة، ج٤، ص١٩١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٤١، وحِسْمَى: أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان، =

وسلم بمحاولة استطلاع الأوضاع في الشام بعد عودة السيطرة البيزنطية مباشرة[١]، فأرسل سريّة بقيادة كعب بن عمير الغفاري[٢] على رأس خمسة عشر فارساً إلى ذات أطلاح في الشام[٣].

والواقع أن خبر هذه السريّة يدلّ بوضوح على تتبّع الرسول صلى الله

= وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم، وهي أرض لجذام جبال وأرض، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٥٨.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٩١؛ انظر: الشبول: علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، ص١٦٨.

(٢) كعب بن عمير الغفاريّ من كبار الصّحابة، كان قد بعثه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مَرَّةً بعد مرة على السّرايا، وهو الذي بعثه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذات أطلاح، فأُصيب أصحابُه جميعًا، وسلم هو جريحًا، قتلتهم قضاعة. قال الدولَابي وغيره: وذلك في السّنة الثّامنة من الهجرة. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر: إِنه أُصيب بها هو وأصحابه. الاستيعاب لابن عبد البر، ص٦٣١.

(٣) موسى بن عقبة: المغازي، ص٢٦٣، وابن سعد، الطبقات الكبير، ج٢، ص١١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٥٥. وذات أطلاح: موضع من وراء ذات القرى إلى المدينة، كما ذكر ياقوت، ج١، ص٢١٨، وفي وادي العَرَبة بفلسطين مكان يدعى «وادي الطلاح»، لعله هو. انظر: شُرَّاب: محمد محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣٠.

عليه وآله وسلم لأخبار الروم في الشام؛ حيث إن جيش فارس انسحب من الشام وسلم الإدارة للروم البيزنطيين في شهر حزيران (يونية) سنة ٦٢٩ م الموافق شهر صفر سنة ٨هـ، بينما أُرسلت سرية ذات أطلاح بعد ذلك مباشرة في شهر ربيع الأول سنة ٨هـ. ولم يكن إرسالها مجرد مصادفة، ومن الواضح أن هدفها لم يكن القتال؛ لأن عدد أفرادها لم يتجاوز خمسة عشر رجلاً، وإنما كان غرضها استطلاعياً[(١)].

واستمراراً في الدعوة الإسلامية النبوية باتجاه بلاد الشام، وإرساء لقواعد رد العدوان (المتمثل في قتل السفراء) كانت غزوة مؤتة[(٢)]، وكانت في جُمادى الأُولى سنة ثمان، وكان سببُها أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث الحارث بن عميرٍ الأَزْدِي أحَد بني لِهْب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بُصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر الروم، فأوثقه رِباطًا، ثم قدَّمه فضرب عنقه، ولم يُقْتَل لِرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولٌ غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوثَ، واستعمل عليهم زيد بن

(١) الشبول: علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، ص١٦٨.

(٢) مؤتة: بالضم ثم واو مهموزة ساكنة، وهي قرية من قرى البلقاءِ من أرض الشام، في جنوب غرب الأردن. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٢١٩، شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص٢٣٧.

حارثة.. وقد ذكر ابن سعد أن الهزيمة كانت على المسلمين، والذي في صحيح البخاري أن الهزيمة كانت على الروم. ورجح ابن القيم ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأُخرى(١).

* أهم التحولات التاريخية التي أدت إليها هذه الغزوة:

أولاً: كانت هذه الغزوة بداية الصدام العسكري القوي مع الروم، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية، في بلاد الشام، فقد كان الروم أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس، فكان لقاء هذا الجيش الصغير «ثلاثة آلاف مقاتل» مع ذلك الجيش الضخم «مائتا ألف مقاتل» ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر. كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقاً(٢).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٧ ـ ١٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبير، ج٢، ص١٢١؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، حديث رقم (٤٢٦٢)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٥٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٤٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٦٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٤.

(٢) انظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٤؛ الغزالي: فقه السيرة، ص٤٠١؛ غضبان: فقه السيرة، ص٥٤٣؛ المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٣٧؛ الزيد: فقه =

ثانيـًا: إن ما حدث في غزوة مؤتة كان فتحـًا للمسلمين ذو آثار معنوية، فلم يهزم جيش الإيمان أو يفر من أرض المعركة، وإنما انسحب بعد أن قام بالمهمة التي كلفه بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجيش الإيمان أرسل إلى الشام لتأديب عرب الشام، ولم يكن في تعليمات الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم لقادة هذا الجيش أن يحتلوا أي منطقة من بلاد الشام، بل كان الهدف هو التأديب والانتقام من الذين غدروا بخمسة عشر من الدعاة المسلمين وقتلهم في «ذات أطلاح» وكذلك من الذين قتلوا مبعوثه صلى الله عليه وآله وسلم الحارث بن عمير الأزدي إلى أمير «بصرى» الغساني(١).

ثالثـًا: مثلت هذه الغزوة أول المعارك الكبيرة ضد النصرانية في شمال جزيرة العرب وبلاد الشام، فحققت تحولاً عسكريـًا تاريخيـًا في موازين القوى بين الديانة الجديدة (الإسلام)، والديانة النصرانية، وأرسلت رسالة إعلامية قوية بقوة المعسكر الإسلامي(٢).

= السيرة، ص٥٨٣؛ العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٥.

(١) انظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٤؛ بغدادي: رشاد، العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، ص٥٠٥ ـ ٥٠٦؛ الغزالي: فقه السيرة، ص٤٠١؛ العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٥.

(٢) الغزالي: فقه السيرة، ص٤٠١؛ غضبان: فقه السيرة، ص٥٤٣؛ العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٥؛ بغدادي: رشاد، العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، ص٥٠٥ ـ ٥٠٦.

رابعـًا: حققـت الغـزوة بكـل نتائجهـا دروسـًا للمسـلمين وخـبرات عظيمـة مـع الـروم في مستقبل مراحـل جهـادهم معهـم، حيـث تعرفـوا علـى قـوتهم وعـدد وأسـاليب قتـالهم وخططهـم وطبيعـة أرضـهم التـي يقـاتلون عليها(١).

خامسًا: استفاد المسلمون من تلك الغزوة كثيراً حيث تعرفوا على أساليب وخواص قوات الروم في القتال مما أفادهم في قتالهم بعد ذلك ضد جيوش الروم، والحقيقة أن الخسائر المحدودة التي لحقت بالمسلمين لا تعد شيئًا يذكر بجانب المعلومات العسكرية التي استفادوها من الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها مما كان له الأثر الكبير في المعارك التي خاضها المسلمون ضد الروم فيما بعد(٢).

وامتداداً لفرض الهيبة الإسلامية على المناطق الشمالية وتخوم الشام وفلسطين، وتفريقًا لصف القبائل العربية المساندة للروم، كانت سرية ذات السلاسل(٣)؛ وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُذَام

(١) انظر: ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٤؛ الزيد: فقه السيرة، ص٥٨٣؛ العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٥.

(٢) خطاب: محمود شيت: الرسول القائد، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ـ بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، ص٢٠٦؛ المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٣٧؛ الزيد: فقه السيرة، ص٥٨٣؛ العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٥.

(٣) ذات السلاسل: ماء بأرض جُذام، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٢٣٣؛ =

يقال له: السلسل، فسمي ذات السلاسل، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموقف القبائل العربية ـ التي تقطن مشارف الشام ـ في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سبباً للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى، واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي. فبعثه إليهم في جمادي الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة؛ ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قُضَاعَة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليه، وسار حتى وطئ بلاد قُضَاعَة، فدوخها حتى أتى أقصي بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا. وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم[(١)].

وبعد مؤتة بعام تجمَّع الروم ومن شايعهم من قبائل العرب النصرانية

= والأكثر احتمالاً في رأي البلادي: أنها من أرض عذرة أي: ما بين العلا وتبوك، والشام. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص١٥٩.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٩٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبير، ج٢، ص١٢٢؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٦.

(أمثال: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان) مرَّة أخرى في منطقة البلقاء[1]، يريدون دولة الإسلام، وعلم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن هناك تجمعاتٍ للروم ومن حالفهم بهدف القضاء على المدينة النبوية، فقرر أن يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه على رأس أعظم جيوشه؛ فكانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع للهجرة[2].

وذكر ابنُ سعد قال: بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الرومَ قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لَخْمٌ، وجُذام، وعَامِلَة، وغسان، وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء[3].

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تَبُوك، أتاه

---

(١) البلقاء: إقليم في الأردن الحالية، تتوسطه العاصمة أو قصبتها عمّان، ويشرف على الغور الأردني غربـًا. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٨٩؛ شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ص٥٣.

(٢) تبوك: بالفتح ثم الضم: موقع بين وادي القرى والشام، وهي مدينة حجازية تاريخية، على أطراف بلاد الشام، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص١٤؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٥٧. والآن تبوك ضمن حدود المملكة العربية السعودية في الجهة الشمالية الغربية، وتحظى بنهضة حضارية كبيرة [الباحث].

(٣) الطبقات الكبير: ج٢، ص١٥٠.

صاحبُ أَيْلَةَ[1]، فصالحَه وأعطاه الجزيةَ، وأتاه أهل جَرْبا، وأذْرُح[2]، فأعطَوْه الجزيَة، وكتب لهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابًا، فهو عِندهم، وكتب لِصاحب أَيْلة: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أَمَنَةٌ مِن الله، ومحمد النبي رسول الله لِيُحَنَّةَ بن رُؤْبَةَ، وأهلِ أَيْلَة، سُفنهم، وسيارتهم في البرِّ والبحرِ، لهم ذِمةُ اللهِ، ومحمد النبي، ومَنْ كان معهم مِن أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمَن أحدث منهم حَدَثًا، فإنه لا يَحولُ مالُه دونَ نفسه، وإنَّه لمن أخذه مِن الناس، وإنه لا يحِلُّ أن يُمنعوا ماءً يردونه، ولا طريقًا يردونه من بَحْرٍ أو بَرٍّ». ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم، مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٩٢، وتقع على رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر في الركن الشمالي الشرقي، وانظر لمزيد من التفاصيل عن أحداث ميناء أيلة من العهد النبوي حتى نهاية العهد المملوكي؛ الحارثي: محمد بن حسين، الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، كرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٣٧هـ-٢٠١٥م، ص٦٨.

(٢) جرباء: بلفظ الجرباء من الإبل، وأَذْرُحُ: بالفتح، ثم السكون، وضم الراء، والحاء المهملة. وهو جمع ذريح، وذريحة جمعها الذرائح. وتلازم ذكرهما لأنهما متجاورتان، وتقعان شرقي الأردن، وتبعدان عن معان (٢٥) كم، بين الشوبك ومعان. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٢٩؛ شُراب: المعالم الأثيرة، ص٨٩، ٢٤.

بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر دُومة[1]، وهو أُكَيْدر بن عبد الملِك، رجل مِن كِندة، وكان نصرانيًا، وكان ملكًا عليها، ثم إن خالدًا قدم بأُكَيْدر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحقن له دَمَه، وصالحه على الجزية، ثم خلَّى سبيله، فرجع إلى قريته[2].

وقال ابنُ سعد: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا، فذكر نحو ما تقدَّم. قال: وأجار خالد أُكَيْدر من القتل حتى يأتي به رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، على أن يَفتح له دُومة الجندل، ففعلَ وصالحه على ألفى بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة دِرع، وأربعمائة رُمح، فعزل للنبي ﷺ صَفِيَّهُ خالِصًا، ثم قسم الغنيمة، فأخرج الخُمس، فكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قسم ما بقي في

---

(١) دُومَةُ الجندَل: بضم أوله وفتحه، وهي بلدة في الجوف، ويشرف عليها حصن مارد، حصن أكيدر الكندي، والجوف منطقة زراعية شمال تيماء. ياقوت: ج٢، ص٤٨٩، البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ص١٢٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٧ ـ ١٦؛ الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٨٩؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة مؤنة من أرض الشام، حديث رقم (٤٢٦٢)، ج٧، ص٧٥٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٩٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٥٢٠.

أصحابه، فصار لِكل واحد منهم خَمْسُ فرائض[(١)].

قال موسى بن عُقبة: واجتمع أُكَيْدر ويُحَنَّة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاهما إلى الإسلام، فأبيا، وأقرا بالجزية، فقاضاهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على قضية دُومة، وعلى تَبوك، وعلى أَيْلَة، وعلى تيماء، وكتب لهما كتابًا. فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتَبُوك بِضعَ عشرة ليلةً لم يُجاوزها، ثم انصرف قافلًا إلى المدينة[(٢)].

*** دلالات التحولات التاريخية في غزوة تبوك:**

أولاً: ورود البشارة النبوية الثانية بفتح بيت المقدس في غزوة تبوك، بشر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في قبة من أدم[(٣)].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبير، ج٢، ص١٥٢.

(٢) ابن عقبة: موسى: المغازي، جمع ودراسة: محمد باقشيش أبو مالك ـ ١٩٩٤م، المملكة المغربية، جامعة ابن زهر، كلية الآداب، أكادير، ص٣٠٠؛ انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٧ ـ ١٦؛ الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٨٩؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة مؤنة من أرض الشام، حديث رقم (٤٢٦٢)، ج٧، ص٧٥٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٩٠؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٥٢٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب ما يحذر من الغدر، حديث رقم (٣١٧٦)، ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٤٠٣، سبق إيراد الحديث الشريف بنصه.

ثانيــًا: إدخـال الرعـب في الـدول المجـاورة التي كانـت تهـدد الـدعوة الإســلامية وتحــاول منــع انتشــارها، وإضــعاف هيبــة إمبراطوريــة الــروم (البيزنطيين) وتوجيه ضـربة قاصـمة لسـادتها في بـلاد الشـام كـذلك إضـعاف سطوتها ونفوذها على القبائل العربية، وكسر جدار الخوف العربي مـن هـذه الإمبراطورية وهو انتصار نفسي حـاسم، مكـن العـرب بعـد فـترة وجيـزة مـن تجاوز ولائهـم القديم والانطلاق لضرب الروم البيزنطيين وإلحـاق الهـزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منهـا، فكانـت هـذه الغـزوة خطـوة من خطـوات الحركـة الإسـلامية المسـلحة صـوب الخـارج وتخطيـًا لنطـاق العـرب والجزيـرة العربيـة نحـو العـالم وبـادرة متقدمـة لحركـة الفتوحـات الإســلامية التــي شــهدها عصــر الخلفــاء الراشــدين رضــوان الله علــيهم جميعـًا[١].

ثالثـًا: حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الأجـزاء الشمالية من شبه الجزيرة العربية، فكانت تمهيداً لفتوح بلاد الشام[٢].

رابعـًا: وفي العام العاشر للهجرة قدم على رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم مسعود بن سعد وافداً من قبل فروة بـن عمـرو الجـذامي النفـاثي

(١) بغدادي: رشاد، العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، ص٥١٠.

(٢) العُمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص ٦٠١.

الذي كان عاملاً للروم على معان جنوب الأردن، وأهدى لرسول الله بغلة بيضاء، فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يبلغه وصول رسوله بخبر إسلامه، وأهدى إليه هدايا، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أسروه فحبسوه، فلما قدموه ليصلبوه قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني ... سلم لربي أعظمي ومقامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه[1].

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهز جيشاً في آخر صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أُسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، وأمره أن يوطئ الخيل تُخُوم البلقاء والداروم[2] من أرض فلسطين، أراد بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب، وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجُرْف، على فَرْسَخ من المدينة،

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج١، ص٣٠٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٠٣.

(٢) الداروم: قلعة بغزة، وهي مدينة دير البلح الحالية، في قطاع غزة، وتقع على شاطئ البحر بين غزة وخان يونس. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٢٤؛ شُرَّاب: المعالم الأثيرة، ص١١٥.

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق[1].

وهنا تنتهي المرحلة التأسيسية من مراحل إنجاز المخطط النبوي للدعوة خارج الجزيرة العربية وفتح بلاد الشام وضم بيت المقدس التي غرس بذورها واستنباتها ورعايتها المصطفى الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتليها المرحلة الختامية التي أثمرت وأينعت بإذن الله تعالى على يد الصفوة المختارة من الأمة زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؛ المساهمين في وضع أسس وبناء الدولة الإسلامية، وتحقيق نبوءات نبيهم وبشائره بفتح القدس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستظلالها بظل الإسلام.

* * *

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢١٢؛ ابن حجر: ج٧، ص٩٨٣، صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسامة بن زيد رضي الله عنهما؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٣١٠.

المبحث السادس

فتح القدس وصلح إيلياء

وتنطلق التحولات التاريخية بالتوجه الراشدي لفتح بلاد الشام، فكان إنفاذ حملة أسامة بن زيد رضي الله عنه النبوية في السنة ١١هـ، التي كُتب لها أن تتأخر إلى خلافة الصديق رضي الله عنه، ثم بدأ الصديق رضي الله عنه بعد ذلك بتوجيهِ الحملات الإسلامية لفتح بلاد الشام في سنة ١٣هـ بعد أن رجع من الحج، ومهما يكن من أمر فقد كانت معركة اليرموك معركة فاصلة في تاريخ المسلمين والروم، إذ انكسرت بها شوكة الروم، فلم تقم لهم بعدها في بلاد الشام راية، وقد روي أن هرقل لما بلغته هزيمة جنوده في اليرموك وهو في أنطاكيا هرب منها نحو عاصمته القسطنطينية[١]، وقال عند خروجه من الشام: «سلام عليك يا سورية، سلام مودع، لا يرى أن يرجع إليك أبداً»[٢].

أما المسلمون فقد فُتحت لهم بعدها أبواب الشام، فانتشرت قواتهم

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، اعتنى به: رضوان محمد رضوان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ص١٤٢.

(٢) الأزدي: محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٣٦؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٢٨٠.

بدون مقاومة تذكر تعيد ما كانت قد فتح من قبل، وتفتح مدناً جديدةً[١].

ثم راح أبو عبيدة رضي الله عنه يطهر شمال الشام من بقايا الروم، ففتح عدداً من القرى والحصون[٢]، وبعد ذلك كان عليه أن يعود جنوباً للنظر في أمر إيليا (القدس)، فأمر مناديه بالرحيل إليها، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد رضي الله عنه[٣].

كانت بيت المقدس (إيلياء) مركز تجمعات الروم الذين فروا من المواقع التي هزمت فيها جيوشهم مثل أجنادين وحمص وقنسرين واليرموك وغيرها، كما كانت ملجأ ومأوى للذين خرجوا من المدن التي فتحها المسلمون ولم يقبلوا البقاء فيها، ولذلك تجمعت حشود عظيمة، وقد ساعد على انجذاب هؤلاء جميعاً أن الأرطبون القائد الرومي الشهير كان قد فر هو الآخر بعد موقعة أجنادين إلى بيت المقدس انتظاراً ليوم يأخذ فيه لنفسه بثأر الهزيمة التي لحقته على أيدي المسلمين، فأخذ عمرو بن العاص رضي الله عنه وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة في فتح مدن فلسطين، وتمكن في أمد قصير من إخضاعها وتحويلها إلى مدن عربية إسلامية[٤]،

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص٢٣٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٢.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٥.

(٣) الأزدي: تاريخ فتوح الشام، ص٢٤٢.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٤.

باستثناء مدينة الرملة[١]، ومدينة غزة التي ضرب علقمة بن مجزّز[٢] عليها الحصار حتى يمنع الفيقار[٣] من مساعدة الأرطبون في إيلياء[٤].

أما قيسارية فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد كتب ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه أن يبعث أخاه معاوية رضي الله عنه ليقوم بفتحها، وتبدو إستراتيجية عمر واضحة في أن يشغل الروم في عدة جبهات في وقت واحد، حتى لا تمتد يد العون إلى الأرطبون في إيلياء، ونزل معاوية بجنوده على قيسارية وحاصروها، حتى تم فتحها[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨.

(٢) علقمة بن مجزّز: بجيم وزايين معجمتين الأولى مكسورة ثقيلة، ابن الأعور بن جعدة بن معاذ بن عتوارة بن عمرو بن مدلج الكناني المدلجي. ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من الصحابة. وقال البخاريّ في صحيحه: سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزّز المدلجي، ثم أورد حديثا على بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم سرية، واستعمل رجلاً من الأنصار... شهد اليرموك، وحضر الجابية، وكان عاملا لعمر على حرب فلسطين. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٤٦١.

(٣) يذكر ابن كثير: الفيقار ويقال القيقلان، وهو خصي هرقل نسطورس. من قادة هرقل بغزة. البداية والنهاية، ج٧، ص٨٦.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٦.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٦؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٥٥.

وضرب عمرو بن العاص رضي الله عنه وجنوده الحصار على بيت المقدس (إيلياء) واستمر أربعة شهور لم ينقطع خلالها القتال، فأرسل ابن العاص إلى الأرطبون يطلب منه التسليم مثل بقية المدن الأخرى، ووعده الأمان، ولكنه عاند واستمر في القتال، فاضطر ابن العاص أن يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب منه المدد ويستعين برأيه، فأرسل إليه يقول: «إني أعالج حرباً كئوداً صدوماً، وبلاداً أدخرت لك، فرأيك»[1]، فأرسل إليه عمر يقول: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج[2]، ثم كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليكون مدداً لعمرو في فلسطين، فخرج أبوعبيدة رضي الله عنه بجيشه من الجابية متوجهاً إلى بيت المقدس، حتى لحق بعمرو فتسرب الخوف والقلق إلى قلوب أهل بيت المقدس، فطلبوا الصلح على نفس الشروط التي عقد بها مع أهالي هذه المدن المجاورة، واشترطوا تسليم مدينتهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه، وأن يتولى عقد الصلح معهم[3]، فكتب أبوعبيدة وابن العاص إلى

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٥٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، =

عمر بن الخطاب بذلك(١).

فاستشار عمر الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم. وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فمال إلى قول عليّ ولم يهو ما قال عثمان. وسار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وسار العباس بن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، فصالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ليلة الإسراء، ويقال: إنه لبى حين دخل بيت المقدس، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة ص، وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، فأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس

= بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ج١، ص٢٢٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٨.

وهو العمري اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه في ذلك، وسخر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القيامة وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب، فجعلوا يلقون على قبره القمامة، فلأجل ذلك سمي ذلك الموضع: القمامة، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك[1].

وكان فتح بيت المقدس عام (١٦) هجرية[2].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٥٧.

(٢) هناك خلاف ما بين الروايات التاريخية حول تحديد تاريخ فتح مدينة القدس، فأبو حفص الدمشقي يقول: إن فتح المدينة كان قد تم في عام ١٧ للهجري (البلاذري: ص١٤٥). أما سيف بن عمر التميمي الكوفي فيرجعه إلى عام ١٥ للهجرة (الطبري: ج٢، ص٤٤٩). وتذكر أكثر الروايات المسندة إلى رواة قريبين من الحدث زماناً ومكاناً مثل: يزيد بن عبيدة الدمشقي، والوليد بن مسلم الدمشقي، وابن الكلبي، واليعقوبي، وابن البطريق أن بيت المقدس فتح في عام ١٦ للهجرة (أبو زرعة الدمشقي، خليفة بن خياط: ص١٣٥). والأرجح أنها فتحت بعد مجيء عمر بن الخطاب إلى الجابية عام ١٦ للهجرة، لأن عمر لم يدخل فلسطين إلا في تلك السنة، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

وكتب لهم عمر كتاب لأهل القدس (إيلياء) أمان ومصالحة، وضرب عليهم الجزية، واشترط عليهم شروطًا:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن

بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان)[١].

أما النصارى لما حكموا بيت المقدس قبل البعثة بنحو من ثلاثمائة سنة طهروا مكان القمامة، واتخذوه كنيسة هائلة بنتها أم الملك قسطنطين باني المدينة المنسوبة إليه، واسم أمه هيلانة الحرانية البندقانية، فلما فتح عمر بيت المقدس، وتحقق موضع الصخرة أمر بإزالة ما عليها من الكناسة، حتى قيل: إنه كنسها بردائه، ثم استشار كعباً أين يضع المسجد، فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فضرب في صدره وقال: يا ابن أم كعب ضارعت اليهود، وأمر ببنائه في مقدم بيت المقدس[٢].

ويورد شهاب الدين بن تميم المقدسي **الرواية التالية لفتح بيت المقدس**:

«في كتاب عن الوليد قال: أخبرني شيخ من آل شداد بن أوس الأنصاري أنه سمع أباه يحدث عن جده شداد[٣] رضي الله عنه: وقال عمر:

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٩؛ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٢٧، ص١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٦٠.

(٣) شدّاد بن أَوْس بن ثابت: بن المنذر بن حَرَام بن عَمْرو بن زيد مناة بن عامر بن عَمْرو بن مالك بن النجّار، وهو ابن أخي حسّان بن ثابت الشاعر، وتحوّل إلى =

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني أني أفتحها بلا قتال، وأشرف علينا رسول بطريقها يسأل الأمان لرسوله ليبلغ رسالة إلى عمر، ففعلنا، فأتاه بالترحيب، وقال: إنا سنعطي بحضورك ما لم نكن نعطيه لأحد دونك، وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية ويعطيه الأمان. وروى عن شداد بن أوس أنه حضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل مسجد بيت المقدس يوم فتح الله جل ثناؤه بالصلح فدخل من باب محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو ومن معه، حتى ظهر إلى صحنه، ثم نظر يميناً وشمالاً، ثم كبر، ثم قال: هذا والله أو هذا والذي نفسي بيده مسجد داود عليه السلام الذي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه أسري به إليه، وتقدم إلى مقدمه مما يلي الغرب، قال: هاهنا مسجداً، رواه الوليد بن مسلم، عن شيخ من ولد شداد بن أوس عن أبي عن جده شداد»(١).

= فلسطين فنزلها ومات بها سنة ثمان وخمسين في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان يومَ مات ابن خمس وتسعين سنة، وله بقيّة وعقب في بيت المقدس، وكانت له عبادة واجتهاد في العمل، وقد روى عن كعب الأحبار. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٥.

(١) شهاب الدين بن تميم المقدسي (ت٧٦٥هـ): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص١٥٤؛ عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٣٨٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص٢٢٦ - ٢٤٠؛ الرومي =

وقد وجد عبد الله التل (قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨م) مخطوطاً قديماً باليونانية في دير المصلبة في القدس، يسجل بتفصيل حادث مجيء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقدس[(١)].

ويناقش عبد الله بن حسين الشريف[(٢)] العُهدة العُمرية بقوله: إن وجود مضامين الشروط العُمرية في المرويات الخبرية بالمصادر... دليل على وجود الشروط العُمرية وصحتها، وإن لم نجدها بنصها الكامل إلا في

= (٩٨٢هـ): المستقصى في فضل زيارات المسجد الأقصى، ص١٢١ ـ ١٢٤؛ اللقيمي (ت ١١٧٨هـ): لطائف الأنس الجليل في تحائف القدس والخليل، ص٨٣ ـ ٩٥. ويعلق العلامة الشريف أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن عمر العلوي الحسيني (ت٨٧٥هـ): وأقول: في «مثير الغرام» عقب الآثار المذكورة ـ وغيرها في الفتوح ـ، وهذه الآثار المذكورة في الفتوح والشروط وإن كان فيها مقال بهذه الألفاظ، فهي متلقاة بالقبول؛ لأن فتوح الشام والقدس الشريف زمن الصحابة رضي الله عنهم مستفيض ـ والله أعلم. انظر: الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٣٩٢.

(١) انظر: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ص١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) نصارى بلاد الشام في ظل الحكم الإسلامي منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، رسالة دكتوراه، ١٤١٦هـ ـ مكة المكرمة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ص٢٠٧ ـ ٢٠٩.

وقت متأخر عند الطرطوشي[1] ومن جاء بعده، ولم يكن الطرطوشي ليضع ذلك النص، وإنما استقاه من مصدر أو مصادر اطلع عليها، فُقدت ولم تصلنا، فكان أول مصدر حوى الشروط العمرية، فقد سبقه كثيرون ومنهم من حفظه بنصه فأخذ النص عنه الطرطوشي، ومنهم من حفظ الشروط العمرية بفحواها لا بنصها.. يقول ابن القيم مؤكداً صحة الشروط العمرية، وتناقل المسلمين لها مشافهة وكتابة والعمل بها: «وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم، واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها الخلفاء وعملوا بموجبها»[2] وبالنظر في هذه الروايات، ومقارنتها ببعض، يتبين أنها مرويات لعهد واحد وإن تعدد رواتها وطرقها، لتطابقها شبه التام، فالاختلاف بينها يسيرٌ، في اللفظ والمعنى، وهو لا يتعدى خلافاً لفظياً محدود، أو في ترتيب البنود أو نقص شرط أو زيادة آخر لا أكثر فحسب. وعليه فإني أرى العهد المعروف «بالشروط العمرية» صحيحاً.

❊ ❊ ❊

---

(١) هو أبوبكر محمد بن الوليد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي المالكي (ت٥٢٠هـ)، صاحب كتاب (سراج الملوك)، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، دار المنهاج - بيروت، ص٤٦٥.

(٢) أحكام أهل الذمة، ج٣، ص١١٦٤.

المبحث السابع

نزول الصحابة والقبائل العربية في القدس

لم يكن التواجد العربي طارئًا في بلاد الشام، واقتصر دخوله إليها مع الفتوحات الإسلامية؛ بل لقد كان الوجود العربي فيها قديمًا؛ فهم لم يكونوا معزولين عن المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية، وذلك لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، أدت إلى نزوحهم من الجزيرة العربية واستيطانهم ببلاد الشام، وأرجع بعض المؤرخين تواجدهم إلى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، وأرجعه البعض الآخر إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن الوجود العربي في بلاد الشام كان في القرن الأول قبل الميلاد، وأن العرب كانوا منتشرين في مناطق مختلفة داخل المنطقة[١].

ويقول رجاء جارودي[٢]: فقد كان العرب في فلسطين وبلاد الشام

---

(١) الخرابشة: ممدوح عبد الحليم، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي، ص٢٧؛ انظر: ديسّوُ: رنيه، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص٩ ـ ١٢؛ سالم: السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٧ ـ ١٦٥.

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٨م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، ص١٤١.

منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، منذ الهجرة السامية الأولى، القادمة من الجزيرة العربية، والتي كانت تعيش متبدية على طول «الهلال الخصيب»، يصدق ذلك على الأموريين والكنعانيين والعبرانيين الذين كان لهم نفس الأصل العرقي، وهم ينتمون إلى نفس المجموعة اللغوية، وتدل المخطوطات الإغريقية التي عثر عليها في الأردن أن أغلبية السكان في زمن الرومان كانوا عرباً، وأن مهاجرين آخرين قدموا كسائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام من الجزيرة العربية، وقد أنشأوا في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح مملكة الأنباط في جنوب فلسطين.

وتدل الأبحاث والتنقيبات والنقوش على أن الوجود العربي في بلاد الشام كان قبل الميلاد بعدة قرون، فقد تأسست دولة الأنباط في الجزء الجنوبي من بلاد الشام وسميت (العربية الصخرية) وكان ذلك منذ القرن السادس قبل الميلاد[1].

ومن تلك القبائل العربية التي نزلت الشام:

١ . **قضاعة**: من بني حمير بن سبأ: وتعتبر قضاعة من أقدم القبائل التي سكنت بلاد الشام، ويستدل على ذلك من وصية عمرو بن عامر بن حارثة القضاعي حيث يقول:

---

(١) الخرابشة: ممدوح عبد الحليم، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي، ص٢٧.

وأدركـــت روح الله عيســـى ابـــن مـــريم

ولســـــت لعهـــــد الله إذ ذاك الطفـــــل

وهذا يبين بأن قبيلة قضاعة قد استوطنت في بلاد الشام قبل القرن الأول الميلادي، بعد الحرب التي نشبت بينها وبين قبيلة ربيعة، وفي ذلك يقول عامر بن الضرب:

قضـــاعة أجلينـــا مـــن الغـــور كلـــه

إلـــى فلجـــات الشـــام نزجـــى المواشـــيا

٢. **تنوخ**: هاجرت قبائل تنوخ من العراق إلى المناطق الغربية (بلاد الشام) الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية وذلك في سنة ٢٢٦ م.

٣. **سليح**: وهم بطن من بطون قضاعة، ويعتبر اسم الضجاعمة أحد أسماء قبيلة سليح الذين كانوا عمالاً للبيزنطيين في بلاد الشام، وقد بقوا كذلك حتى دخل الغساسنة سنة (٤٩٠م) في أيام الإمبراطور أنسطاسيوس، وقد كانت مملكتهم من تدمر بسوريا حتى خليج العقبة[١]..

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص١٢٠ ـ ١٢٢؛ وانظر: ابن سلام: أبو عبيد القاسم، كتاب النسب، تحقيق: مريم الدرع الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، دار الفكر، ٣٦١ ـ ٣٧٠؛ الخرابشة: استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي، ص٣٢ ـ ٣٥؛ سالم: السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٧، ١٩٥، ٢١٤.

وبعد الفتح الإسلامي للقدس اتخذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجموعة من التدابير، فأسكن الجند داخل المدينة وخارجها، ومن القبائل التي شاركت في حصار المدينة وفتحها والاستقرار فيها عك والنخع وحمير، وممن ذكر أنه من إمدادات أهل اليمن التي نزلت في القدس ذو الأصابع، وعدد من الصحابة منهم واثلة بن الأسقع(١) وشداد بن أوس بن ثابت الأنصاري النجاري وتوفي فيها وعقِبُه بها(٢)، وجعل عمر بن الخطاب في فلسطين حاميتين، إحداهما مع علقمة بن مجزز وأسكنه بيت المقدس، والثانية مع علقمة بن حكيم وأسكنه الرملة(٣).

*** من نزل القدس من الصحابة أو مر بها:**

وقد ازدانت القدس بنزول بعض الصحابة بها، وزانوا بها وسُرّوا، فمنهم من كان في صفوف جيش عمرو الذي حاصرها، ومنهم من رافق أمير المؤمنين عمر حين دخلها فاتحًا، ومنهم من زارها وأهلّ بالعمرة والحج منها، ومنهم من أقام ومات ودُفن في ثراها، كما سيأتي بيانه تباعًا:

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص١٢٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص٣٢٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٩؛ ابن خلدون، ج٢، ص٥٤٣؛ وانظر لمزيد من التفاصيل: عامر نجيب موسى ناصر: استقرار القبائل العربية في بلاد الشام في صدر الإسلام، ص٨٥.

فمن بين المصادر المقدسية التي وثقت وتوسعت في ذكر أعيان الصحابة الذين نزلوا القدس الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس لعبدالوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ)، وإتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى للمنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ).

وعلى رأس هؤلاء الصحب الكرام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[١] رضي الله عنه فإنه قدم الشام أربع مرات، قال الحافظ أبو محمد القاسم: مرتين سنة ست عشرة، ومرتين في سنة سبع عشرة، ولم يدخلها في الأولى من الأخيرتين ودخل حال الصلح كما تقدم[٢].

وأبو عبيدة بن الجراح[٣] رضي الله عنه انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس، فأدركه أجله بفحل فتوفي بها، وقد قال: ادفنوني غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، وقيل: قال: ادفنوني حيث قبضت فإني أتخوف أن تكون سُنة، ومات سنة ثماني عشرة في طاعون عمواس، وهي من الرملة

---

(١) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٢٤٥، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٥٥١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٥٠٩.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٠.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٣٧٩، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٩٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣.

على أربعة أميال مما يلي بيت المقدس.[(١)].

وأبو الدرداء عويمر ـ رضي الله عنه ـ، وسعيد بن أبي زيد بن عمر بن نفيل قدم بيت المقدس زمن الفتوح[(٢)].

وسعد بن أبي وقاص[(٣)] رضي الله عنه الزهري من بني زهرة، قدم بيت المقدس وأحرم منها بعمرة[(٤)].

بلال بن رباح[(٥)] رضي الله عنه: ويورد مجير الدين العليمي الحنبلي (ثمَّ نزل ـ أي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وَحَضَرت

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٦؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٠ ـ ٣٥.

(٢) المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٢.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص١٢٧، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٠٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٥٨.

(٤) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٦؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٠ ـ ٣٥.

(٥) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٢١٣، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص١٢١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢١٦.

الصَّلَاة فَقَالَ: يَا بِلَال، أَلا تؤذن لنا رَحِمك الله؟ قَالَ: بِلَال يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ، وَالله مَا أردْت أَن أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَلَكِن سأطيعك إِذا أمرتنِي فِي هَذِه الصَّلَاة وَحدهَا، فَلَمَّا أذن بِلَال وَسمعت الصَّحَابَة صَوته ذكرُوا نَبِيّهم صلى الله عليه وآله وسلم فبكوا بكاء شَدِيداً، وَلم يكن من الْمُسلمين يَوْمئِذٍ أطول بكاء من أبي عُبَيْدَة ومعاذ بن جبل حَتَّى قَالَ لَهما عمر: حسبكما رحمكما الله)[(١)].

وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل[(٢)] رضي الله عنهما قدم بيت المقدس زمن الفتوح[(٣)].

وعبد الله بن عمر[(٤)] رضي الله عنهما قدم بيت المقدس وأهل منه

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن عبد البر في ترجمته لبلال، الاستيعاب، ص١٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٩٤، والذهبي في ترجمته لبلال: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢١٦.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٣٥٢، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣١٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٧٨.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٧؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٠.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٤، ص١٣٣، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٧٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٤٦.

بعمرة قال: وكان قدومه بعد صلاة الصبح، فجلس في المسجد حتى إذا طلعت الشمس قام فصلى ركعات هو ومن معه، ثم قعدوا على رواحلهم ولم يأتوا الصخرة ولم ينتظروا صلاة الجماعة(١).

وعبد الله بن عباس(٢) رضي الله عنهما أهل من بيت المقدس في الشتاء(٣).

وعبد الله بن عمرو بن العاص(٤) السهمي رضي الله عنهما وأبوه وأخوه عبيد الله شهدوا أجنادين، وقدموا على معاوية فبايعه عمرو على طلب دم عثمان بن عفان، وكتبا بينهما كتابا(٥).

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٢.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٢، ص٣١٤، ج٦، ص٣٢٠، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٦٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٣٩.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٥٩.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص٨٢، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٧٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٧٧.

(٥) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المُقدّس، ج١، ص٤٦٠؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء =

ومعاذ بن جبل[1] رضي الله عنه روى إبراهيم بن أبي عبلة، عن رجاء بن حيوة عن عبد الرحمن بن تميم الأشعري أن معاذًا أتى بيت المقدس فأقام بها ثلاثة أيام بلياليها يصوم ويصلي، فلما خرج منها وكان على الشرف التفت إليها، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما ما مضى من ذنوبكم قد غفر لكم، فانظروا ما أنتم صانعون فيما بقي من أعماركم[2].

وأبو ذر الغفاري[3] رضي الله عنه جندب بن جنادة، روى الإمام أحمد في مسنده عن الأحنف بن قيس قال: دخلت بيت المقدس فرأيت فيه رجلًا يكثر الركوع والسجود، فوجدت في نفسي من ذلك شيئًا، فلما انصرف قلت: أتدري على شفع انصرف أم على وتر؟ فقال: أما أنا لا أدري، فقلت: ومن يدري؟ فقال: أخبرني حبيبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بكى: «ما من عبد سجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة

= بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٢.

(١) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٥٣٩، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٦٧١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٧٨.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٦١ ـ ٤٩٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٢.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٤، ص٢٠٥، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٣٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٧٨.

وحط عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة» قال: قلت: أخبرني من أنت رحمك الله؟ فقال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتقاصرت إلى نفسي، وروى غيلان عن مطرف قال: دخلت مسجد بيت المقدس فذكر بنحوه قال: وسكن أبو ذر بيت المقدس، ثم ارتحل إلى المدينة، وتوفي بالربذة(١) آخر خلافة عثمان رضي الله عنهما(٢).

وخالد بن الوليد(٣) رضي الله عنه: سيف الله المسلول، دخل بيت المقدس(٤).

---

(١) كانت الربذة فلاة بأطراف الحجاز مما يلي نجدا، وهناك من عدها في (شرف نجد) ولما كانت ولاية عمر حماها لإبل الصدقة، ثم قامت فيها محطة صارت بلدة على طريق حاج البصرة. وأورد ياقوت في معجم البلدان: أن الربذة خربت سنة ٣١٩هـ، بسبب حروب كانت بينهم وبين أهل ضرية. (ضرية لا زالت معروفة في شرف نجد)، وأن أهل ضرية استعانوا بالقرامطة على أهل الربذة، فارتحل أهل الربذة فخربت، وكانت من أحسن المنازل في طريق مكة. البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص١٣٦.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٦٢ ـ٤٩٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٣.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٣٩٨، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٢٣٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٢٧.

(٤) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ =

وعَياضُ بن غَنْم[(١)] رضي الله عنه، دخل بيت المقدس وبنى بها حمامًا وهو ابن عم أبي عبيدة[(٢)].

وعبد الله بن سلام[(٣)] أبو الحارث رضي الله عنه الإمام الحبر الإسرائيلي المشهود له بالجنة، من خواص الصحابة. قال الواقدي: بلغنا أنه شهد فتح بيت المقدس[(٤)].

ويزيد بن أبي سفيان[(٥)] صخر بن حرب رضي الله عنه: بعثه أبو بكر

= المقدّس، ج١، ص٤٦٧؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٥.

(١) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٥.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧٠؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٦.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٢، ص٣٠٤، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٦٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٦٥.

(٤) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧١؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٧.

(٥) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٩، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٧٥٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٥.

رضي الله عنه إلى الشام، وكان على جند من الأجناد المنفذة[١].

ومعاوية بن أبي سفيان[٢] رضي الله عنه[٣].

وأبو هريرة[٤] عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قدم بيت المقدس[٥].

وأبو أمامة صدي بن عجلان[٦] رضي الله عنه سكن بيت المقدس

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧١؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٧.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤١٠، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٦٧٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٨٥.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧١؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٧.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص٢٣٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص١٧٥.

(٥) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧٣؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٧.

(٦) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص٢١١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٥٧.

ودمشق، وكان آخر من بقي بالشام من الصحابة(١).

وأبو مسعود الأنصاري(٢) عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه(٣).

وعوف بن مالك الأشجعي(٤) رضي الله عنه: شهد فتح بيت المقدس(٥).

وأبو جمعة الأنصاري(٦) رضي الله عنه: واسمه حبيب بن سباع،

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٧.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٨، ص١٣٨، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٥٢١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص١١٧.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج(١، ص٤٧٦؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٨.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٥، ص١٦٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص١١٣.

(٥) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٨.

(٦) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٥١٣، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص١٨٠.

وقيل غير ذلك، قدم بيت المقدس(١).

وعبادة بن الصامت(٢) رضي الله عنه: سكن بيت المقدس، وجهه عمر إلى الشام قاضيًا ومعلمًا فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين. قال ابن عبد البر: ومات بفلسطين ودفن ببيت المقدس، وقبره معروف إلى اليوم، وقيل: توفي بالرملة، والأول أكثر وأشهر، وكانت وفاته سنة أربع وثلاثين، والآن قبره لا يعرف ببيت المقدس ولا بالرملة واندرس؛ لاستيلاء الفرنج على تلك الناحية(٣).

وشداد بن أوس(٤) رضي الله عنه ابن أخي حسان بن ثابت، نزل الشام ناحية فلسطين، قال عبادة بن الصامت: كان شداد بن أوس ممن أوتي

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٧٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٨.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص٥٠٦، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٠٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٥٣.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٠؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٨.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٥، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٥٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩٤.

العلم والحلم، وقال أبو الدرداء: إن الله تعالى يؤتي الرجل العلم فلا يؤتيه الحلم، ويؤتيه الحلم ولا يؤتيه العلم، وشداد بن أوس آتاه الله العلم والحلم، ذو عبادة واجتهاد وله عقب ببيت المقدس(١).

وأبو ريحانة(٢) رضي الله عنه واسمه: شمعون بشين معجمة وقيل بمهملة، القرظي من بني قريظة. ويقال: إنه من بني النضير، ويقال: مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسكن أبو ريحانة بيت المقدس، وكان يقضي في المسجد الأقصى(٣).

وتميم الداري(٤) رضي الله عنه وفد هو وأخوه نعيم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع، وأسلما وصحب تميم رسول الله

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٢؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٩.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٢٨، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٦١.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٢؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٢٩.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤١٢، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص١٢٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٣.

صلى الله عليه وآله وسلم وغزا معه، وروى عنه ولم يزل بالمدينة حتى تحول إلى الشام بعد مقتل عثمان، وكان أميرًا على بيت المقدس، قال روح بن زنباع: دخلت عليه وهو أمير المؤمنين ببيت المقدس وهو ينقي لفرسه شعيرًا، ثم قام به حتى يعلقه عليه، فقلت له: ما عندك من يكفيك هذا؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من نقى لفرسه في سبيل الله شعيرًا ثم قام به حتى يعلقه عليه كتب له بكل شعيرة حسنة»[(١)]، وأقطعهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببلادهما حبرى وبيت عينون، وليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطيعة على غيرهما، وكان تميم يحذر من زلة العالم فإن الناس يقتدون به وإن تاب بعد ذلك[(٢)].

والشريد بن سويد[(٣)] رضي الله عنه، قدم بيت المقدس لأنه نذر أن

(١) رواه الطبراني في معجمه الصغير، وإسناده حسن، انظر: عبدالوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٠.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٠.

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٨، ص٧٤، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٦٠.

يصلي فيه إن فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستأذن في ذلك فأذن له(١).

عبد الله بن أبي الجدعاء(٢) التميمي رضي الله عنه، ويقال: الكناني، ويقال: العبدي، عن عبد الله بن شقيق، قال: كنت مع رهط بإيلياء فقال رجل منهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يدخل الجنة بشفاعتي رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواك؟ قال: سواي. فلما قام قلت: من هذا؟ قال: ابن أبي جدعاء» حديثه صحيح حسن غريب رواه الترمذي(٣).

وفيروز الديلمي(٤) رضي الله عنه أبو عبد الله، سكن بيت المقدس

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٦؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣١.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٥٨، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٢٧.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٧؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣١.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٨، ص٩٣، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٦٠٣.

ويقال: إن قبره به، مات في خلافة عثمان رضي الله عنه[١].

وذو الأصابع التميمي[٢] رضي الله عنه، ويقال: الخزاعي، ويقال: الجهني، سكن بيت المقدس قال ابن سعد: ذو الأصابع من أهل اليمن، من المدد الذين نزلوا الشام ببيت المقدس[٣].

وأبو أبي ابن أم حرام[٤] رضي الله عنه، ويقال: أبي ويقال: عبد الله بن أبي، وقيل عبد الله بن كعب، وقيل: عبد الله بن عمرو بن قيس، وأمه أم حرام بنت ملحان أخت أم سليم، أسلم قديمًا، ويعد في الشاميين، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث: «عليكم السَّنَا والسَّنُوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام...»[٥]. سكن بيت المقدس وكان ببيت

---

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣١.

(٢) انظر ترجمته ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٢٥١، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ص٤٣٧.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٨٩؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٢.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٥، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٣٧.

(٥) والحديث صحيح كما ورد في حاشية الروضُ المُغرّس، ج١، ص٤٩١، وفي =

عبادة ابن الصامت، وقال أبو بكر: الخطب فيما رواه بإسناد أبي موسى بن سهل النيسابوري قال: أسامي أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين كانوا بأرض فلسطين ممن سكنها منهم من أعقب، ومنهم من لم يعقب والذين كانوا ببيت المقدس، فذكر عبادة بن الصامت، وأبي ابن أم حرام، وآخرين، مروا. هو آخر من مات من الصحابة ببيت المقدس(١).

واثلة بن الأسقع(٢) رضي الله عنه سكن الشام، ثم تحول إلى بيت المقدس ومات به(٣).

ومحمود بن ربيع(٤) أبو نعيم رضي الله عنه: وقيل: أبو محمد، نزل

= سنن ابن ماجه، حديث صحيح برقم ٣٤٥٧، والسَّنَا نبات معروف، والسَّنُوتُ الْعَسَلُ الَّذِي يكونُ فِي زِقَاقِ السَّمْن.

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٩٠؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٢.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤١١، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ص١٥٦١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٧٤.

(٣) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٩٠؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٢.

(٤) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٦، ص٥٦٤، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٦٥٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٥.

ببيت المقدس وأهل منه بحج وعمرة[1].

وغضيف بن الحارث[2] رضي الله عنه: وهو الصواب في اسمه، قدم بيت المقدس هو وأهله، فصلى وجماعة من الصحابة، وعن شداد بن أوس قال: شهدت مع معاوية بيت المقدس فجمع، فإذا جُلُّ من في المسجد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فرأيتهم محتبين[3] والإمام يخطب[4].

* * *

(١) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٩٥؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٤.

(٢) انظر ترجمته في ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٤٨، ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٥٩٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٥٢٣.

(٣) احتبى الشَّخصُ: جلس على أَلْيَتَيه وضمَّ فَخِذَيه وساقَيه إلى بطنه بذراعيه ليستند. معجم اللغة العربية المعاصرة، ج١، ص٤٤٠.

(٤) عبد الوهاب العلوي الحسيني (ت ٨٧٥هـ): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، ج١، ص٤٩٨؛ المنهاجي السيوطي (ت ٨٨٠هـ): إتحاف الأخصَّاء بفضائل المسجد الأقصى، الباب العاشر، القسم الثاني، ص٣٥.

الفصل الثاني
مظاهر التحولات التاريخية في القدس

المبحث الأول

مظاهر ارتباط (مكة والقدس) دينيًا وتاريخيًا

والحديث عن مظاهر الارتباط بين المدينتين المقدستين يتداخل ويتلاقى مع كافة عناصر الدراسة، وفي هذا المطلب سيتم الإشارة إلى أهم مظاهر الارتباط بين مكة والقدس.

وتتجلى أولى تلك المظاهر في النشأة التاريخية للمسجدين بالمدينتين المقدستين؛ فالمسجد الحرام بمكة أول بيت وضع للناس، وجعله الله تعالى مباركا وهدى للعالمين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، ثم تلاه المسجد الأقصى. فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي ذرٍّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثم أينما أدركت الصلاة بعدُ فَصَلِّهْ فإن الفضلَ فيه»[2].

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٩٦).

(٢) ابن حجر: فتح الباري، صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم =

ومن مظاهر الارتباط التاريخي الديني بين مكة والقدس أن بناء مسجديهما على يد الأنبياء عليهم السلام؛ قال ابن كثير: بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولهذا جمعوا له كلهم فأَمَّهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدس، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين[1]. قال عطاء الخراساني: بيت المقدس بنته الأنبياء، وعمرته الأنبياء والله ما فيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبي[2].

وبناء الكعبة المشرفة تم على يد أبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام القادمين من فلسطين (القدس) قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].

ومن مظاهر الارتباط صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد البعثة

= (٣٣٦٦)، ج٦، ص٥٩٥؛ النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢٠)، ج٥، ص٣.

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٣.

(٢) الزركشي: محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر ـ القاهرة، ص٢٨٣.

(٣) سورة البقرة آية رقم (١٢٧).

إلى بيت المقدس، فهي القبلة الأولى، ويقول ابن كثير لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]: «وقد جاء في هذا الباب أحاديثُ كثيرة، وحاصلُ الأمر أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُمِرَ باستقبال بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس»[2].

وإلى مكة يكون الحج والعمرة، لا لغيرها، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[5]، وأما بيت المقدس: فاتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إليه للعبادة المشروعة فيه: كالصلاة

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٤٢).

(٢) سبق تفصيل تحويل القبلة.

(٣) سورة الحج، آية رقم (٢٧).

(٤) سورة البقرة، آية رقم (١٩٦).

(٥) سورة البقرة، آية رقم (١٥٨).

والدعاء والذكر وقراءة القرآن والاعتكاف، وقد روي من حديث رواه الحاكم في صحيحه «أن سليمان عليه السلام سأل ربه ثلاثـًا: ملكـًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله حكما يوافق حكمه، وسأله أنه لا يؤم أحد هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه إلا غفر له[(١)]» ولهذا كان ابن عمر رضي الله عنه يأتي إليه فيصلي فيه ولا يشرب فيه ماء لتصيبه دعوة سليمان لقوله: «لا يريد إلا الصلاة فيه»، فإن هذا يقتضي إخلاص النية في السفر إليه، ولا يأتيه لغرض دنيوي ولا بدعة. وكان الصحابة ثم التابعون يأتون، ولا يقصدون شيئًا مما حوله من البقاع، ولا يسافرون إلى قرية الخليل، ولا غيرها[(٢)].

فكانت هزيمة الروم من الفرس[(٣)] ثم انتصارهم على أرض الشام؛ ويظهر الارتباط في الإعجاز القرآني في الإخبار بانتصارهم من مكة قبل حدوثه في سورة الروم المكية: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ

---

(١) ورد في الحاشية، الحاكم في المستدرك ١/ ٣٠-٣١، وقال «صحيح على شرط الشيحين، ولم يخرجاه: ووافقه الذهبي.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٢٧، ص٧.

(٣) سبق تفصيل الإخبار بالحرب الفارسية الرومية.

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

وكما أن آية الإسراء تجمع المسجدين، قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾[2]، ففي سورة التين أقسم الله بالمدينتين المقدستين مكة والقدس في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾[3].

«إن جغرافية الأنبياء وتاريخهم المنير الذي عرضه القرآن الكريم وأضاءت السنة النبوية جوانبه التفصيلية في الأحاديث الشريفة، تدور حول تاريخ مكة بالدرجة الأولى، ثم تاريخ القدس والمسجد الأقصى، منذ عصر آدم وحتى عصر الرسالة الخاتمة، فتاريخ الأنبياء منذ عصر آدم وحتى عصر النبوة الخاتمة يؤكد تلك الصلة بين مكة والقدس، بعيداً عن الأساطير التوراتية والسرد المنحاز لهذا التاريخ. وقد عرض القرآن ذلك التاريخ عرضاً مفعماً بالتوحيد والوحدة، والمتأمل في تاريخ الأنبياء وارتباطه بجغرافية القرآن، الذي اتضحت معالمه الجغرافية، وتحرك من خلالها وفي معارجها الأنبياء والمرسلين، بين مكة والقدس، ليرسموا للبشرية صراطها المستقيم، سواء في عصور الأنبياء الأوائل آدم ونوح

---

(١) سورة الروم، آية رقم (١ ـ ٦).

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (١).

(٣) سورة التين، آية رقم (١ ـ ٣).

وإدريس، أم في عصر أبي الأنبياء إبراهيم الخليل وما بعده، وإشراق الأرض المباركة بالحنيفية الإبراهيمية ودورها المتميّز في رسم الخطوط العريضة للإسلام الخالد الذي علّم البشرية منهج العبودية لله، في أرض المشرق الطاهرة في مكة والقدس، موصولاً بالإسلام الخاتم الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة والقدس، عبر الأحداث الجليلة في سيرته العطرة»[1].

* * *

(١) المدرس: تاريخ الأنبياء بين مكة وبيت المقدس، ص٤ ـ ٥.

المبحث الثاني

تحول القدس إلى مدينة عربية إسلامية

(التحول السياسي والتشريعي)

أدى الفتح الإسلامي لمدينة القدس إلى تحولها من مدينة بيزنطية يدين أهلها بالنصرانية إلى مدينة عربية إسلامية، وتحولت تدريجياً إلى الثقافة العربية الإسلامية.

تجلت مظاهر التحول في القدس من الاضطهاد الروماني إلى العدل الإسلامي، حيث تذكر دائرة المعارف اليهودية العامة: «إن فتح العرب للبلاد أنقذ يهود فلسطين من الدمار الكامل»، كما يعلق المؤرخ اليهودي هيامسون: «وعملياً، فيما يتعلق بيهود فلسطين، فإن المسلمين قد جاؤوا كمنقذين وليس كمضطهدين»[1].

ويقول مؤرخ بريطاني: «اليهود السماريون المسيحيون كلهم استقبلوا العرب، كمخلصيهم من اضطهاد اليونانيين الأرثوذكس وجورهم[2].

*** ومن أهم مظاهر التحولات التاريخية التي تجلت في فتح القدس والعُهدة العُمرية:**

كون فتح المسلمين للقدس والعُهدة العُمرية التي أعطاها عمر

(١) خان: تاريخ فلسطين القديم، ص١٣٥.

(٢) خان: تاريخ فلسطين القديم، ص١٤٦.

لنصارى القدس دالاً على علو مكانة القدس وأهميتها، وتمثل ذلك عندما لم يدخلها المسلمون إلا بعد الصلح وارتضوا شروط أهل القدس ورهبانها في ضرورة حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه ليتولى أمرها(١).

وبهذا الخلق يظهر تسامح الإسلام ليؤكد قداسة المدينة في الإسلام وتعلق قلوب المسلمين بها، على عكس الأمم السابقة التي احتلت مدينة القدس المباركة؛ فمنذ نشأة المدينة تم تدميرها وسفك دم أهلها كلما دخلها غاز أو محتل، كما سبق بيانه، فقد عامل الغزاة المدينة على مر العصور بالقتل والحرق والتدمير والتنكيل، فكان الفتح العمري بياناً لإسلامية المدينة المقدسة وترسيخاً لطابعها الإسلامي العميق، ولقد كان فتح المسلمين بيت المقدس رجوعاً به إلى أصله الأول، حيث نزلت القبائل العربية فيه، واستقرت به، قد ساعد على انتشار اللغة العربية والإسلام سريعاً بين أهلها، وشعر الناس بالأمان والاستقرار والتعايش

---

(١) العارف: تاريخ القدس، ص٤٨ ـ ٥٢؛ شُرَّاب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٨٦ ـ ٨٨؛ رباح: تاريخ القدس عبر العصور، ص١٥٨؛ فارس: عزت محمود، قراءة في العُهدة العُمَرية، دراسة منشورة بمجلة جامعة دمشق ـ المجلد ٢٦ ـ العدد الأول والثاني ٢٠١٠م؛ الزيان: رمضان إسحاق، روايات العهدة العمرية، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، المجلد الرابع عشر ـ العدد الثاني، يونيو ـ ٢٠٠٦م، ص١٦٩ ـ ٢٠٣.

السلمي في ظل راية الإسلام وسماحة المسلمين(١).

كانت وثيقة الصلح التي اشتهرت باسم «العُهدة العُمرية» والتي تعد من الآثار الخالدة الدالة على عظمة تسامح المسلمين في التاريخ، فبعد أن تم إبرام وثيقة تسليم مدينة إيليا (بيت المقدس) في فلسطين إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أصبحت فلسطين كلها خاضعة للحكم الإسلامي، وتحررت هذه المدينة المقدسة من حكم الرومان الذي استمر حوالي ٧٠٠ سنة (٦٣ ق. م - ٦٣٧ م) وأصبح بيت المقدس مدينة مسلمة عربية(٢).

وأشارت العهدة إلى إعطاء أهلها الأمان وإبانة الحقوق والواجبات مع توخِي العدل والإنصاف حسب شروط الإسلام على أهل الذمة بهدف الاستقرار وإشاعة الأمن في المدينة، دون تضييع لحقوق كلا الطرفين المتعاقدين، ويختم الكتاب «العهدة» ويمهر بتوقيع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهذا دليل على أهمية العهدة المرتبطة بقدسية المكان. ودليل

---

(١) شُرَّاب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٨٦ - ٨٨؛ فارس: عزت محمود، قراءة في العُهدة العُمَرية، دراسة منشورة بمجلة جامعة دمشق - المجلد ٢٦ - العدد الأول والثاني ٢٠١٠م؛ الزيان: رمضان إسحاق، روايات العهدة العمرية، ص١٦٩ - ٢٠٣.

(٢) العارف: تاريخ القدس، ص٤٨ - ٥٢؛ رباح: تاريخ القدس عبر العصور، ص١١٥، ١٥٨.

على أهمية هذا الحدث أن يشهد على العهدة جلة الصحابة الذين وردت أسماؤهم بها[1].

وقد كتبت هذه العُهدة باللغة العربية، مما يشير إلى أنها اللغة الرسمية للأمة والدولة، وبها تُكتب العهود والمواثيق، فامتازت هذه العهدة بلغة سليمة واضحة، ودقة في العبارات والمعاني، فهي خاليةٌ من أي إبهام أو غموض، بحيث لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل أو اختلاف على المقصود؛ كما رتبت موادها وفصلت بنودها أوضح تفصيل، فتبدأ بالأمان على النفوس، ومن ثم الأموال والكنائس، وحرية المعتقد الديني، وأسلوب الجمع واضح في عبارات العهدة بحيث تُطَبَّقُ على الجميع دون استثناء[2].

كما أن فتح المسلمين لبيت المقدس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس سنين يدل دلالة واضحة على مدى تشوق المسلمين إلى تحقيق بشرى سابقة منه صلى الله عليه وآله وسلم لأمته: بفتح بيت المقدس ودخول الإسلام في أرجائه ورفع راية التوحيد فوق

(١) فارس: عزت محمود، قراءة في العُهدة العُمَرية، دراسة منشورة بمجلة جامعة دمشق، ص٢١٦؛ الزيان: رمضان إسحاق، روايات العهدة العمرية، ص١٨٥ ـ ١٩٠.

(٢) العارف: تاريخ القدس، ص٤٨ ـ ٥٢؛ شُرَّاب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٨٦ ـ ٨٨؛ رباح: تاريخ القدس عبر العصور، ص١٥٨؛ فارس: قراءة في العُهدة العُمَرية، ص٢١٨.

أسواره. ولا شك أن تحقيق تلك البشرى من أعلام نبوته ودلائل رسالته وبراهين صدق مقامه عند ربه(١).

ويعلق رجاء جارودي على العُهدة العُمَرية: وهنا أيضاً يشهد رابوبورت، وهو يكتب في مؤلفه «تاريخ فلسطين Histoire de la Palesstine» من وجهة النظر اليهودية: «يجب أن نعترف بأن إعلاناً كهذا في بداية القرن الوسيط (وقد التزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة) هو إعلان حافل بالإنصاف، فهو يتنفس عدالة وتسامحاً، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يعبروا مطلقاً عن مشاعر من هذا القبيل باسم الذي دعاهم إلى دين الحب. إن وثيقة كإعلان الخليفة كانت كفيلة بإحداث تأثير عميق، لا في روح اليهود فحسب، بل في روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يعاني من الظلم والطغيان، في حين كان الآخرون يعانون من اضطهاد الكنيسة التابعة للدولة جَرَّاءَ ما يعتنقون من آراء دينية مختلقة، وكان الجميع يتحملون أغلال الموظفين وأعباء الضرائب الباهظة»(٢).

فأصبحت فلسطين كلها خاضعة للحكم الإسلامي، وتحررت هذه

---

(١) شُرَّاب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٨٧ ـ ٩٠؛ رباح: تاريخ القدس عبر العصور، ص١٥٨؛ الزيان: روايات العهدة العمرية، ص١٨٨ ـ ١٩٥.

(٢) جارودي: رجاء، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ص١٤٤.

المدينة المقدسة من حكم الرومان الذي استمر حوالي ٧٠٠ سنة (٦٣ ق. م ـ ٦٣٧ م) وأصبح بيت المقدس مدينة مسلمة عربية.

ولقد كان فتح المسلمين بيت المقدس رجوعا به إلى أصله الأول، حيث نزلت القبائل العربية فيه، واستقرت به، فانتشرت اللغة العربية سريعًا، وشعر الناس بالأمان والاستقرار والتعايش السلمي في ظل راية الإسلام وسماحة المسلمين، فاتخذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القدس مجموعة من التدابير، فأسكن الجند داخل المدينة وخارجها، ومن القبائل التي شاركت في حصار المدينة وفتحها والاستقرار فيها عك والنخع وحمير، وممن ذكر أنه من إمدادات أهل اليمن التي نزلت في القدس[١] ذو الأصابع، وعدد من الصحابة منهم واثلة بن الأسقع[٢] وشداد بن أوس بن ثابت الأنصاري النجاري وتوفي فيها وعقبة بها[٣]، وجعل عمر بن الخطاب في فلسطين حاميتين، إحداهما مع علقمة بن مجزز المدلجي وأسكنه بيت المقدس، والثانية مع علقمة بن حكيم وأسكنه الرملة[٤].

---

(١) مجير الدين العليمي الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٢٦٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٧، ص٤٠٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٧، ص٤٠١؛ مجير الدين العليمي الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٢٦٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٩.

فكانت مهمة الولاة في عهد الخلفاء الراشدين تتمثل في سياسة الولاية وفق تعاليم الإسلام، ونشُر الثقافة الاسلامية بتعليم الناس، وإقامة العدل، وجباية الفيء، وإمداد الجيش بالمقاتلين سواء في حروب الردة أو الفتوحات[١]، وتنظيم الولاية والإشراف على القضاة والموظفين الآخرين، فإن الوالي ينبغي أن يجمع بين المهام الدينية والدنيوية، كما أنه يتمتع بصلاحيات واسعة داخل ولايته، ولا يرجع إلى الخليفة إلا في المشكلات المستعصية. ولا شك أن قيام الولاة بإمامة الناس في الصلاة، وخطبتهم فيهم بأنفسهم في صلاة الجمعة يعزز مكانتهم ويوحد القيادة الدينية والسياسية في أشخاصهم، كما أن توليهم بأنفسهم لجيوش الفتح تكسبهم احترام الناس وطاعتهم، وعندما يتولى الحكم خليفة جديد فإن الولاة يأخذون له البيعة من سكان الولايات، ومن مهامهم أخذ الزكاة من الأغنياء وإنفاقها على الفقراء، وتحقيق الأمن للرعية، وإقامة الحدود الشرعية، وكان الوالي يُنيب من تقوم مقامه عند غيابه عن الولاية[٢].

وكانت العلاقة بين الخليفة في المدينة وولاة الأمصار تتم عن طريق

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٥، ص٢٤٨؛ انظر: العُمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، الطبعة السابعة، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، العبيكان، ص١٢٢؛ العُمري: عبد العزيز بن إبراهيم، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص١٢٠ ـ ١٤٤.

الرسائل المتبادلة، كما يستدعي الخليفة بعض ولاته إلى المدينة أحيانا، وأحياناً كان يرسل ممثلاً عنه إلى الولاة للاطلاع على أحوال الولايات بصورة مباشرة، وكان محمد بن مسلمة الأنصاري يقوم بمهام التفتيش على الولاة في خلافة عمر، واهتم عمر رضي الله عنه بجمع الولاة بمكة في موسم الحج للتداول معهم في أحوال الأمة، وقام الخليفة عمر بتفقد أحوال الولاة والقادة في الشام عندما زار بيت المقدس لتسليم مفاتيحها وأصر على زيارتهم في بيوتهم ليعرف على أحوالهم وتعاملهم مع الدنيا والأموال ومدى تعلقهم بها، وقد عانق أبا عبيدة عامر بن الجراح عندما رأى زهده في الدنيا رياشاً وطعاماً وقال له «ما من أحدٍ من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك»[(١)].

أورد الطبري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس يوم الجمعة، فقال: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وأن يقسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلي. وقال: كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم، فيقول: إني لم أستعملكم على أمه محمد ﷺ على أشعارهم، ولا على أبشارهم، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضوا

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص٢٥٥، العمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، ص١٢٤.

بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل، وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ، وأنا شريككم وكان يقتص من عماله، وإذا شكي إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه به. وقال: خطب عمر بن الخطاب، فقال: يا أيها الناس، إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى، فو الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية، فأدب بعض رعيته، إنك لتقصه منه! قال: إي والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقص من نفسه! ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم[1].

وتولى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ الخلافة في الأيام الأولى من سنة ٢٤ للهجرة، وثبت معاوية بن أبي سفيان في ولايته، فظلت الشام تحت

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٦٦.

إدارة معاوية طوال عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وولى علقمة بن حكيم الكناني فلسطين. ولم يتأكد وجود أعمال محددة لعثمان في القدس، ولم تخضع الشام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه طيلة خلافته، بل كان يحكمها واليها القديم معاوية بن أبي سفيان الذي لم ينفذ أمر عزله الذي أصدره الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[1].

وقد وجد الإسلام اعتناقاً طريقه إلى نصارى الشام منذ عهد النبوة، فقد أدت دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغزواته التي وجهها إلى تخوم بلاد الشام إلى اعتناق أعداد من نصارى الشام دين الإسلام، وقد ذهب بعضهم إلى المدينة كتميم الداري رضي الله عنه الذي كان نصرانياً وأسلم سنة تسع من الهجرة، وغيره. وتوالى دخول الأفراد والجماعات مع الأيام قبل فتح القدس وبعدها إلى الإسلام، فأصبح الدين الإسلامي هو الغالب على بلاد الشام، حتى شاركت القبائل العربية في الحروب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كقبائل مسلمة، كما ظهر تناقص الجزية دلالة واضحة على إسلام عدد كبير من النصارى في العهد الراشدي[2].

* * *

(١) العمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، ص١٣٩.

(٢) عبد الله الشريف: نصارى بلاد الشام في ظل الحكم الإسلامي، ص٥٠١ـ٥٠٣.

المبحث الثالث

التحول الاجتماعي في القدس

كما سبق تعريف التحول الاجتماعي في المقدمة: بأنه يتخذ عدة أشكال؛ فالتحولات الاجتماعية تكون في القيم الاجتماعية وفي النظام الاجتماعي ومراكز الأشخاص، وعليه فإن ماهية التحول الاجتماعي هو كل ما يطرأ على البناء الاجتماعي في العناصر والوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال مدة محددة من الزمن.

وقد حققت الشريعة الإسلامية التي طبقها الخلفاء الراشدون وولاتهم في الأقاليم المفتوحة ومنها القدس الضبط الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، ومن أهم ما قامت عليه الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة تجاه المرأة في العهد النبوي، وما أضافه الخلفاء الراشدون في مراحلهم المتوالية، إنما كان سنناً راشدية، على خُطى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، في هديه وهداه وتشريعه وسنته، فأبطل الإسلام أنكحة الجاهلية، ورغب الإسلام في الزواج، ونهى عن التبتل، وفي أوائل العهد المدني شُرعت أحكام النكاح، والمساواة في الحقوق والواجبات، إلا ما خص أحدهما بواجبات مغايرة للآخر، وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ

عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾[(١)(٢)].

وأدى استظلال القدس بظل الدولة الإسلامية وحكم المسلمين لها بمقتضى الشريعة الإسلامية إلى تغير الفئة الحاكمة للمجتمع المقدسي وهم المسلمون، كما أن نزول القبائل العربية وأفراد من العرب المسلمين ـ الصحابة ومن أتى بعدهم ـ بالقدس ساهم في تطوير بنية المجتمع المقدسي، وذلك بإضافة عناصر عربية إسلامية تمثل القوة والقدوة وتحمل الدين وثقافته، فكانت الأكبر تأثيراً في تحول حياة المجتمع المقدسي نحو الإسلام والثقافة العربية والإسلامية لغة وعلومـًا، وإلى العروبة عادات وتقاليد وقيمًا.

ويوضح العُمري بعض مظاهر التحولات بأنواعها على يد الخلفاء الراشدين: «فإن عصر الخلافة الراشدة امتداد لعصر السيرة النبوية، حيث تؤثر القيم الإسلامية على الناس في نشاطهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتنعكس على الحكم في علاقته بالأمة وبالقوى الخارجية من ناحية أخرى، وتؤثر في اختيار الحاكم وقيم التعامل معه من حيث الطاعة المشروطة بإنفاذ أحكام الشريعة، والحفاظ على وحدة الأمة

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٢٨).

(٢) للاطلاع على التفاصيل عن التحولات الاجتماعية في المجتمع المسلم، في الباب الأول.

والشورى والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاجتهاد الفردي والجماعي لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فيما يتعلق بالوقائع الجديدة والمتنوعة، وينظر المسلمون إلى عصر الخلافة الراشدة باعتباره أميز العصور في تاريخهم بعد عصر النبوة، حيث تولى الحكم كبار الصحابة المقربين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ممن شهد لهم بالسابقة والفضل والبشارة بالجنة، تعاونهم أعداد من الصحابة الذين نزل القرآن بتعديلهم، وهم الذين مثلوا النخبة القيادية في الفكر والسياسة والإدارة والاقتصاد والفتوح»[١].

فقام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الناس خطيباً مدخله من الشام بالجابية، فقال في خطبته: «وأدبوا الخيل وانتضلوا[٢] وانتعلوا[٣] وتسوكوا وتمعددوا[٤]، وإياي وأخلاق الأعاجم ومجاورة الخنازير، وأن يرفع بين ظهرانيكم الصليب، وأن تقعدوا على مائدة يشرب

---

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص٧ ـ ٨.

(٢) نضل: نَاضَلَهُ أي: راماه، يقال: ناضَلَهُ فَنَضَلَهُ من باب نصر أي: غلبه وانْتَضَل القوم وتَنَاضَلوا رموا للسبق وفلان يُنَاضِلُ عن فلان إذا تكلم عنه بعُذرِه ودفع، الرازي: مختار الصحاح، ص٢٧٧.

(٣) النعل الحذاء، وانتعل أي احتذى. الرازي: مختار الصحاح، ص٢٧٨.

(٤) تَمَعْدَدَ القومُ: تصلَّبوا وتشبَّهوا بمَعدٍّ بن عدنان، وكانوا أَهل قَشَفٍ وغِلَظٍ في المعاش. المعجم الوسيط، ص٨٧٧.

عليها الخمور»[١]. لتكون منهجاً ونبراساً للفاتحين في بلاد الشام وغيرها، وليكونوا فئة مؤثرة لا متأثرة وبخاصة في جانب الدين والأخلاق والعادات العربية والقيم الإسلامية الأصيلة.

وبالنظر إلى الشروط العمرية فإنها رسمت المعاملة الإسلامية لغير المسلمين، وتناولت ضوابط الحياة الاجتماعية لغير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية، بما يحفظ لهم حقوقهم ويكفل عدم تأثيرهم على المسلمين. وأصدر عمر بن الخطاب عدداً من الأوامر والتوجيهات، فأمر أن تُهدم كل كنيسة لم تكن قبل الإسلام، ومنع استحداث الكنائس، وألا يظهر صليبٌ خارجاً من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، ومنع النصارى من الترغيب في دينهم ودعوة المسلمين إليه[٢].

وقال أبو يوسف: «على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها... وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم ـ أي: عيدهم

(١) ابن زنجويه: أبو أحمد حميد بن مخلد الخرساني، الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض،، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ السعودية، «كتاب فُتوح الأرضين وسننها وأحكامها»، باب: ما جاء فيما يجوز لأهل الذمة، حديث رقم (٤٠٥) الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص٢٦٨.

(٢) ابن عبيد: القاسم بن سلام، «الأموال» تحقيق محمد خليل هراسي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٨٠؛ انظر: عبد الله الشريف: نصارى بلاد الشام في ظل الحكم الإسلامي، ص٣٨٠ ـ ٣٨٥.

الأكبر وهو الفصح ... على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة»[١]، وذلك لمنع نشر النصرانية، وإظهار شعائرها وطقوسها حماية للمجتمع الإسلامي.

وحدث ابن عباس: أن ليس لأهل الذمة أن يبيعوا ويقتنوا الخنازير في أمصار المسلمين[٢].

فكان من أدوار الصحابة الاجتماعية العلمية مزاولة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهدف إحداث التحول المنشود في مجتمع بيت المقدس، وبخاصة أولئك الذين طال مكوثهم مثل الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي توفي في بيت المقدس سنة ٣٤هـ، وأبو أبي ابن أم حرام رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس[٣].

وتواصلت التحولات الاجتماعية في عصر الخليفة عثمان رضي الله عنه، ولكنها لم تبتعد كثيراً عن سيرة وسياسة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن نهج الشيخين من قبله، فمثلا «كان أول كتاب أرسله عثمان رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد جاء فيه (أما بعد فإنكم حماة المسلمين، قد

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، «الخراج» دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، بيروت، ص٢١٨.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص٢٩٦؛ ابو عبيد: الأموال، ص١٢٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٥؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٣٧.

وضع لكم عمر رضي الله عنه ما لـم يغـب عنـا، فـلا يبلغني عـن أحـد منكم تغيير ولا تبـديل فيغير الله مـا بكـم، ويستبدل بكـم غيركم، فـانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه فها هو رضي الله عنه يوصي أمراءه بأن يسيروا على خطى عمر رضي الله عنه وعلى الطريق الذي اختطه لهم وحيث إنه رضي الله عنه سار على نهج صاحبيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر رضي الله عنه فيكون رضي الله عنه قد سار على النهج القويم والسليم في ولايته[(١)].

* * *

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩١.

المبحث الرابع

التحول الحضاري للقدس:

(التطور العلمي، النشاط الاقتصادي، النمو العمراني)

* التطور العلمي:

ارتبط نشر العلم وتطور العلوم بانتشار الإسلام وعناية المسلمين بالعلوم الدينية خاصة والعلوم عامة، فقد أدى فتح بيت المقدس ودعوة أهلها إلى الإسلام إلى نشر العلوم الشرعية وتعلم العربية بين أهلها حتى صبغت بالصبغة العربية الإسلامية؛ فاتخذ الصحابة الذين انتقلوا إلى فلسطين من المسجد الأقصى مركزاً لهم لتعليم أهلها وتفقيههم في الدين، وقد أم العلماء وطلبة العلم الصحابة ليتعلمو منهم.

وأول من قص تميم الداري، استأذن عمر، فأذن له، فقص قائما، وكان قد استأذن عمر في القصص سنين، ويأبى عليه، فلما أكثر عليه، قال: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن، وآمرهم بالخير، وأنهاهم عن الشر، قال عمر: ذاك الربح، ثم قال: عظ قبل أن أخرج للجمعة فكان يفعل ذلك، فلما كان عثمان، استزاده، فزاده يوما آخر[(١)].

وكان لانتقال الصحابة إلى هذه الأمصار أثر في انتقال طلبة العلم وارتحالهم إليها، وإحداثهم التحول الاجتماعي، فكانت وجهتهم المسجد

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٦.

حيث يلتقون بالصحابة ليسمعوا منهم، فلما نزل الصحابة فلسطين، كان ممن نزلها عبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه الذي لم يستقر في دمشق، بل رحل إلى فلسطين وعلم بها حتى صار شيخ أهل فلسطين. وتوجه إليها عبادة ابن الصامت بعد وفاة معاذ بن جبل رضي الله عنه عام طاعون عمواس، وعبادة رضي الله عنه أول من ولي قضاء فلسطين، وكان قد أخرجه إليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلماً، فنزل القدس وعلم بها، ودفن في مقبرة باب الرحمة تحت سور المسجد الأقصى. وممن نزلها وعلم بها شداد بن أوس الذي تصدر المسجد الأقصى لمهمة التدريس بعد أن كان والياً بحمص أولاً ثم نزل فلسطين وسكن القدس، ووصفه أبو الدرداء بقوله: «لكل أمة فقيه، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس» رضي الله عنه وتوفى سنة ٥٨هـ[(١)].

ووصل الصحابي عبادة بن الصامت إلى الشام ورافقه معاذ بن جبل، وأبو الدرداء رضي الله عنهم ليعلموا الناس القرآن بالشام، ويفقهوهم في الدين، فأقام عبادة بحمص، وأقام أبو الدرداء بدمشق، ومضى معاذ إلى فلسطين (الأردن)، ثم توجه عبادة بن الصامت بعد ذلك إلى فلسطين (بيت

---

(١) مطالقة: أحلام محمود، أثر انتقال الصحابة إلى الأمصار في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي، رسالة ماجستير، ١٤١٦هـ ـ جامعة اليرموك، الأردن، ص٣٢.

المقدس)، وهو أول من ولي القضاء فيها[1].

ويقول أبو سلام الأسود[2]: «كنت إذا أتيت بيت المقدس نزلت على عبادة بن الصامت رضي الله عنه»[3]. ويؤخذ من كلام أبي سلام أنه كان ينزل ببيت المقدس أكثر من مرة، وفي كل مرة يقصد المسجد فيتعلم من

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٥؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٠٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٥٤.

(٢) أبو سلام الأسود: ممطور الحبشي، ثم الدمشقي، الأسود الأعرج، وقيل: إنما قيل له الحبشي نسبة إلى حي من حمير، فالله أعلم. من جلة العلماء بالشام. حدث عن حذيفة، وثوبان، وعلي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة، وكثير من ذلك مراسيل كعادة الشاميين يرسلون عن الكبار، وروى أيضا عن أبي أمامة الباهلي، وعبد الرحمن بن غنم، وأبي أسماء الرحبي، وأبي مالك الأشعري، والنعمان بن بشير، وطائفة. وقد ذكر أبو مسهر أن أبا سلام سمع من عبادة بن الصامت ببيت المقدس. حدث عنه حفيداه: يزيد ومعاوية ابنا سلام، ومكحول، وعبد الرحمن بن يزيد، وعبد الله بن العلاء بن زبر، والأوزاعي، وطائفة. وعمر دهرا. وثقه أحمد العجلي وغيره. وقد كان كتب إلى يحيى بن أبي كثير بأحاديث من مروياته. واستقدمه عمر بن عبد العزيز ـ في خلافته ـ إليه على البريد ليشافهه بما سمع من ثوبان في حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: شققت علي. فاعتذر إليه عمر وأكرمه، توفي سنة نيف ومائة فإن كان الأوزاعي شافهه فهو أكبر شيخ له. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣١٢.

(٣) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٤٠٠.

الصحابة، ويتفقه من الحلقات العلمية فيه، وكان النشاط التعليمي للمسجد متمثلاً في تعلم القرآن الكريم وتفسيره والفقه، والحديث النبوي، والعلوم المعينة على تعلم العلوم الدينية كالعلوم اللغوية، وهكذا تضافرت جهود الصحابة في نشر الدعوة الإسلامية، وذلك من خلال المسجد، وتكون جيل من التابعين حمل راية العلم ونشره[(١)].

ومن العلماء الذين أسهموا مع عبادة بن الصامت في التعليم شداد بن أوس (ت٥٨هـ) الذي قال عنه عبادة بن الصامت: أوتي العلم والحلم، ويشار إلى أنه روى عن النبي عليه السلام جملة أحاديث وروى عنه أهل الشام[(٢)]، وقال ابن سعد: كانت له عبادة واجتهاد في العمل وروى عن كعب الأحبار[(٣)].

وسبقت الإشارة إلى أن كل من الصحابيين الجليلين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانا قد دخلا بيت المقدس، وورد أن ابن عباس رضي الله عنهما قد أهل من بيت المقدس في فصل الشتاء بالحج أو العمرة. كما أن عبد الله بن عمر

(١) مطالقة: أثر انتقال الصحابة إلى الأمصار، ص٣٣.

(٢) عبد الوهاب العلوي الحسيني: الروض المغرس في فضائل البيت المقدس، ج١، ص٤٨٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٧، ص٤٠١.

رضي الله عنهما قد أهل بالعمرة من بيت المقدس. ومن المحتمل أن دخول هذين العلمين من أعلام الصحابة إلى القدس؛ سهل التقاء كبار المحدثين والفقهاء في بيت المقدس بهما، وأنهم أفادوا منهما، وأخذوا عنهما حيث كانت تشد الرحال إليهما إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، فكيف إذا وصلا إلى بيت المقدس؟[1].

ومن الصحابة أيضاً الذين يمكن ذكرهم في تعليم الفقه والحديث: أبو أبي بن أم حرام الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، سكن بيت المقدس، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو ريحانه[2] رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس، له صحبة وسماع ورواية، وكان من الفضلاء الأخيار، النجباء الزاهدين في الدنيا، روى عنه الشاميون[3]. وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الله بن سلام وعوف بن مالك الأشجعي وسعيد بن زيد بن عمرو وسعد بن أبي وقاص[4]، وذو الأصابع التميمي رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس، وعبد الله بن عمرو بن

---

(١) انظر: الهيتي: شاكر محمود، عبد المجيد ناصر الخطيب، الصحابة الذين دخلوا القدس، مجلة مداد الآداب، العدد الثالث، كلية الآداب - الجامعة العراقية، ص٥٦٧ - ٥٧٠.

(٢) سبقت ترجمته والتعريف به.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٦١.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٠٤.

العاص السهمي رضي الله عنه، كان فاضلاً حافظًا عالمًا، قرأ الكتاب، واستأذن النبي في أن يكتب حديثه فأذن له، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو[١] رضي الله عنه. وأبو أمامة صدي بن عجلان رضي الله عنه، آخر من بقي من أصحاب رسول صلى الله عليه وآله وسلم في بيت المقدس، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأكثر، روى عنه جماعة من التابعين[٢].

* النشاط الاقتصادي:

يقوم تنظيم الإسلام للحياة الاقتصادية على أساس أن المال لله، وأن الإنسان مستخلف فيه، فينبغي على الإنسان أن يتقيد في سلوكه الاقتصادي بشريعة الله عز وجل؛ لأنه المالك الحقيقي لما في السماوات والأرض، وكما نصت عليه آيات كتاب الله الكريم، وصح في سنة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.

فسن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين، إبقاء الأراضي المفتوحة عنوة ومنها فلسطين؛ وأن يمتنع عن تقسيمها وجعلها وقفًا بيد أصحابها، وضرب عليها الخراج ليكون فيئًا دائمًا للمسلمين،

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٤٧٧.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب، ص٣٧٢.

ومما يُلاحظ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عدم قسمته للأرض المفتوحة بين الفاتحين إنما اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في معاملته لدومة الجندل[١].

واستطاع اتخاذ القرار باعتبار الأرض وقفًا على الأمة كلها، وقرر بقاءها بيد أهلها الأصليين على أن يدفعوا مقابل ذلك ما قرر عليها من خراج[٢].

وهكذا فقد تقرر أن يترك أهل فلسطين بأرضهم، يدفعون الخراج عنهم، إذ جُعلت أرض فلسطين وقفًا على الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة[٣].

وكان مقدار الجزية[٤] التي تمثل عدالة وسماحة الإسلام على أهل

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٧.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص٢٣ ـ ٢٧؛ أبو عبيد: الأموال، ص٧٢ ـ ٧٤؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٤؛ الماوردي علي بن محمد بن حبيب المصري، «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٨٦.

(٣) أبو عبيد، الأموال، ص٧٥، ١٤٤؛ البلاذري: فتوح البلدان ص١٤٤ ـ ١٤٩؛ انظر: رياض شاهين: ملكية أرض فلسطين من الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ص٣١٥.

(٤) والجزية لغة: اسم للمال المفروض على رؤوس من دخل ذمة المسلمين من =

= أهل الكتاب ومن في حكمهم، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة: ٢٩]، وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب: وهم اليهود والنصارى وهو إجماع لا خلاف فيه، وتجب على الرجال الأحرار العقلاء، منهم ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري، كما أن الجزية لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من مقعد، والمقعد والزَّمِن إذا كان لهما يسار أخذت منهما، وكذلك الأعمى، وكذلك المترهبون في الديارات وإذا كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا مساكين يتصدّق عليهم أهل اليسار لم يؤخذ منهم، وتسقط الجزية، بالموت، وبالإسلام، وتسقط بالافتقار، فإذا افتقر الذمي بعد غنى وأصبح غير قادر على دفع الجزية سقطت عنه الجزية، وقد أسقطها عمر عن الشيخ الكبير الضرير البصر عندما رآه يسأل الناس، وفرض له ما يعوله من بيت المال، وتسقط عند عجز الدولة عن حماية الذميين، لأن الجزية ما هي إلا ضريبة على الأشخاص القاطنين في أقاليم الدولة الإسلامية، وتدفع هذه الضريبة في مقابل انتفاعهم بالخدمات العامة للدولة، علاوة على أنها نظير حمايتهم والمحافظة عليهم، وبدل عدم قيامهم بواجب الدفاع عن الدولة ومواطنيها، ولم يكتف عمر بتنفيذ سياسة عادلة، بل أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم. انظر: أبو يوسف: الخراج، ص٧٢؛ وأبو عبيد: الأموال، ص٢٠١؛ ابن زنجويه: الأموال، ج١، ص١٥٨، ١٥٧، ١٥١؛ ٢١٧، ٢١٦، ١٦٠؛ صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق..، حديث رقم (٣٧٠٠) =

القدس من النصارى واليهود، وباقي مدن الشام ابتداءً جريبًا[1] وديناراً على كل شخص[2].

ورغم وجود سجلات تدون فيها أسماء المكلفين بدفع الجزية إلا أنه لا تتوفر أية معلومات عن عدد دافعي الجزية في جند فلسطين، ولا المبالغ المتحصلة منهم إبان هذه الفترة، واستناداً إلى ما ذكره البلاذري، وابن عساكر، أنه كان يُستثنى من حيز المدينة في اتفاقية الصلح المنازل التي جلا أهلها عنها وفضول الدور فيها، وأسواقها، وموضع لإقامة مسجد جامع بها، فيعود للمسلمين حرية التصرف بها[3].

وجاء الإسلام وكان الدرهم الساساني والدينار البيزنطي شائعين في

= ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٩٢؛ كهوس: أبو اليسر رشيد: محاضرات في سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهن، الحكمة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ص٨٧.

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٤.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٤.

(٣) شاهين: رياض ملكية أرض فلسطين من الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الثامن ـ العدد الثاني ـ الجزء الأول، يونية ٢٠٠٠، ص٣١٣، وانظر: أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢؛ أبو عبيد، الأموال، ص٢٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٥.

العهدين النبوي والراشدي، ويشير القرآن الكريم واصفا طوائف من أهل الكتاب، ويذكر الدينار قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾[1].

واستمرت الدولة الإسلامية زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين تتعامل في أمورها المالية بالدينار الذهبي البيزنطي زالدرهم الفضي الفارسي، فاشتمل النقد المستعمل في أيام الخلفاء الراشدين على «الدراهم الساسانية، وهي من فضة، وعلى الدينار البيزنطي الذهبي (السوليدس) والفلوس البيزنطية وهي من النحاس». ولا يُعرف بدقة فيما إذا كان الخلفاء الراشدون قد أصدروا نقداً أم لا، وورد أنهم يتعاملون بنقود اصطُلح على تسميتها باسم «العملة العربية البيزنطية»، وكانت نسخة أخرى من الفلوس البيزنطية وتسك محلياً من النحاس في بعض المدن دون مدن أخرى». ففي فلسطين مثلاً، كانت المدن التي تصدر هذه العملة «هي إيليا واللد وعسقلان وغزة ويبنا وبيت جبرين»، بينما «لا نجد نقوداً صدرت في قيسارية ويافا ونابلس»[2]. ويقول أبو عبيد: «إن الدراهم التي كانت نقد الناس على وجه الدهر لم تزل نوعين هذه

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٧٥).

(٢) عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ٦٠٠ ـ ٦٦١ م، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

السود الوافية «البغلية» وهذه الطبرية، فجاء الإسلام وهي كذلك»[(١)].

فكان من مظاهر التحول الاقتصادي وثماره هو التحرر من اضطهاد الضرائب الرومانية، إلى عدالة الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية؛ يقول الدكتور إدمون ربّاط[(٢)]: «[أنتجت] الاضطهادات الدينية نفوراً وكراهية وعداء في سوريا ومصر، حيال الإغريق في بيزنطيا، كما كانت عليه الحالة النفسية في العراق تجاه الساسانيين الفرس، الذين لم يمتنعوا هم أيضاً عن اللجوء إلى العنف وسفك الدماء لإخضاع المسيحيين، من نساطرة ويعقوبيين، إلى سياستهم المجوسية، وكان لا بدّ للأصول السامية من أن تهيئ النفوس لهذا النفور نحو المملكتين العظيمتين في ذلك الحين، وهي التي دفعت سكان سوريا والعراق على الأخص إلى أن يتوسّموا الخير وينشدوا الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقط من محنتهم الدينية، بل أيضاً من ظلم الضرائب وكثرتها التي كانت تثقل كاهل المكلفين في أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل، وهذه المعطيات أجمع المؤرخون على أنها ساهمت كثيراً بتسهيل سبل النصر للفتوحات العربية، لدرجة أنه جزموا بأن سكان هذه الأقطار قد تقبلوا العرب بقلوب رحبة؛ لأنهم رأوا

(١) أبو عبيد: الأموال، ص٢٢٠.

(٢) ربّاط: إدمون، بحث (المسيحيون في الشرق قبل الإسلام)، مجلة «الحوار» ـ بيروت، في عددها الصادر في حزيران/ يونيو ١٩٨٩، ص٨.

فيهم محرّرين لا غزاة، وحسبنا الاستشهاد ببعض الأقوال من هذا القبيل، كميخائيل السرياني، بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر، أي: بعد خمسة قرون من الفتح، وفي تاريخه الطويل نجد عبارات استهجان لسياسة الروم، كالتالية:

«لأنّ الله هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كل شيء قدير، والذي وحده إنما يبدّل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبّر، ولأنّ الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، فإنما قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الروم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا»؛ وهي شهادة رهيبة، نجد مثلها... ولأنهم قد تحققوا من هذا الوضع النفساني، الذي كان عاملاً حاسماً في إنجازات الفتح العربي، بسرعة مذهلة، فقد توافق المؤرخون الغربيون في عصرنا على إعلان هذه الحقيقة، أمثال الهولندي دي غوج، والبريطاني ألفرد بتلر، والفرنسي أرنست رينان وعدد كبير من سواهم، ونكتفي في هذا المضمار بإيراد مقطع من دي غوج، في بحثه العميق حول فتح سوريا، الصادر في أوائل القرن الحالي، وفي معرض تذكيره بالتبعة التي يتحملها الإمبراطور هراقليوس، أو هرقل، في ضياع سوريا، بسبب سياسته الخرقاء، بوسائل شتى من

الاضطهاد، وذلك مع إشارته إلى ازدياد الضرائب التي أثقلت كاهل سكان سوريا، مما حدا هؤلاء السوريين على اليقين بأن سلطان العرب سيكون أكثر رحمة وأشد حرية لمعتقداتهم. يقول هذا المستشرق الهولندي: إن العرب والسوريين معاً كانوا يرون في بلاد الشام جزءاً لا يتجزأ، مكملاً من الجزيرة العربية، وذلك بقوله ما نصّه: «منذ أبعد الأزمنة، كانت سوريا موطناً للعرق السامي، وعلى الرغم من أن الحكومة كانت في عهد بيزنطيا متمركزة في القسطنطينية، فإن الشعب كان بمعظمه سامياً وحتى عربياً، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربي الاستيلاء على قطر غريب، الغاية المباشرة منه جباية الضرائب من سكانه، وإنما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحاً تحت طغيان الاحتلال الأجنبي، وبالتالي استعادة عدد عظيم من المواطنين المهيئين نفسياً لإشراكهم بالدفاع عن مجد الله ونبيه»؛ ولا غرو أن السياسة التي اتبعها العرب المسلمون منذ أول فتوحاتهم قد أعدّت تلك الجماهير في البلاد التي دانت لهم، إلى تقبل سلطاتهم، وهي سياسة كانت هي أيضاً فتحاً بذاتها، في عالم الفكر والدين[1].

* النمو العمراني:

بدأ النشاط المعماري في الدولة الإسلامية مع هجرة الرسول الكريم

---

(١) ربّاط: إدمون، بحث (المسيحيون في الشرق قبل الإسلام)، مجلة «الحوار» ـ بيروت، في عددها الصادر في حزيران/ يونيو ١٩٨٩، ص٨.

عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، حيث قام ببناء مسجده ومنزله، ورغم بساطة هذا البناء إلا أن تصميم المسجد الأول في المدينة كان الأساس الذي أثر على ما هو معروف باسم التصميم التقليدي للمسجد بعد ذلك، وبعد وفاة الرسول الكريم بدأ عصر الخلفاء الراشدين، حيث قام عمر بن الخطاب بتوسيع مساحة المسجد النبوي الشريف، كما أقام مسجدا خشبيًا عند الصخرة المقدسة بفلسطين عرف بالمسجد الأقصى، واتبع الخلفاء الراشدين منهج رسول الله في البناء، حيث البساطة في بناء المدن والمساجد، كما ساهم نزول المسلمين بعد الفتح، والرحلة إلى المسجد الأقصى إلى تطور القدس عمرانيـًا، وذلك لحاجة المسلمين للسكن.

وكما سبق بيانه في فتح بيت المقدس تقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد دخوله القدس للتعرف على منطقة الصخرة المشرفة وموقع المسجد الأقصى، وعمل على تنظيف منطقة المسجد، ورفع القمامة عن الصخرة، وكذلك خطط هناك لمحراب في الجهة الجنوبية الشرقية وهو موضع المسجد اليوم، وابن حوقل والمقدسي أشارا إلى بناء المسجد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١).

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧١؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٦ ـ ١٦٧؛ انظر: خلف: مروان، التطور المعماري لمدينة القدس في الفترة =

وأول ذكر لوجود بناء على منطقة المسجد الأقصى أورده الرحالة أركولف الذي زار المدينة عام ٦٧٠م والذي ذكر أن بيتاً للصلاة قد أقيم في المنطقة، ووصفه بأنه مربع الشكل ويتسع لثلاثة آلاف شخص، والجدير ذكره أن الفترة التي زار فيها هذا الرحالة المدينة المقدسة تتناسب مع فترة حكم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الذي حكم بين ٤٠ ـ ٦٠هـ، ٦٦٠ ـ ٦٨٠م، لذا فالاحتمال أن البناء الذي شاهده أركولف هو إما البناء الذي أمر ببنائه عمر واستخدم في الفترة الأموية في عهد معاوية أي: أنه البناء الذي جدد في عهد معاوية، وتجدر الإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان ـ كما تذكر المصادر التاريخية[1] ـ أخذ البيعة في مسجد بيت المقدس الذي يُطلق عليه اليوم اسم المصلى المرواني[2].

ويورد شُرَّاب[3] نص الرحالة الغربي أعلاه، وبأنه مطران من بلاد

= الإسلامية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن عشر ـ كانون ثاني ٢٠١٠م، ص١٥.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٦٦، المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ص١٥.

(٢) خلف: مروان، التطور المعماري لمدينة القدس في الفترة الإسلامية، ص١٦؛ أبو علية: عبد الفتاح، القدس، دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، دار المريخ ـ الرياض، ص٦٠.

(٣) بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص٩٢.

الغال (فرنسا اليوم) يُدعى «فرانك أركولف Frank Arculf» الذي زار القدس أوائل العهد الأموي عام ٦٧٠م الموافق ٥٠هـ ـ وقضى فيها تسعة شهور وتردد على البقاع المحيطة بها. ومما كتبه عن بيت المقدس: كان على سور بيت المقدس يومئذٍ (٨٤) بُرجًا، وله ستة أبواب، ثلاثة منها فقط تستعمل للدخول والخروج: واحد منها غربي المدينة والثاني شماليها والثالث شرقيها... ويؤتى بالخشب إلى بيت المقدس من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال، وعلى تل منتصب في وسط سهل متسع يقع على يسار المسافر إلى القدس، ولا يبعد عن الطريق قليلاً، وفي هذه الغابة تنبت أشجار الصنوبر بكثرة، ومن هذه الأشجار ينقل المقدسيون الخشب الذي يحتاجون إليه من أجل البناء والوقيد، وينقلونه على جمالهم، إذ إن المركبات والكارات نادرة الوجود في القدس، وفيما حولها من البلدان].

* * *

الخاتمة

التحولات نتاج الخطط

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبقدرته تُنجز الخطط وتتحقق على أرض الواقع التحولات، والصلاة والسلام على هادي الأمة ومعلمها محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والرسالات، عليه وآله مزيد الصلوات.

أما بعد:

تمشياً مع ما تمت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب، ألا وهو المخطط النبوي الذي تم بتقدير وتكليف رباني من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، في العهدين المكي والمدني القائم على تخطيط بعيد المدى «استراتيجي» وتخطيط قصير المدى ـ تنفيذي، آخذاً بالأسبابِ لمواجهة التوقعات المستقبلية، ومعتمداً على منهج فكري عقدي يؤمن بالقدر ويتوكل على الله، ويسعى لتحقيق هدفٍ شرعي، هو الدعوة إلى الله وعبادته وتعمير الكون. وتربى على هذا النهج والمخطط النبوي؛ الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام وساروا عليه في بناء الدولة الراشدية.

ففي نهاية هذه المسيرة النبوية والراشدية؛ حري بي بعد أن وفقني الله

عز وجل للانتهاء من هذه الدراسة أن أعرض في ختامها جملة من المستخلصات كالتالي:

١ ـ خلصت الدراسة في الباب الأول إلى بيان أهم عوامل ومظاهر التحولات التاريخية في مكة المكرمة، من البعثة النبوية إلى حجة الوداع؛ فمن أمة مشركة تسيطر على بلد الله الحرام، إلى أمة مسلمة موحدة، وبلدة الله المقدسة تعود للإسلام والمسلمين قبلة ومحجًا وحرمًا آمنًا، كما شاء الله لها وقدر.

٢ ـ أبرزت الدراسة في الباب الثاني أهم عوامل ومظاهر التحولات التاريخية للقدس انطلاقًا من الإخبار بالحرب الفارسية الرومية في صدر سورة الروم، ومروراً بالحادثة الأشهر الإسراء والمعراج، ثم فتح القدس، ومظاهر التحولات الاجتماعية والحضارية في المدينة المقدسة، ومن مدينة أسيرة بيد الرومان إلى مدينة عربية إسلامية مقدسة، ومن مدينة انتهكت مقدساتها على يد اليهود والنصارى، إلى مدينة عُظمت قدسيتها وأُعلي قدرها.

وبفتح القدس وضمها للكوكبة المقدسة (مكة والمدينة)، اكتمل العِقْد النبوي في الثلاثية المكانية المقدسة (مكة والمدينة والقدس) من العهد النبوي إلى العهد الراشدي.

فأظهرت الدراسة بصفة عامة أهمية حماية ورعاية مقدسات الأمة،

المتمثلة في الثلاثة مساجد (المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى) وما يحيط بهما من معالم ومشاعر وآثار إسلامية.

فعلى القارئ المسلم المؤمن بالكتاب والسنة ـ اعتقاداً وتشريعاً ـ والذي يرى الأحداث التي تعيشها القدس تحت الاحتلال اليهودي ـ في العصر الحاضر ـ عليه ألا تزيده تلك الأحداث إلا يقيناً بوعد الله الصادق بالنصر والتمكين للمسلمين في الأرض كلها، وفي تلك الأرض خصوصاً، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

* * *

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (٤ ـ ٨).

(٢) سورة يونس، آية رقم (١٠).

فهرس المصادر والمراجع[1]

❊ المصادر:

- القرآن الكريم.

١. ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣/ ١٩٨٣م.

٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣. الأزدي: محمد بن عبد الله، (ـ نحو ١٦٥هـ =/ نحو ٧٨٢ م)، فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب - القاهرة، ١٩٧٠م، د. ط.

٤. الأزرقي: الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، د. م.

٥. ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٥١هـ/ ٧٦٨م): سيرة ابن إسحاق (المُسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، تحقيق: محمد حميد الله، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٦. الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٠٠٠/ ٥٠٢هـ = ٠٠٠/ ١١٠٨م)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان

---

(١) (جرى ترتيب المصادر والمراجع ترتيبًا هجائيًا وفقًا لألقاب المؤلفين مع عدم اعتبار الملحقات (ابن، وأبو، وأل التعريف).

عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٧. الأصفهاني «الأصبهاني»: أبي نعيم (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) دلائل النبوة، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق: عادل عبد الله اللحيدان، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٣٢/ ١٤٣٣هـ.

٨. دلائل النبوة، دراسة وتحقيق: عبد الله بن رفدان الشهري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ.

٩. الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس: الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ـ الإسكندرية ـ مصر: أسفار الكتاب المقدس (عند اليهود والنصارى): العهد القديم، والعهد الجديد، النسخة الكاملة للعهدين.

١٠. الأنصاري أبو محمد عبد الله بن هشام (ت٧٦١هـ/ ١٣٦٠م): تحصيل الأنس لزائر القدس، تحقيق: عيسى القدومي، وخالد نواصرة، الإصدار الثالث والعشرون، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٠م.

١١. البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) مراصد الاطلاع على أسماء الأزمنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٢. البغوي: الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، مشكاة الأنوار في فضائل النبي المختار، دراسة وتحقيق: غالب محمد هوايش حامضي، ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ.

١٣. البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ ـ

١٠٩٤م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣هـ.

١٤. البلاذري: أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) الجزء الأول، تحقيق: محمد حميد الله، أنساب الأشراف الطبعة الثالثة، دار المعارف - القاهرة، د. ت.

١٥. فتوح البلدان، اعتنى به: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، د. ط.

١٦. البيهقي: الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي بن عبد الله (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق ودراسة القسم الأول: هشام حاتم جميل الموصلي، دكتوراه، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٤/ ١٤٢٥هـ.

١٧. دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨. ابن تيمية: تقي الدين، أحمد بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٩. مجموعة الفتاوى اعتنى بها: عامر الجزار وأنو الباز، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٠. ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، فضائل القدس، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢١. صفة الصفوة، تحقيق: الشيخ خالد طرطوسي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٢٢. مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، حققه، أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٣. الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٢٤. ابن حبيب: محمد بن حبيب الهاشمي (٢٤٥هـ/ ٨٥٩ م)، كتاب المُحبّر: رواية أبي سعيد بن الحسين السكري عنه، تحقيق: الدكتورة ايلزة ليحتن شتير والدكتور محمد حميد الله، طبعة خاصة الدار النوادر ـ سورية ـ لبنان ـ الكويت، الإصدار الأول، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢٥. المنمق في أخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٦. ابن حجر، والسيوطي: الإسراء والمعراج، جمع وتحقيق: محمد عبد الحكيم القاضي، دار الحديث ـ القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٧. ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الغد الجديد ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٢٩. ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، المحلى بالآثار، دار الفكر ـ بيروت، د. ت.

٣٠. ابن حنبل: مسند الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، المحقق: شعيب الأرناؤوط ـ عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٣١. مسند الإمام أحمد: الطبعة الخامسة، بيت الأفكار الدولية ـ الأردن، د. ت.

٣٢. مسند الإمام أحمد: حققه: محمد صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ١٤٣٠هـ.

٣٣. ابن حوقل: أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧ م)، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، سنة ١٩٢٨، د. ط.

٣٤. الخطابي: أبو سليمان أحمد بن محمد (ت٣٨٨هـ/ ٩٨٨م)، معالم السنن (وهو شرح سنن الإمام أبي داود)، تحقيق: محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية بحلب، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

٣٥. ابن خلدون: أبوزيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، د. ط.

٣٦. ابن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دار

القلم، مؤسسة الرسالة ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٧هـ.

٣٧. الدمشقي: محمد بن طولون (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٨. الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٩. تجريد أسماء الصحابة، دار المعرفة ـ بيروت، د. ت، د. ط.

٤٠. الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.

٤١. الزبيدي: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، اشتهر بالسيد المرتضى الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة الكويت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٤٢. الزبيري: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب، (ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) كتاب نسب قريش، تحقيق: إ. ليفي بُروفنسال، الطبعة الثالثة، دار المعارف، د. ت.

٤٣. الزرقاني: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (ت ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م)، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٤٤. الزُّرْقاني: محمد عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، د. ت.

٤٥. الزركشي: محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر ـ القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤٦. البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٤٧. ابن زنجويه: أبو أحمد حميد بن مخلد الخرساني (ت٢٥١هـ/ ٨٦٥م)، الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٨. سبط ابن العجمي: العلامة الحافظ برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن محمد، (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس، القسم الثاني والجزء الثاني، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق: إيناس خالد العبد الكريم المنيس، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٩. ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥م): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: د. علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الشركة الدولية للطباعة، ٦ أكتوبر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٥٠. السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٥١. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، د. ط.

٥٢. الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م): الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة ـ بيروت، د. ت، د. م.

٥٣. الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)، إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، دار الكتب العلمية ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٥٤. ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد (ت٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، كتاب المغازي، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، دار إشبيليا ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٥٥. الطبري: محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م): تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٥٦. الطرطوشي: أبوبكر محمد بن الوليد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي المالكي (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م): (سراج الملوك)، دار المنهاج ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

٥٧. ابن أبي عاصم: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، السنة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٥٨. ابن عبد البر: الحافظ يوسف بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٥٩. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حققه: خليل مأمون شيما، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٦٠. أبو عبيد: القاسم بن سلام، (ت٢٢٤هـ/ ٨٣٩م)، «الأموال» تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦١. كتاب النسب، تحقيق: مريم الدرع، دار الفكر الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٦٢. ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله، الشافعي، (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، د. ط.

٦٣. ابن عقبة: موسى، (ت١٤١هـ/ ٧٥٨م)، المغازي، جمع ودراسة: محمد باقشيش أبو مالك، المملكة المغربية، جامعة ابن زهر، كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٤م، د. ط.

٦٤. العلوي الحسيني: العلامة الشريف أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن عمر (ت ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م): الروضُ المُغرّس في فضائل البيتِ المقدّس، تحقيق: أبي الحسن عبد الله الشبراوي الوراق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٦٥. الفاسي: الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٦٦. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، عادل عبد الحميد العدوي، وهشام عبد العزيز عطا، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٦٧. الفاكهي: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي (ت٢٨٠هـ/ ٨٩٣م): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٦٨. الفيومي: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ (ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م)، المصباح المنير، الطبعة الأولى، شركة أبناء شريف الأنصاري، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٦٩. القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصُبي (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م): الشفا بتعريف حقوق المصطفى: تحقيق عبده علي كوشك، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٧٠. القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م): الأحكام السلطانية للفراء، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م.

٧١. القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، الجامع لأحكام القرآن تحقيق: عبد الرزاق عبد المهدي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٧٢. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، المنار المنيف في الصحيح والضعيف: تحقيق: يحيى بن عبد الله الثمالي، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي ـ جدة، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د. ت، د. ط.

٧٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، مركز الرسالة للدراسات وتحقيق التراث: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧٤. أحكام أهل الذمة: تحقيق: يوسف بن أحمد البكري ـ شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر ـ الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٥. ابن كثير: الإمام الحافظ المؤرخ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير: دمشق ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧٦. تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧٧. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م): أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧٨. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧٩. ابن المِبْرَد الحنبلي: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م): إيضاح طرق الاستقامة في بيان أحكام الولاية والإمامة (مطبوع ضمن مجموع رسائل ابن عبد الهادي)، عناية: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٨٠. مجير الدين: الحنبلي العليمي، (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بتحقيق: عدنان يونس عبد المجيد أبو تبانة، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٨١. المسعودي: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م.

٨٢. المقدسي البشاري: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٨٣. المقدسي: شهاب الدين أبي محمود بن تميم (ت٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٨٤. المقدسي: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، فضائل بيت المقدس، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٨٥. ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، الطبعة: الأولى، دار صادر - بيروت، د. ت. ولسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٨٦. المنهاجي السيوطي: أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الخالق (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، إتحاف الأخصَّا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القسم الأول، ١٩٨٢م، د. ط.

٨٧. النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٨٨. تهذيب الأسماء واللغات، عناية وتحقيق: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتاب العلمية - بيروت، د. ت، د. ط.

٨٩. ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٩٠. الهيثمي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩١. الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ/ ٨٢٢م): فتوح الشام، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٩٢. كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩٣. ياقوت: الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار صادر - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٩٤. أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م): «الخراج» دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، د. ط.

*** المراجع:**

١) الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (ت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م): سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥ م.

٢) البابطين: إلهام أحمد: الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣) البار: محمد علي: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤) باسلامة: حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، تهامة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥) تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، تهامة، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٦) برزق: مخلص يحيى: القدس من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إصدار: وحدة الدراسات والبحوث مؤسسة القدس، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ، د. ط.

٧) البطاينة: محمد ضيف الله: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، الأردن ـ عمان، دار طارق للطباعة والنشر، إربد: دار الكندري للطباعة والنشر د. ط، د. ت.

٨) البعلبكي: منير، المورد، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ١٩٨٣م.

٩) بغدادي: رشاد محمود عبد المجيد، العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين حتى الفتح الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٠) البكري: محمد أنور بن محمد علي: مصادر تلقي السيرة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، د. ط.

١١) البلادي: عاتق بن غيث البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٢) معجم معالم الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع ـ مكة، مؤسسة الريان ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٣) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٤) البوطي: محمد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٥) التفسير الميسر: إعداد نخبة من العلماء، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الخامسة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٦) التل: عبد الله: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٧) جارودي: رجاء، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٨م.

١٨) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، مكتبة النهضة العربية، بغداد، ودار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

١٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٠) الحارثي: الشريف محمد بن حسين، سقاية الحاج مأثرة بني هاشم، ملتقى الأحبة - مكة المكرمة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، د. ط.

٢١) الحارثي: محمد بن حسين: الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي، كرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

٢٢) الحافظ: محمد نضال، الحقيقة بين النبوءة والسياسية «التوراة - الأناجيل - القرآن الكريم - نوستراداموس»، الأوائل للنشر والتوزيع - دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م.

٢٣) أبو حجر: آمنة: موسوعة المدن العربية، دار أسامة - عمان، د. ط، عام ٢٠٠٢م.

٢٤) حمادة: فاروق: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم، دمشق، د. ط، د. ت، د. ن.

٢٥) حميد الله: محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس - بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.

٢٦) الحويطان: عبد العزيز بن محمد: أحكام الحرم المكي الشرعية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٧) خان: ظفر الإسلام: تاريخ فلسطين القديم (١٢٢٠ق. م ـ ١٣٥٩م)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٨) الخرابشة: ممدوح عبد الحليم، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي (القرن ٣ - ٧ ميلادي)، ماجستير، الجامعة الأردنية، آب ٢٠٠٢م.

٢٩) الخربوطلي: علي حسني: تاريخ الكعبة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٧٦م.

٣٠) خطاب: محمود شيت: الرسول القائد، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ـ بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م.

٣١) الخلف: سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٢) الدقس: محمد، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٧م.

٣٣) الدهيسات: هايل خليفة: القدس تاريخ وحضارة، كنوز المعرفة ـ عمان، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٣٤) ابن دهيش: عبد الملك بن عبد الله: الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، مكة المكرمة، د. ت، د. م، د. ن، د. ط.

٣٥) ديسّوُ: رنيه، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ط، ١٩٥٩م.

٣٦) الراجحي: عبد العزيز: لذة العيش في فضائل قريش، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، د. م.

٣٧) رباح: إسحاق، تاريخ القدس عبر العصور، دار كنوز المعرفة العلمية ـ عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣٨) الزامل: محمد بن عبد الله، الدين والضبط الاجتماعي، قسم التربية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، د. ط، د. ت.

٣٩) زايد: أحمد، التغير الاجتماعي. مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠١م.

٤٠) الزنيدي: عبد الرحمن بن زيد، حقيقة الفكر الإسلامي، دار المسلم ـ الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٤١) الزهراني: ضيف الله، وغباشي: عادل: تاريخ مكة المكرمة التجاري، الغرفة التجارية الصناعية بمكة الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٤٢) الزهراني: ضيف الله بن يحيى، مصادر السيرة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة د. ط، د. ت.

٤٣) أبوزيد: بكر بن عبد الله: الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٤) الزيد: زيد بن عبد الكريم: فقه السيرة، دار التدمرية ـ الرياض، الطبعة الثامنة، ١٤٣٢هـ.

٤٥) سالم: السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية، د. ت، د. ط.

٤٦) السباعي: أحمد: تأريخ مكة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، د. م، د. ن.

٤٧) السرحاني: راغب الحنفي: الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٤٨) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت: ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م.

٤٩) سعفان: كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام ـ القاهرة.

٥٠) السلمي: محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ١٩٩٨م، مكة المكرمة، دار الرسالة العلمية، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٥١) الشحود: علي بن نايف: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، د. ط، د. ت، د. م، د. ن.

٥٢) شُرَّاب: محمد محمد حسن، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٥٣) شُرَّاب: محمد محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥٤) الشريف: أحمد إبراهيم، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.

٥٥) الشريف: أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.

٥٦) الشريف: عبد الله بن حسين الشنبري، الأحابيش وموقفهم من الصراع بين قريش والمسلمين، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، شوال ١٤٢٢هـ/ يناير ٢٠٠٢م.

٥٧) الشريف: عبد الله بن حسين الشنبري، نصارى بلاد الشام في ظل الحكم الإسلامي منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، رسالة دكتوراه ـ مكة المكرمة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ.

٥٨) شريفي: هند بنت مصطفى محمد الطيب، فتح مكة دراسة دعوية، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الدعوة، ١٤٢٠هـ.

٥٩) الشريم: سعود بن إبراهيم: المنهاج للمعتمر والحاج، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٦٠) الصالح: صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، د. ط، ١٩٨٢م.

٦١) صالح: محسن محمد، الطريق إلى القدس، مركز الزيتونة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة، ٢٠١٢م/ ١٤٣٣هـ.

٦٢) أبو صالح: محمد حسين، التخطيط الإستراتيجي القومي، (الخرطوم: شركة مطابع العملة، د. ط، ٢٠١٠م).

٦٣) الطاهر بن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (ت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ١٩٨٤هـ، د. ط.

٦٤) الطويل: يوسف العاص، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، الجزء الأول، صوت القلم العربي ـ مصر، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٦٥) ظاظا: حسن: القدس مدينة الله أم مدينة داود، مطبعة جامعة الإسكندرية، د. ط، ١٩٧٠م.

٦٦) العارف: عارف باشا، تاريخ القدس، الطبعة الثانية، دار المعارف، د. ط، ١٩٥١م.

٦٧) عامر نجيب موسى ناصر: استقرار القبائل العربية في بلاد الشام في صدر الإسلام، ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م.

٦٨) عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ٦٠٠ ـ ٦٦١ م، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠.

٦٩) عبد الله: محمد عبد الله «محمد علي»: بيت المقدس في الكتاب والسنة»، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٧م.

٧٠) عثمان: إبراهيم، وقبس النوري: التغير الاجتماعي، الشركة العربية المتحدة للتسويق، ٢٠١٠م.

٧١) العريني: السيد الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، د. ط، ١٩٨٢.

٧٢) العلبي: أكرم حسن، التقويم «دراسة للتقويم والتوقيت والتأريخ»، المصادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٧٣) ابن أبي عُلفة: رائد بن صبري: الكتب الستة: (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داوُد، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجة)، اعتنى به: رائد بن صبري بن أبي عُلفة، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٧٤) أبو علية: عبد الفتاح، القدس، دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، دار المريخ - الرياض، د. ط، د. ت.

٧٥) عمر: أحمد مختار، وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة المجلد الأول: الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٦) العُمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، العبيكان - الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٧٧) السيرة النبوية الصحيحة، العبيكان - الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١١م.

٧٨) العُمري: عبد العزيز، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، دار إشبيليا - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٧٩) الغامدي: علي محمد عودة: الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٨٠) أبو غدة: حسن عبد الغني، وزيد عمر العيص، وعبد الله مرحول السوالمة، والعربي محمد الإدريسي، وعبد العزيز مختار إبراهيم، وحمدان عبد الله الشمري: الإسلام وبناء المجتمع، الطبعة الخامسة، مكتبة الرشد، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٨١) الغزالي: محمد، فقه السيرة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٦٥م.

٨٢) غضبان: منير محمد: فقه السيرة النبوية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٩هـ.

٨٣) غليونجي، بول وجلال شوقي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، مكتبة المعارف بيروت.

٨٤) الفيلالي: عصام بن يحيى، دليل التخطيط الإستراتيجي بمؤسسات التعليم العالي، سلسلة إصدارات نحو مجتمع المعرفة، الإصدار السادس، معهد البحوث والاستشارات، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٨٥) قراقيش: نجوى بدر، بيت المقدس وأحكامه، مؤسسة الفرسان ـ عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م/ ١٤٣٥هـ.

٨٦) القطان: مناع، تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٨٧) الكاملي: فيصل بن علي، بيت المقدس وأطماع الروم من التدمير إلى التدويل، مركز البيان للبحوث والدراسات، مجلة البيان، الرياض، عام ١٤٣٦هـ، د. ط.

٨٨) الكتاني: السيد محمد عبد الحي الكتاني الإدريسي الحسني الفاسي: نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية»، تحقيق: عبد الله الخالدي، الطبعة الثانية، دار الأرقم ـ بيروت، د. ت.

٨٩) الكرمي: أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، دار السلام ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

٩٠) كهوس: أبو اليسر رشيد: محاضرات في سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهن، الحكمة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٩١) كريستنِسِنْ: آرثر: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى خشاب، دار النهضة العربية ـ بيروت، د. ت، د. ط.

٩٢) مؤنس: حسين، تاريخ قريش، الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩٣) المباركفوري: صفي الرحمن: الرحيق المختوم، دار الوفاء للطباعة والنشر ـ المنصورة الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٩٤) المدرس: علاء الدين شمس الدين، تاريخ الأنبياء بين مكة وبيت المقدس، الأوائل، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، د. ط.

٩٥) مدير: عصام بن أحمد حسين، وليلى زعزوع: مكة المكرمة والمدينة المنورة في الكتاب المقدس، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٩٦) المسيري: عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.

٩٧) مطالقة: أحلام محمود، أثر انتقال الصحابة إلى الأمصار في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٤١٦هـ.

٩٨) مطر: فوزية حسين، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، جدة ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٩٩) المطلق: إبراهيم بن عبد الله المطلق: التدرج في دعوة النبي، وزارة الشئون

الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٠٠) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ـ جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠١) المغربي: أحمد بن محمد: القراء الأعلام في البلد الحرام، مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة، د. ط، ١٤٢٧هـ.

١٠٢) المغربي: عبد الحميد عبد الفتاح، الإدارة الإستراتيجية لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، (القاهرة: مجموعة النيل العربية، ١٩٩٩م).

١٠٣) المقاطي: سلطان بن غويزي، السيرة النبوية من خلال تفسير الثعلبي (ت٤٢٧) من السنة الأولى حتى نهاية السنة الرابعة من الهجرة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٢٩/ ١٤٣٠هـ.

١٠٤) المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، دار المشرق ـ بيروت، ١٩٨٦، د. ط.

١٠٥) الموصلي: فتحي عبد الله، المقدمات العلمية في تأصيل الأحكام المكية، دار الألوكة للنشر ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٠٦) الندوي: السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، دار القلم ـ دمشق، الطبعة السادسة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٠٧) الندوي: السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٠٨) هارون يحيى: المعجزات القرآنية، د. ط، د. ت، د. م، د. ن.

١٠٩) الهواري: عادل مختار، التغير الاجتماعي والتنمية في الوطن العربي. مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٨م.

١١٠) الهيلة: محمد الحبيب، التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١١١) وزيري: يحيى، إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة، رابطة العالم الإسلامي (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، دار جياد للنشر والتوزيع ـ جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١١٢) اليوسف: غازي يوسف، دروس الدعوة الإسلامية في العصر المكي، الطبعة الأولى، دار الألوكة للنشر ـ الرياض، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

ـ دراسات وبحوث:

١ ـ إبراهيم: أبوبكر محمد أحمد، المبادئ الشرعية في حجة الوداع، ندوة الحج الكبرى، حجة الوادع شعائر وقيم، وزارة الحج، المجلد الأول، (٢ ـ ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ).

٢ ـ أحمد: حسين كمال الدين: الإسقاط المكي للعالم، مجلة الدارة/ العدد ٢، السنة ٧، المحرم ١٤٠٢هـ/ نوفمبر ١٩٨١م.

٣ ـ حمزة إبراهيم عامر: موقع مدينة جدة وطبيعة أرضها، (جدة عروس البحر الأحمر تقدم وحضارة) إصدار أمانة مدينة جدة ـ الدار العربية للموسوعات.

٤ ـ خلف: مروان، التطور المعماري لمدينة القدس في الفترة الإسلامية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن عشر ـ كانون ثاني ٢٠١٠م.

٥ ـ الديرشوي: محمد جنيد، الأثر الاجتماعي والنفسي لخطبة الوداع، ندوة الحج الكبرى ـ حجة الوداع ـ شعائر وقيم، مكة المكرمة، المجلد الأول، موسم حج ١٤٢٨هـ.

٦ ـ الراوندي: محمد، حجة الوداع ومكانتها في السنة النبوية، ندوة الحج الكبرى، حجة الوادع شعائر وقيم، وزارة الحج، المجلد الأول، (٢ ـ ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ).

٧ ـ ربّاط: إدمون، بحث (المسيحيون في الشرق قبل الإسلام)، مجلة «الحوار» ـ بيروت، في عددها الصادر في حزيران/ يونيو ١٩٨٩م.

٨ ـ الروسي: محمد الحافظ، مظاهر تعظيم شعائر الله تعالى من خلال حجة الوداع، ندوة الحج الكبرى، حجة الوادع شعائر وقيم، وزارة الحج، المجلد الأول، (٢ ـ ٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ).

٩ ـ زناتي: محمود: القدس بين إقرار النصوص التوراتية وكلمة التاريخ المنهجية، مجلة كان التاريخية: دورية إلكترونية ـ محكمة ـ ربع سنوية ـ متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية، السنة الثانية ـ العدد السادس/ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٩م/ ذو الحجة ١٤٣٠هـ.

١٠ ـ الزيان: رمضان إسحاق، روايات العهدة العمرية، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، المجلد الرابع عشر ـ العدد الثاني، يونيو/ ٢٠٠٦م.

١١ ـ شاهين: رياض ملكية أرض فلسطين من الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الثامن ـ العدد الثاني ـ الجزء الأول، يونية ـ ٢٠٠٠م.

١٢ ـ الشبول: أحمد: علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات في تاريخ

الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزء الأول، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٣ ـ الصّاحب: محمد عيد: رحلة الإسراء والمعراج ودلالاتها الخاصة بالقدس والمسجد الأقصى، دراسة مقدمة للمؤتمر الدّولي للقدس، عمان ـ الأردن، الذي عقدته وزارة الثقافة في ١٥ ـ ١٨ شوال ١٤٣٠هـ الموافق ٤ ـ ٧ تشرين أول ٢٠٠٩م.

١٤ ـ صقر: محمد أحمد، الاقتصاد الإسلامي مفاهيم ومرتكزات بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز ـ المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٥ ـ الطاهر: عبدالباري، الحج في الشرائع الإلهية وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخياً، بحث مقدم إلى ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ.

١٦ ـ عبد القادر بحيري: جدة والبحر الأحمر، (جدة عروس البحر الأحمر تقدم وحضارة) إصدار أمانة مدينة جدة ـ الدار العربية للموسوعات.

١٧ ـ عز الدين: يوسف، المثل الإسلامية في رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزء الثاني، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٨ ـ فارس: عزت محمود، قراءة في العُهدة العُمَرية، دراسة منشورة بمجلة جامعة دمشق ـ المجلد ٢٦ ـ العدد الأول والثاني ٢٠١٠م.

١٩ ـ القطان: مناع خليل، مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي، بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز ـ المركز

العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٠ - محمد: عمر يحيى: بيزنطة وفارس، قراءة جديدة لآخر جولات الصراع، بين القوتين العظميين في العصور الوسطى، مجلة الدرعية: السنة الثامنة، العدد الثاني والثلاثون، ذو الحجة ١٤٢٦هـ/ يناير ٢٠٠٦م.

٢١ - مرزا: معراج نواب: أثر التنمية على التغيرات المكانية بمدينة مكة المكرمة، نشرت هذه الورقة العلمية في كتاب الملتقى الرابع للجغرافيين العرب، الجمعية الوطنية للجغرافيين المغاربة، الرباط، ٢٠٠٩م.

٢٢ - نصار: مروح موسى: مكانة الأقصى وبيت المقدس، مجلة البيان، التاريخ: ٢٦/ ٠١/ ٢٠١٤م.

٢٣ - الهيتي: شاكر محمود، عبد المجيد ناصر الخطيب، الصحابة الذين دخلوا القدس، مجلة مداد الآداب، العدد الثالث، كلية الآداب - الجامعة العراقية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

* * *

فهرس الموضوعات

❋ ❋ ❋